

رعاية البيئة
فى شريعة الإسلام

الطبعــــة الأولى
١٤٢١هـ - ٢٠٠١م

القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى -
رابعة العدوية - مدينة نصر
ص . ب : ٣٣ البانوراما - تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩
فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)
البريد الإلكتروني: email: dar@shorouk.com

د. يوسف القرضاوى

رعاية البيئة
فى شريعة الإسلام

دار الشروق

من الدستور الإلهي

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لا يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ (الأعراف: ٥٥ـ٥٨).

﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (الروم: ٤١).

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ (الأعراف: ٩٦).

﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴿٩﴾ ﴾ (الرحمن: ٧ـ٩).

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله وكفى، وسلام على رسله الذين اصطفى، وعلى خاتمهم محمد المجتبى، وعلى آله وصحبه أئمة الهدى، ومن بهم اقتدى فاهتدى.

(أما بعد)،

فقد أصبحت قضية البيئة، ومشكلات البيئة، وتلوث البيئة، واستنزاف البيئة، واختلال التوازن في البيئة، بل التوازن في الكون.. أصبح هذا كله حديث المثقفين والمفكرين والعلماء في العالم كله. بل أصبح هذا همّ الجماهير الغفيرة من الناس، لأن فساد البيئة واستنزاف مواردها يهدد الجميع. حتى قال بعض الباحثين: لو كان للبيئة لسان ينطق، وصوت يسمع لصكت أسماعنا صرخات الغابات الاستوائية التي تُحرق عمدا في الأمازون، وأنين المياه التي تخنقها بقع الزيت في الخلجان والبحار، وحشرجة الهواء الذي يختنق بغازات الدفيئات والمصانع والرصاص في مدن العالم الكبرى.

لقد بات للبيئة (علْمٌ) خاص، يبحث في قضاياها، ويفصل موضوعاتها، ويعالج مشكلاتها، أُلِّفَ فيه عدد كبير من الكتب في أنحاء العالم، وبمختلف اللغات. ومنها في لغتنا العربية العزيزة.

ولا عجب أن تنشأ للبيئة وحمايتها في كل الدول مؤسسات رسمية وشعبية، علمية وعملية، إلى جوار المؤسسات الإقليمية والمؤسسات الدولية،

وأن تعقد الندوات العلمية، والحلقات الدراسية، والمؤتمرات العامة، لمواجهة هذه القضية الكبيرة بما تستحقه.

وبطبيعة الحال لا بد في هذا الموقف من بروز سؤال كبير يقول: ما موقف الدين بصفة عامة، والإسلام بصفة خاصة من قضايا البيئة؟

ولقد كتب عدد من الإخوة الفضلاء ممثلين لهذه الوجهة الإسلامية، ولا يسعنا إلا أن نشكر لهؤلاء الإخوة بحوثهم وجهودهم، ولكن لا يزال في المجال متسع لقول قائل، ولكل شيخ طريقة، ولكل مجتهد نصيب. وإنما لكل امرئ ما نوى.

هذا، وقد انتشرت كلمة (حماية البيئة) حتى غدت شبه مصطلح فيما ينبغي عمله نحو البيئة. ولكني آثرت عليها كلمة أراها أحق وأولى في هذا المقام من كلمة (الحماية) وهي كلمة (الرعاية) فكما تقول: (رعاية الطفولة) أو (رعاية الأمومة) أو (رعاية الأسرة) تقول أيضا: (رعاية البيئة).

ذلك أن كلمة (الحماية) تقتضي المحافظة على البيئة من جهة العدم أو السلب، بمعنى المحافظة عليها من كل ما يفسدها أو يضر بها ويلوثها.

أما كلمة (الرعاية) فهي تقتضي المحافظة على البيئة من جهة الوجود، ومن جهة العدم جميعا. وبعبارة أخرى: من جهة الإيجاب، ومن جهة السلب.

فمن جهة الإيجاب أو الوجود: ينبغي العناية بالبيئة من جهة ما يرقى بها ويصلحها وينميها، ويصل بها إلى غايتها المرجوة.

ومن جهة السلب أو العدم: ينبغي حمايتها من كل ما يعود عليها بالضرر والتلوث والفساد. وكل هذا يدخل تحت مفهوم العناية.

ولهذا آثرت أن أسمي كتابي هذا: (رعاية البيئة في شريعة الإسلام).

ولقد طلب مني المنتدى العالمي للبيئة من منظور إسلامي، الذي انعقد في جدة في الفترة ما بين ٢٦و٢٨ رجب ١٤٢١هـ الموافق ٢٤ ـ ٢٧/ ١٠/ ٢٠٠٠م

وشاركت فيه عدة مؤسسات محلية وعربية وإسلامية وعالمية : أن أكتب بحثا عن موقف الشريعة الإسلامية من قضايا البيئة ، فتوكلت على الله ، وشرعت في كتابة هذا البحث الذي أردته أن يكون قصيرا ، فطال مني ، نظرا لاتساع أطراف الموضوع ، وحاجته إلى الإشباع ، فكان هذا الكتاب الذي أرجو أن يسهم مع كتب أخرى في تجلية النظرة الإسلامية إلى البيئة وإصلاحها والمحافظة عليها : فقها وسلوكا ، أو فكرا وتطبيقا .

وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

الدوحة في : شعبان ١٤٢١هـ　　　　الفقير إليه تعالى

نوفمبر ٢٠٠٠م　　　　**يوسف القرضاوي**

تمهيد
البيئة ومكوناتها

البيئة ومكوناتها

ما المراد بالبيئة؟

البيئة ـ بعيدا عن التعريفات اللغوية والاصطلاحية ـ هي المحيط الذي يعيش فيه الإنسان، و (يبوء) إليه إذا سافر أو اغترب بعيدا عنه. فهو مرجعه في النهاية ومثابته، شاء أم أبى.

وهذه البيئة تشمل البيئة الجامدة والحية.

والبيئة الجامدة تشمل (الطبيعة) التي خلقها الله، و (الصناعية) التي صنعها الإنسان.

كما تشمل البيئة (الأرضية)، والبيئة (الفلكية) أو (السماوية) من الشمس والقمر والنجوم.

والبيئة الصناعية تشمل: ما يحفره الإنسان من أنهار، وما يغرسه من أشجار، وما يعبِّده من طرق، وما ينشئه من أبنية، وما يصنعه من أدوات وآلات، تصغر أو تكبر، للسلم أو للحرب.

والبيئة الحية تشمل الإنسان والحيوان والنبات.

وهذه البيئة الطبيعية ـ كما خلقها الله تعالى ـ تتميز بأمرين أساسيين:

الأمر الأول: أن هذه البيئة مهيئة بكل ما فيها لمصلحة الإنسان، وخدمة الإنسان، وتوفير حاجات الإنسان.

فقد كان الإنسان في الجنة ـ قبل أن يهبط إلى الأرض ـ مكفول الحاجات،

مؤمّن المطالب، دون أن يجهد جهده في تحصيلها، كما قال تعالى لآدم وزوجه محذرا له من عدوه إبليس اللعين: ﴿ يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لا تَظْمَأُ فِيهَا وَلا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ ﴾ (طه: ١١٧-١١٩).

ولكن حين خرج آدم من الجنة، وهبط إلى الأرض، التي استخلف فيها، كان عليه أن يسعى إلى رزقه، ويشقى - كما ذكر القرآن - في تأمين معيشته.

ومن فضل الله على الإنسان أنه حين حمله عبء تأمين عيشه بالكد والسعي، قد هيأ له كل الأسباب التي تعين على ذلك.

فالأرض قد هيئت لتكون مستقرا ومتاعا للإنسان، فجعلها الله ذلولا له ﴿ وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ ﴾ منذ خلقها ﴿ فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ ﴾ (فصلت: ١٠) وقال تعالى: ﴿ وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ (الحجر: ١٩، ٢٠) وفي سورة أخرى يقول: ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ (الأعراف: ١٠).

ومن لوازم ذلك: أن الله جعل تربة الأرض خصبة قابلة للزراعة والإنبات، فلو كانت الأرض كلها من الصخر الجامد أو من الفضة أو الذهب، أو الماس، ما أمكن الإنسان زراعتها، وهذا معنى جعلها ذلولا.

ثم هيأ الله الماء الذي يحيي الأرض بعد موتها، وهو أساس الحياة للإنسان والحيوان والنبات، كما قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾ (الأنبياء: ٣٠) وقال تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ ﴾ (الفرقان: ٤٨-٤٩).

وكما أنزل الله الماء من السماء - وهو المطر - سخر للناس الأنهار تجري من تحتهم، كما قال تعالى: ﴿ وسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ ﴾ (إبراهيم: ٣٢).

ومن ذلك تسخير الشمس والقمر للإنسان قال سبحانه: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾ (إبراهيم: ٣٣).

الأمر الثاني: أن هذه البيئة كلها بجوانبها المختلفة، يتفاعل بعضها مع بعض، ويتكامل بعضها مع بعض، ويتعاون بعضها مع بعض، وفق سنن الله تعالى في الكون.

فالشمس في السماء تعطي الأرض من ضوئها وحرارتها ما لاتقوم الحياة بدونه، وهي تعطي هذا العطاء بلا توقف ولا مَنٍّ ولا أذى، وفق نظام لا يتبدل.

وكذلك القمر يعطي نوره - الذي يستمده من الشمس - للأرض، كما يؤثر في ظاهرة المد والجزر، وكل هذا لخدمة الإنسان.

وبهذا امتن الله على عباده بقوله: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾ (إبراهيم: ٣٣) وتأمل قوله تعالى (لكم) التي كررها في الآية، ليدلنا على أن هذه الأجرام العظيمة هيئت لمصلحة الإنسان المستخلف في الأرض. وقال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ (يونس: ٥).

والأرض بغلافها الجوي، قد هيأها الله تعالى لسكنى الإنسان، منذ أهبط إليها آدم وزوجه ﴿ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ (الأعراف: ٢٤).

وقد جعل الله هذه الأرض ذلولا للإنسان ليمشي في مناكبها، ويأكل من رزقه تعالى، وجعلها للإنسان مهادا وفراشا وبساطا، فهي - مع كرويتها -

ممدودة للإنسان، يمكن أن يصول فيها ويجول، ويزرع ويغرس، ويبني ويصنع، فقد وضع الله فيها من العناصر اللازمة لحياة الإنسان، وهيأ فيها من الأسباب المعينة له على القيام بمهمته في الأرض، فهي مهيأة لإنبات النبات، وإعاشة الحيوان، وحياة الإنسان.

ومن قديم قال نوح لقومه ما حكاه عنه القرآن: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾﴾ (نوح: ١٥ ـ ٢٠).

وقال تعالى ممتنا على خلقه: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴿٣١﴾ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴿٣٢﴾ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴿٣٣﴾﴾ (النازعات: ٣٠ ـ ٣٢).

وفي الآية إشارة إلى أن ماء الأرض مخرج أساسا من الأرض، أي من بحارها وجوفها.

وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾﴾ (الأنبياء: ٣٠ ـ ٣١).

وقال سبحانه ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾﴾ (الحجر: ١٩ ـ ٢١).

وفي هذه الآيات إشارتان في غاية الأهمية:

الأولى: قوله تعالى: ﴿مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ﴾ فهي حقيقة علمية، دلت

عليها حقائق العلم الحديث : أن كل نبات مكون من عناصر محددة من المعادن والأملاح والماء وغيرها وهي موزونة بالجرام والملي جرام .

والثانية : أن هذا الكون لا يسير جزافا ، ولا يمضي اعتباطا ، بل كل شيء فيه بمقدار وحساب وميزان ، فلو زادت كمية الماء في البحار عما هي عليه ، أو نقصت ، ولو زاد حجم الكرة الأرضية عما هو عليه ، أو نقص ، ولو زادت سرعة دوران الأرض حول نفسها أو حول الشمس أو نقصت ، ولو زادت كمية الأكسجين عما هي عليه أو نقصت . . إلخ هذه الاحتمالات . . لو حدث ذلك ما قامت الحياة على الأرض .

وقال تعالى : ﴿ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ﴾ (ق : ٧ - ١١) .

ولا ينافي تنزيل الماء المبارك من السماء أنه مُخرج أصلا من الأرض . فهو يخرج ويتبخر ويصعد إلى أعلى ، ويكوّن السحاب المسخر بين السماء والأرض ، ومن هذا السحاب ينزل الماء ، وهو من جهة السماء ، لا من السماء نفسها ، كما هو معلوم اليوم لتلاميذ المدارس .

وقد قال الشاعر العربي قديما في ممدوحه :

كالبحر يمطره السحاب ، وماله فضل عليه ؛ لأنه من مائه !

وقد امتن الله تعالى في آيات عدة بتسخير البحر للإنسان ، كما في قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ (الجاثية : ١٢ ، ١٣) .

والبحر في اللغة يشمل العذب والمالح، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ (الفرقان: ٥٣).

وبهذا نرى التكامل والتعاون بين السماء والأرض في خدمة الإنسان: السماء بشمسها وقمرها ونجومها، والأرض بمائها وبحارها وأنهارها ونباتها وحيوانها. كما قال الله تعالى ﴿مَتَاعًا لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ﴾ (النازعات: ٣٣).

واقرأ هذه الآيات التي بين فيها القرآن كيف يهيأ الطعام للإنسان، والمكونات الأساسية لإعداده له، يقول تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلاً ﴿٢٩﴾ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾ (عبس: ٢٤-٣٢)

ولقد عرّفنا العلم الحديث كيف تتكامل المملكة الحيوانية، وكيف تصدر إحداها إلى الأخرى ما تستغني عنه، وتستورد منها ما تحتاج إليه، فهذه تتنفس ثاني أكسيد الكربون، وتفرز الأكسجين، ولا تقوم حياتها بغير ذلك، والأخرى عكسها تماما، فلو كان الجميع يحتاج الأكسجين مثلا، لنفدت الكمية المخلوقة منه، وهلكت المملكتان معا، ولكن الله الذي خلق الجميع، نظم التعامل بين المملكتين على هذا النحو الرائع.

والأمر المهم والضروري في البيئة أن تظل عناصرها ومكوناتها الأساسية والكبرى متكاملة متعاونة فيما بينها، يؤدي كل منها دوره الذي خلقه الله له، دون أن يجور على غيره، ولا يجور عليه غيره، ويعطي غيره، كما يأخذ منه، وبهذا يأخذ حقه، ويؤدي واجبه.

وما أجمل ما قاله العلامة المناوي في (فيض القدير) في شرح حديث «مانع الزكاة يوم القيامة في النار»[1].

«واعلم بأن الوجود كله متعبد لله على أداء الزكاة. انظر إلى الأرض التي هي أقرب الأشياء إليك تجدها تعطي أقرب الخلق إليها - وهم من على ظهرها - جميع بركاتها، لا تبخل عليهم بشيء مما عندها، وكذا النبات يعطي ما عنده، وكذا الحيوان والسماء والأفلاك، الكل متعاون بعضه لبعض، لا يدخر شيئا مما عنده في طاعة الله؛ لأن الوجود كله فقير بعضه إلى بعض، قد لزم الفقر وشملته الحاجة، فعطف بعضه على بعض. وإعطاؤه ما عنده هو زكاته. فمانع الزكاة قد خالف أهل السماء والأرض وجميع الموجودات، فلذلك وجب قتاله وقهره في الدنيا وأدخل النار في العقبى»[2].

(١) رواه الطبراني في الصغير عن أنس بن مالك وقال الهيثمي فيه سعد بن سنان وفيه كلام كثير وقد وثق. ورواه عنه أيضا الرازي في مشيخته. قال ابن حجر: إن كان هذا محفوظا، فهو حسن. وفيه رد على قول ابن الصلاح: لم نجد له أصلا. انظر: فيض القدير للمناوي (٥/ ٥٠٥) ط: دار المعرفة بيروت.
(٢) انظر: فيض القدير (٥/ ٥٠٥).

(١)

التأصيل الشرعي لرعاية البيئة

١ ـ علم أصول الدين ورعاية البيئة.

٢ ـ علم السلوك ورعاية البيئة.

٣ ـ علم الفقه ورعاية البيئة.

٤ ـ علم أصول الفقه ورعاية البيئة.

٥ ـ علوم القرآن والسنة ورعاية البيئة.

التأصيل الشرعي لرعاية البيئة

إن رعاية البيئة وحمايتها وإصلاحها والمحافظة عليها، ليست أمرا دخيلا على علوم الإسلام، والثقافة الإسلامية، وليست من ابتكار الغرب في هذا العصر، كما قد يتوهمه من لم يتعمق في معرفة تراثنا العلمي والحضاري الإسلامي.

بل الحقيقة الجلية: أن رعاية البيئة تتصل بعدد من علومنا الإسلامية الأصيلة، كما سنكشف عنه النقاب في هذا الفصل من كتابنا.

فهي تتصل بعلم أصول الدين، أو علم التوحيد.

وتتصل بعلم السلوك والتزكية أو علم التصوف.

وتتصل كذلك بعلم الشريعة أو علم الفقه.

وتتصل أيضا بعلم أصول الفقه ومقاصد الشريعة.

وتتصل أخيرا بعلوم القرآن والسنة.

١ ـ علم أصول الدين ورعاية البيئة

أما علم أصول الدين، فيتصل برعاية البيئة، من حيث إنه يجعل كل مكونات البيئة وعناصرها الجامدة والحية، العاقلة وغير العاقلة: كلها مخلوقات ساجدة لله تعالى، مسبحة بحمده.

فهي تشترك مع الإنسان في المخلوقية لله تعالى، كما قال سبحانه في كتابه: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٣ خَلَقَ الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۝٤ وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٧ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ ۝٨﴾ (النحل: ٣ ـ ٨).

وهي تشترك مع الإنسان في سجودها لله تعالى، والانقياد لأمره، والإذعان لسنته في الخلق، كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ﴾ (الرعد: ١٥) ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ۝٤٨ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلائِكَةُ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ ۝٤٩﴾ (النحل: ٤٨، ٤٩).

وهي كذلك تشترك مع الإنسان في تسبيحها لله رب العالمين، وإن كنا لا نفقه تسبيحها، كما قال تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ

الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (الحشر: ١) ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (التغابن: ١).

وقال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ (الإسراء: ٤٤).

ولكن الله تعالى ميز الإنسان على سائر مكونات البيئة بما وهبه من العقل والملكات الروحية، التي أهله بها ليكون خليفة في الأرض، حاملا أمانة التكليف فيها، وهي الأمانة التي صورها القرآن بقوله: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً﴾ (الأحزاب: ٧٢).

ولقد خلق الله الإنسان على طبيعة مزدوجة، ففيه العنصر الطيني الذي يجعله أهلا لعمارة الأرض، وفيه العنصر الروحي الذي جعله يستحق التكريم والخلافة، كما قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٧٢﴾﴾ (ص: ٧١، ٧٢) ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ (الإسراء: ٧٠) وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٣٠).

وقد عقد الله امتحانا لآدم والملائكة ثبت فيه تفوق آدم في المجال العلمي على الملائكة، وبذلك استحق أن يكون خليفة في الأرض. ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم

بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ (البقرة: ٣١ - ٣٣).

دور الإنسان في البيئة:

ودور الإنسان هنا هو الدور الأساسي والرئيس، فكل ما في البيئة من مكونات مسخر له، وعليه أن يتعامل معها بما لا يجافي سنن الله في خلقه، ولا أحكام الله في شرعه، فيأخذ منها ويعطيها، ويرعى لها حقها، لتؤتي له حقه، ويتمثل هذا الدور الإنساني في مهام ثلاثة، تعتبر هي الأهداف الكبرى للحياة الإنسانية، أو كما عبر الإمام الراغب الأصفهاني[1]، هي مقاصد الله تعالى من المكلفين:

المقصد الأول: عبادة الله تعالى، وإليه الإشارة بقوله: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ (الذاريات: ٥٦) والعبادة تشمل كل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال، فهي تستوعب كل مجالات الحياة.

والمقصد الثاني: الخلافة لله في الأرض، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ (البقرة: ٣٠) وخلافة الله إنما تتم بإقامة الحق والعدل، ونشر الخير والصلاح، كما قال الله لداود: ﴿ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ (ص: ٢٦).

والمقصد الثالث: عمارة الأرض، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ (هود: ٦١) ومعنى (استعمركم): طلب إليكم أن تعمروها.

(١) في كتابه (الذريعة إلى مكارم الشريعة) تحقيق الدكتور أبو اليزيد العجمي.

وعمارة الأرض إنما تتم بالغرس والزرع والبناء، والإصلاح والإحياء، والبعد عن كل فساد أو إخلال.

وهذه المقاصد كلها متداخلة ومتكاملة ومتلازمة، فعمارة الأرض تدخل في الخلافة، وكلتاهما ضرب من العبادة لله تعالى، كما أن العبادة تدخل في الخلافة، فلا خلافة بلا عبادة.

فلو قام الإنسان بهذا الدور، وحقق هذه المقاصد، لسعد الإنسان وأسعد من حوله، وأكل الناس من فوقهم ومن تحت أرجلهم، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾ (الأعراف: ٩٦) وقال: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ (النحل: ٩٧).

٢ ـ علم السلوك ورعاية البيئة

وأما علم السلوك والتزكية أو علم التصوف، وصلته بالبيئة ورعايتها، فلأن هذه الرعاية تدخل في دائرة (الخُلُق) الذي هو أحد ركني التصوف. كما عرفه أحدهم فقال: هو الصدق مع الحق، والخُلُق مع الخَلْق.

ولا ريب أن البيئة من جملة الخلق.

وقال بعض المتقدمين من المشايخ: التصوف كله خلق، فمن زاد عليك في الخلق، فقد زاد عليك في التصوف.

وعلق على ذلك الإمام ابن القيم فقال: بل الدين كله خلق، فمن زاد عليك في الخلق، فقد زاد عليك في الدين.

وقال الكتاني: التصوف هو الخلق، فمن زاد عليك في الخلق، زاد عليك في التصوف[١].

ولعل مما يؤيد هذا الحديث النبوي القائل: «إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق «أو» مكارم الأخلاق»[٢].

وقال بعضهم: الدين كله في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ (النحل: ١٢٨).

---

(١) انظر: مدارج السالكين لابن القيم (٢/ ٣٠٧) بتحقيق الشيخ محمد حامد الفقي، طبعة السنة المحمدية.

(٢) رواه ابن سعد والبخاري في الأدب المفرد والحاكم والبيهقي في الشعب عن أبي هريرة. انظر: صحيح الجامع الصغير (٢٣٤٩).

فالدين مجموع هذين الأمرين: التقوى مع الله، والإحسان مع خلقه.

على أن كلا من التقوى والإحسان يمكن أن تكون مع الله، ومع الناس. فالمكلف عليه أن يتقي الله في كل شيء، وفي التعامل مع كل شيء، ومنه البيئة بجميع عناصرها. كما أن عليه الإحسان في كل شيء، كما في الحديث الصحيح «إن الله كتب الإحسان على كل شيء»[1]. ومنه الإحسان مع الله تعالى، كما وصفه النبي صلى الله عليه وسلم، كما في حديث جبريل: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[2].

ومن أعظم التوجيهات الإسلامية بالنسبة إلى البيئة: الإحسان بالبيئة بكل عناصرها: الإحسان بالإنسان، والإحسان بالحيوان، والإحسان بالنبات، والإحسان بالماء، والإحسان بالهواء... إلخ. كما سنوضح ذلك بعد.

الدين المعاملة:

لقد شاعت عند جماهير المسلمين هذه الكلمة التي غدت عندهم من الحقائق الدينية، وهي: الدين المعاملة، حتى جعلها بعضهم حديثا نبويا، وما هي بحديث، ولكن معناها صحيح، دل عليه القرآن والسنة.

وهم يريدون بهذه الكلمة: أن الدين ليس مجرد أداء الشعائر العبادية المعروفة، ثم تسيء بعد ذلك معاملتك مع الخلق، مع الإنسان والحيوان، ومع الكون كله.

ومعنى أن الدين المعاملة: أن تحسن معاملتك في كل شيء: بدءا من المعاملة مع ربك، والمعاملة مع نفسك، أي ذاتك بكيانها الجسدي والعقلي والروحي، ومعاملتك مع الناس من حولك قريبهم وبعيدهم، مسلمهم وكافرهم، ومع الكائنات من حولك: جامدها وحيها، صامتها وناطقها، عاقلها وغير عاقلها.

---

(١) رواه مسلم عن شداد بن أوس، وهو من أحاديث الأربعين النووية.

(٢) رواه مسلم عن عمر بن الخطاب برقم (٨).

وقد رأينا القرآن الكريم يرد على اليهود دعواهم في حقيقة (البر) وهو يعني (التدين) حين أقاموا الدنيا وأقعدوها، من أجل تحويل المسلمين قبلتهم من القدس إلى مكة، أو من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام، وقالوا: ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها؟ وأثاروا الشبهات والأقاويل حول القضية، ونزلت فيها آيات طويلة في سورة البقرة، كان فيها آية البر: ﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ (البقرة: ١٧٧).

فبين في هذه الآية: بر العقيدة، وبر العبادة، وبر الخلق والسلوك، وأن هذا هو حقيقة الصدق وحقيقة التقوى. وليس مجرد التوجه إلى مشرق أو مغرب.

وفي القرآن تقرأ سورة الماعون: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ (١) فَذَٰلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ (٢) وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ (٣) فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ (٤) الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ (٥) الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ (٦) وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ (٧)﴾ (الماعون: ١ ـ ٧).

فبينت السورة أن المكذب بالدين هو ذلك الإنسان الذي لا قلب له، والذي يسيء التعامل مع الضعفاء من الناس: الذي يدع اليتيم، يدفعه بعنف ويقهره، ولا يحث الناس على طعام المسكين، فلم يكتف الإسلام من الإنسان أن يطعم المسكين، بل عليه واجب اجتماعي آخر، وهو حض الآخرين وتحريضهم على إطعام المسكين. وإطعام المسكين: كناية عن رعاية ضروراته وحاجاته الأساسية كلها، فلا يقبل أن تطعمه و تدعه عاريا أو مشردا لا مأوى له.

وفي السنة النبوية، نجد تأكيد هذا المعنى في مثل قوله صلى الله عليه وسلم: «من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه»[1].

وفي الحديث الآخر: «رب صائم ليس له من صيامه إلا الجوع، ورب قائم ليس له من قيامه إلا السهر»[2].

وهذا إذا لم يثمر الصيام والقيام في نفسه تقوى الله، وحسن التعامل مع خلقه، فدل ذلك أن عبادته مدخولة، ولم تستكمل شرائطها.

ومن المعلوم لدى المسلمين: أن الإنسان المسلم يستطيع أن يحول أعماله كلها - حتى المباحات منها - إلى عبادات وقربات إلى الله تعالى، وذلك بالنية الصالحة. بمعنى أن ينوي بعملة ابتغاء وجه الله تعالى ومثوبته في الآخرة، فهذا هو الذي يجعل عمله الدنيوي من زرع وغرس وعمارة للأرض، وقيام بصنعة واحتراف: عبادة لله تعالى إذا أتقن عمله ووفاه حقه، ولم يشغله عن واجب[3].

بل يمكنه أن يجعل من أكله وشربه ومباشرته لزوجته: طاعة وعبادة لله تعالى، إذا صحت نيته. كما جاء في الحديث الصحيح: «وفي بضع أحدكم صدقة. قالوا: يا رسول الله، أيأتي أحدنا شهوته، ويكون له فيها أجر؟ قال: أليس إذا وضعها في حرام كان عليه وزر، فكذلك إذا وضعها في حلال كان له أجر» رواه مسلم.

وبهذه الروح، وبهذه النية، يتعامل المسلم مع البيئة ومكوناتها من حوله، فهو يتعبد لله سبحانه برعايتها، ويتقرب إليه بكل ما يقدمه صيانة لها، ورفقا

---

(١) رواه البخاري في كتاب الصوم عن أبي هريرة.

(٢) رواه ابن ماجه عن أبي هريرة وذكره الألباني في صحيح الجامع الصغير (٣٤٨٨) وروى الطبراني نحوه عن ابن عمر، وأحمد والحاكم والبيهقي عن أبي هريرة. نفسه (٣٤٩٠)

(٣) انظر: كتابنا (العبادة في الإسلام) فصل (مجال العبادة في الإسلام).

بها وإصلاحا لها. من كل ما ستتحدث عنه: من التشجير والتخضير، ومن الإحياء والتعمير، ومن النظافة والتطهير، ومن الرفق والإحسان، ومن المحافظة على موارد البيئة وثرواتها، والمحافظة عليها من كل أنواع الإضاعة والإتلاف، والإفساد في الأرض.

ولذا قال تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (الأعراف: ٥٦).

فقرن في الآية الكريمة النهي عن الإفساد في الأرض ـ مثل تلويث البيئة والإخلال بتوازنها ـ بدعاء الله تعالى خوفا وطمعا، وهو ربط للعبادة بالمعاملة، ثم بينت الآية أن رحمة الله قريب من المحسنين، سواء كان إحسانهم في إصلاح الأرض وعمارتها أم في حسن الدعاء لله والتعبد له. فهؤلاء المحسنون هم الذين تقترب منهم رحمة الله عز وجل.

الود والحب للبيئة:

ومن أجمل ما جاء به الإسلام في علاقة الإنسان بالبيئة وبالكون عامة من حوله:

إنشاء عاطفة الود والحب لما حول الإنسان من كائنات جامدة أو حية، فالأحياء من الدواب والطيور يراها أمما أمثالنا، لكل أمة خصائصها وطرائقها، كما نبه على ذلك القرآن الكريم بقوله: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ (الأنعام: ٣٨).

وغير الأحياء من الكائنات يراها ساجدة مسبحة لله تعالى، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ﴾ (الحج: ١٨).

وقال سبحانه: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ (الإسراء: ٤٤).

فلا عجب أن يضمر لهذه الكائنات الساجدة المسبحة لله: الود والحب، لأنها تعبد الله تعالى، كما يعبده هو.

وقد عبر النبي صلى الله عليه وسلم عن هذا الود وهذا الأنس بهذه المخلوقات بهذا الحديث الرائع الذي قاله وهو عائد إلى المدينة من غزوة تبوك، وقد أشرف على المدينة، ولاح له جبل أحد، فقال: «هذه طابة، وهذا أحد، جبل يحبنا ونحبه»[1].

هذا مع أن هذا الجبل وقعت بجواره غزوة أحد، التي استشهد فيها سبعون من المسلمين، على رأسهم عمه حمزة بن عبد المطلب أسد الله وأسد رسوله، وربما لو كان أحد غيره لتشاءم من هذا الجبل، ولكنه عبر عن عاطفته نحوه بهذه الجملة المبينة الرائعة «يحبنا ونحبه» فكأنما جعل من الجبل كائنا حيا عاقلا له قلب يحس ويحب، فلم يكتف بأنه يحب أحدا، بل قال عن الجبل «يحبنا» فما أجملها وأروعها وأصدقها من علاقة.

فأي أنس بالبيئة، وأي إيناس لها أوضح مما دل عليه هذا التعبير النبوي الجميل.

وكان الصحابة رضي الله عنهم، يتعاملون مع البيئة بهذا الود والحنين، كما نرى في حنين بلال إلى مكة وأوديتها ومياهها وجبالها ونباتاتها، وشوقه إليها، وإنشاده في ذلك:

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة ... بواد، وحولي إذخر وجليل؟

وهل أردن يوما مياه مجنة؟ ... وهل يبدون شامة وطفيل؟

وكل هذه الأشياء في مكة كون هذا الصحابي الجليل عاطفة نحوها كأنها عاطفة المحب العاشق لمن يهواه.

---

(١) متفق عليه عن أبي حُميد كما في اللؤلؤ والمرجان (٨٨٠) وطابة: اسم من أسماء المدينة.

علاقة المسلم بالكون من حوله:

وإن علاقة المسلم بالكون من حوله لهي علاقة متميزة.

الكون آية:

فهو ينظر إلى الكون بوصفه آية من آيات الله جل جلاله، فكل ما فيه يدل على الله تعالى دلالة الصنعة على الصانع، والأثر على المؤثر، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ﴾ (آل عمران: ١٩٠).

وقال تعالى: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ۝١ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣﴾ (الأعلى: ١ ـ ٣) وهذه الأعمال الأربعة وآثارها من أدل الدلائل على الله تبارك وتعالى: الخلق، والتسوية، والتقدير والهداية، والحديث عن كل منها يطول[1].

وقد قال علماؤنا قديما: الكون هو المصحف الصامت، والقرآن هو المصحف الناطق. أو الكون هو الكتاب المنظور، والقرآن هو الكتاب المسطور.

وقال الشاعر:

تأمل سطور الكائنات، فإنها ... من الملإ الأعلى إليك رسائل

وقد خط فيها لو تأملت سطرها: ... ألا كل شيء ما خلا الله باطل

وعلاقة المسلم بالكون هنا، تتمثل في (الاعتبار والتأمل والنظر والتفكر) كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ (الأعراف: ١٨٥).

---

(١) انظر حديثنا عن هذه الشعب الأربع في كتابنا: (وجود الله) ـ (دليل الكون).

﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ﴾ (يونس: ١٠١).

الكون نعمة:

وينظر المسلم إلى الكون أيضا بوصفه نعمة من الله تعالى عليه، أو قل: إنه حافل بنعم الله التي أسبغها على الإنسان ظاهرة وباطنة. كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ (لقمان: ٢٠).

وفصل بعض هذه النعم في بعض الآيات، كما في قوله تعالى في سورة إبراهيم: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾ (إبراهيم: ٣٢-٣٤).

فإذا كان الغربيون يعتبرون أساس المشكلة الاقتصادية هو قلة الموارد في مقابل كثرة البشر المتزايدة، فإن القرآن يرى أن نعم الله لا يمكن إحصاؤها، وأن موارده في الكون غزيرة، ولكن المشكلة تكمن في الإنسان الظلوم الكفار.

فهو الذي يمكن أن يسبب الخلل في الكون وفي أرزاق الخلق بظلمه وتجاوزه، أو ببطره وكفرانه بالنعمة.

ومن هنا لا يمكن علاج ضعف التربة أو نقص الموارد أو غير ذلك ما لم تعالج ضعف الإنسان من داخله، ودخول الظلم والكفران عليه.

وفي القرآن سورة تسمى (سورة النحل) وقد سماها بعض السلف (سورة النعم) لأن الله تعالى ذكر فيها كثيرا من نعمه على عباده، منها: الأنعام ﴿وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾﴾ (النحل: ٥ ـ ٧).

ومنها: دواب الركوب ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ (النحل: ٨).

ومنها: الماء الذي به حياة الإنسان والحيوان والنبات. ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾﴾ (النحل: ١٠ ـ ١١).

ومنها: ما سخر الله للإنسان من عالم الأفلاك وعالم الأرض ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾ (النحل: ١٢ـ ١٣).

ومنها: عالم البحار الذي يشمل ثلاثة أرباع الكرة الأرضية ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ إلى قوله: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (النحل: ١٤ ـ ١٨).

وهنا تجمع هذه السورة فيما ذكرت بين اعتبار هذه الأشياء (آية) دالة على

الله تعالى، لقوم يتفكرون، أو لقوم يعقلون، أو لقوم يذّكرون، وبين اعتبارها نعمة تستوجب الشكر (ولعلكم تشكرون).

فالمسلم يتعامل مع الكون بالاعتبار تارة، وبالشكر تارة أخرى. يقول تعالى في نعمة النبات والزرع: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ (يس: ٣٣ ـ ٣٥).

وفي نفس السورة يذكر نعمة الأنعام: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ (يس: ٧١ ـ ٧٣) وتكرار هذه الفاصلة (أفلا يشكرون) لتأكيد طلب الشكر، والحض عليه.

وشكر النعمة هو استخدامها فيما خلقت له، وهو ما يعين الناس على تحقيق أهدافهم الدنيوية والأخروية، وهو الذي يؤدي إلى حفظ النعم، بل زيادتها ونمائها، وفق سنن الله تعالى.

يقول تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ (إبراهيم: ٧)

وهذه النظرة إلى الكون لها أهميتها في نفس الإنسان وفكره ووجدانه، فالكون ليس إلها، يرجى ويخشى، كما تصوره بعض الديانات، التي تؤلهه أو تؤله أجزاء منه، مثل الشمس والقمر والنجوم في السماء، ومثل بعض الجبال أو الأنهار، أو الأشجار، أو الحيوانات في الأرض.

والكون ليس عدوا للإنسان يريد أن (يقهره)، كما يعبر الغربيون عادة عن (قهر الطبيعة).

بل هو مخلوق مسخر للإنسان، ولخدمة الإنسان، ومنفعة الإنسان ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا﴾ (البقرة: ٢٩) ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ (الجاثية: ١٣).

فهو يشترك مع الإنسان في مخلوقيته لله تعالى، ويشترك مع المسلم في سجوده وتسبيحه لله جل شأنه ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (التغابن: ١) ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ﴾ (الحج: ١٨) فهذه المخلوقات كلها في العالم العلوي والعالم السفلي، ساجدة لربها سبحانه. ما عدا الناس فكثير منهم الساجد، ومنهم من لا يسجد، ومنهم من لا يسجد له تعالى، جاحدا أو مشركا. وقد نقلنا في الفصل السابق عن الإمام المناوي أن الكون كله متعبد لله تعالى.

الاستمتاع بالجمال في الكون:

ومن روائع التعاليم الإسلامية: التنبيه على (الجانب الجمالي) في هذا الكون، ليستمتع الإنسان به، ويغذي وجدانه، كما يستمتع بـ (الجانب النفعي) الذي يغذي جسمه، ويحقق مصلحته.

فمن الطيبات التي أحلها الله لعباده وامتن بها عليهم في كتابه: طيبات الجمال والزينة.

فقد قال تعالى في معرض الإنكار على الذين حرموا الزينة والطيبات من الرزق: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ (الأعراف: ٣١، ٣٢).

أمر الله بني آدم بأخذ الزينة، كما أمرهم بالأكل والشرب، ليتحقق في الحياة عنصر الجمال بالزينة، وعنصر البقاء بالطعام والشراب، فلم يقصر الإسلام اهتمامه على ما ينفع، بل شمل ما ينفع وما يلذ معا.

وقد لفت القرآن الأنظار إلى عنصر الجمال والزينة في الحياة في أكثر من موضع، كقوله تعالى في معرض الامتنان بفوائد الأنعام: ﴿وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾﴾ (النحل: ٥، ٦) إلى أن يقول عن دواب الركوب: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ (النحل: ٨).

فانظر كيف اهتم كتاب الله بذكر الجمال والزينة، في سياق ذكر المنافع المادية المباشرة، ليرقى بالذوق الإنساني، ويغرس في وجدان المسلم الشعور بالجمال، والإحساس بنعمة الله تعالى فيه.

وبعد ذلك بآيات قليلة في السورة نفسها، قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ (النحل: ١٤)، فالحلية شيء جميل لا شيء نافع كأكل لحم السمك الطري. ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ﴾ (الرعد: ١٧)، فالمعدن يطرق أو يصهر أو يصقل بواسطة النار ابتغاء أمرين: إما الانتفاع به في صناعة أو زراعة أو حرب ونحو ذلك وهذا هو المتاع، وإما ابتغاء التجمل والتزين كالسوار والطوق والخاتم والقرط وغيرها، وهذا هو الحلية، ومما له دلالة هنا: أن القرآن قدم الحلية على المتاع.

إن القرآن في عرضه لخصائص الأشياء، وما تقدمه من خدمة للناس، يعنى بعنصر الجمال مع عناصر النفع الاقتصادي، كقوله تعالى في معرض الامتنان بالماء وما يحيا به من الزرع والنبات والشجر: ﴿فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ

بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا ﴾ (النمل : ٦٠)، ﴿ وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ (الحج : ٥)، ﴿ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴾ (ق : ١٠)، فالبهجة في الحدائق، وفي أزواج النبات، وفي طلع النخل المنضَّد، كلها عناصر جمال ينبه عليها القرآن المجيد، ويوجه إليها المشاعر والأحاسيس، لتدرك من ورائها جمال صانعها وكماله : ﴿ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ (النمل : ٨٨)، ﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴾ (السجدة : ٧).

والكواكب يذكر القرآن منافعها من الهداية للسارين، والرجم للشياطين، ولا ينسى عنصر الجمال فيها، حين يذكر في غير سورة أن الله قد زين بها السماء : ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ ﴾ (الصافات : ٦)، ﴿ وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ﴾ (الحجر : ١٦)، ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ ﴾ (الملك : ٥).

فإذا كان الشاعر يرى الجمال في كل شيء بحاسته الشاعرية الفنية، فإن المؤمن يرى الجمال في كل شيء، بحاسته الإيمانية الروحية، التي يرى بها جمال الصانع فيما صنع ﴿ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ (النمل : ٨٨).

٣ـ علم الفقه ورعاية البيئة

وأما علم الفقه وعلاقتة برعاية البيئة وحمايتها والمحافظة عليها من كل ما يضر بها ويفسدها، فهي علاقة واضحة المعالم.

فعلم الفقه هو العلم الذي ينظم علاقة الإنسان بربه، وعلاقة الإنسان بنفسه، وعلاقة الإنسان بأسرته ومجتمعه، وعلاقة الإنسان بالكون من حوله، وفق الأحكام الشرعية الخمسة المعروفة، وهي: الوجوب والاستحباب، والحرمة، والكراهية، والإباحة.

ومن ثم قرر فقهاء الإسلام: أن الشريعة الإسلامية حاكمة على جميع أفعال المكلفين، بحيث لا يخلو فعل من الأفعال عن حكم من هذه الأحكام الشرعية. فلا غرو أن تستوعب شئون الدنيا والآخرة، وتضم العبادات والمعاملات، وتشمل العلاقة بالخالق والعلاقة بالخلق، وتضم في رحابها الاقتصاد والسياسة والاجتماع والتربية والثقافة، وكل ما يتصل بالحياة الإنسانية.

وقد سألني أحد الناس، وأنا متوجه إلى المنتدى العالمي الأول للبيئة من منظور إسلامي، وقلت له: إنني عضو في اللجنة الاستشارية العليا لهذا المنتدى، وإني أعددت بحثا في هذا الشأن، أرجو أن أوسعه حتى يكون كتابا، فقال لي في عجب ودهشة: وهل للإسلام دخل في البيئة وحمايتها؟ قلت له: نعم، له دخل كبير، وله أحكام وتعاليم شتى. وأشرت له إلى شيء من هذه التعاليم، وبعضها في غاية الوضوح، فعجب كيف جهل هذا؟ وكيف لا يُعلَّم هذا لأبنائنا وبناتنا؟

والواقع أن كل من له خبرة بالفقه الإسلامي، واطلاع على مصادره، سواء الفقه المذهبي أم الفقه العام أو المقارن، يتبين له أن للبيئة صلة عميقة وواسعة بهذا الفقه، وبكثير من أبوابه.

فأول ما يتصل بالبيئة من الفقه تجده في كتاب (الطهارة) كما يتضح ذلك في جملة أحكام ثبتت بالقرآن الكريم والسنة النبوية، وإجماع الأمة.

ونجد للبيئة ورعايتها علاقة بالصلاة وأحكامها، وعلاقة بالزكاة والصدقات والأوقاف.. وما إليها.

ونجد للبيئة ورعايتها علاقة بالحج والحرم والإحرام، وتحريم الصيد وقطع النباتات ونحوها مما يتصل بما يسمى (البيئة المحمية).

ونجد للبيئة علاقة بـ (إحياء الموات) في فقه المعاملات.

ونجد للبيئة ورعايتها علاقة بالزرع والغرس والمزارعة والمساقاة.

ونجد للبيئة ورعايتها علاقة بالبيوع وما يتصل بها، وبيع الماء ونحوه، وتملك الماء والكلأ والنار والملح وما فيها من أحكام.

ونجد للبيئة علاقة بكتاب النفقات، وخصوصا على البهائم وما لها من حقوق على ملاكها، وما الواجب إذا أضاعوها وأهملوا فيها.

ونجد للبيئة علاقة بالجهاد، وماذا يباح فيه من إتلاف وما لا يباح.

إلى آخر هذه الأبحاث المتصلة بالبيئة، وتدخل في أبواب متفرقة من أبواب الفقه، الذي ينظم الحياة الإسلامية كلها بأحكام الشرع، ويقود الدورة الحضارية للأمة المسلمة، باعتبارها أمة صاحبة رسالة ومنهج متميز.

على أن الفقه لا يتصل بالبيئة بوصفه (أحكاما) فقط، بل يتصل بالبيئة اتصالا وثيقا بوصفه (قواعد كلية) كذلك.

فمما لا يرتاب فيه فقيه: أن القواعد الفقهية الشهيرة التي ألفت فيها كتب

كثيرة، قديمة وحديثة، يدخل كثير منها في أمر البيئة، وينظمها ويحميها، ويوفر لها الرعاية المنشودة.

ومن أشهر هذه القواعد: قاعدة (لا ضرر ولا ضرار) وهي مأخوذة من نص حديث نبوي، صححه العلماء بمجموع طرقه، ولكن الحديث نفسه مقتبس من نصوص آيات قرآنية عدة، تنفي الضرر والضرار، كقوله تعالى في نفي الضرر: ﴿وَلا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ (النساء: ٢٩) وقوله: ﴿وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ (البقرة: ١٩٥) وفي نفي الضرار قال تعالى: ﴿لا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلا مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ﴾ (البقرة: ٢٣٣) ﴿وَلا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلا شَهِيدٌ﴾ (البقرة: ٢٨٢) ﴿وَلا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا﴾ (البقرة: ٢٣١).

وهذه القاعدة الكلية يتفرع عنها قواعد جزئية شتى قررها الفقهاء. مثل قولهم:

الضرر يزال بقدر الإمكان (ولا سيما الضرر الفاحش).

الضرر لا يزال بضرر مثله (بله بما هو أكبر منه).

الضرر يدفع بقدر الإمكان.

يتحمل الضرر الأدنى لدفع الضرر الأعلى.

يتحمل الضرر الخاص لدفع الضرر العام.

الضرر الأشد يزال بالضرر الأخف.

إذا تعارض مفسدتان روعي أعظمهما ضررا بارتكاب أخفهما.

يختار أهون الشرين.

درء المفاسد أولى من جلب المنافع.

وهذه من القواعد الشرعية التي اعتمدتها (مجلة الأحكام العدلية) وجعلتها في مقدمة موادها التي قننت بها جوانب المعاملات في الفقه الحنفي، ورتبت عليها أحكاما شتى.

ومثل ذلك قاعدة (الضرورات تبيح المحظورات) وهي قاعدة مستنبطة من نصوص القرآن الكريم في خمس آيات، بعضها في القرآن المكي، مثل قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلاَّ مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ (الأنعام: ١١٩).

وقوله في السورة نفسها: ﴿قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (الأنعام: ١٤٥).

وجاء هذا التحريم واستثناء حالة الضرورة في سورة النحل المكية أيضا.

وجاء التحريم والاستثناء في سورة البقرة في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (البقرة: ١٧٣).

وكذلك جاء في سورة المائدة وهي من أواخر ما نزل من القرآن.

وقد تفرع عن هذه القاعدة عدة قواعد أخرى منبثقة منها.

مثل قاعدة: (الضرورات تقدر بقدرها). وبعضهم يصوغها بقوله: (ما أبيح للضرورة يقدر بقدرها).

وكذلك قاعدة: (الاضطرار لا يبطل حق الغير).

وقاعدة: (الحاجة تنزل منزلة الضرورة، خاصة كانت أو عامة).

وقاعدة: (ما جاز لعذر بطل بزواله).

وقاعدة: (إذا زال المانع عاد الممنوع).

وهذه كلها أيضا من قواعد المجلة، وهي منصوص عليها في كتب الأشباه والنظائر للسيوطي الشافعي وابن نجيم الحنفي.

وهذه القواعد وأمثالها، وهي كثيرة معروفة، لها وزنها وأهميتها حينما نريد أن نقنن الأحكام المتعلقة برعاية البيئة والحفاظ عليها، فسنرى أننا في أشد الحاجة إليها عند إصدار تقنين حديث للعناية بالبيئة من منظور إسلامي.

ومن المعلوم: أن العقوبات في الشريعة نوعان: عقوبات محددة منصوص عليها في جرائم معينة، وهي المعروفة في الفقه باسم الحدود والقصاص.

وعقوبات غير منصوص عليها، وهي العقوبات (التعزيرية). وهي المفوضة إلى رأي الإمام أو القاضي، وهذه العقوبة في كل معصية لا حد فيها ولا كفارة. وهي تشمل معاصي كثيرة، وخصوصا ما يتعلق بحقوق العباد ومصالحهم، فيدخل فيها الحفاظ على البيئة دخولا أوليا.

ويمكننا أن نقنن العقوبات التعزيرية في عصرنا هذا، ولا سيما في حق من يسيئون إلى البيئة، ويتعدون الحدود في التعامل معها، من أصحاب المصانع والشركات الكبيرة، التي لا تبالي - في سبيل مكاسبها - أن تضر المجتمع كله.

والشريعة الإسلامية - بجميع مذاهبها وإجماع فقهائها - توجب حماية المجموع من تجاوزات الأفراد، وإن كان في ذلك حجر على حرياتهم الفردية، فإن حريتهم ليست مطلقة، بل هي مقيدة بأن لا تضر الآخرين.

وأصل هذا: الحديث الصحيح الذي رواه البخاري وغيره عن النعمان بن بشير أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: « مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها،

فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم، فقالوا: لو أنَّا خرقنا في نصيبنا خَرْقًا ولم نؤْذِ مَنْ فوقنا، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا، وإن أخذوا على أيديهم نَجَوا ونجوا جميعا»[1].

فلم يعذر الذين في أسفل السفينة بحسن نيتهم، وأنهم قالوا: «لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقا، ولم نؤذ مَنْ فوقنا!» لأن عملهم هذا يؤدي إلى غرق السفينة وأهلها جميعا، فوجب الأخذ على أيديهم حفاظا على مصلحة المجموع، ودفعا للضرر عنهم.

---

(١) رواه البخاري في كتاب الشركة برقم (٢٤٩٣).

٤ ـ أصول الفقه ورعاية البيئة

إن المحافظة على البيئة لا يؤيدها ويؤكدها الفقه وحده، بل تؤيدها وتؤكدها كذلك (أصول الفقه). وخصوصا (مقاصد الشريعة) التي بين فيها الأصوليون: أن الشريعة إنما جاءت لإقامة مصالح العباد في المعاش والمعاد، أو في العاجل والآجل. وأن مقصود الشريعة من الخلق هي حفظ دينهم وأنفسهم ونسلهم وعقولهم وأموالهم.

وهي التي يسمونها (الضروريات الخمس) ويعنون بها: المصالح الأساسية التي لا تقوم الحياة الإنسانية إلا بها. ودونها في الرتبة (الحاجيات) وهي المصالح التي يمكن أن يعيش الإنسان بدونها، ولكن تكون حياته في مشقة وحرج وضيق وعسر. ودونها في الرتبة (التحسينات) وهي ما نعبر عنه بلسان عصرنا بـ(الكماليات) التي بها تجمل الحياة وتحلو.

وأول من وضع اللبنات الأولى لهذا البناء الشامخ، هو حجة الإسلام أبو حامد الغزالي رحمه الله، وذلك في كتابه (المستصفى من علم الأصول) في حديثه عن المصلحة المرسلة.

وقد جاء بعده الإمام عز الدين بن عبد السلام (ت ٦٦٠هـ) فصنف كتابه القيم الذي سماه (قواعد الأحكام في مصالح الأنام) ليقرر ويؤكد أن الشريعة إنما جاءت لتحقيق مصالح الخلق في الدنيا والآخرة. ومما قال رحمه الله في مطالع كتابه؛ وبيان مقاصده:

«والشريعة كلها مصالح: إما تدرأ مفاسد أو تجلب مصالح! فإذا سمعت الله يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فتأمل وصيته بعد ندائه، فلا تجد إلا خيرا

يحثك عليه، أو شرا يزجرك عنه، أو جمعا بين الحث والزجر، وقد أبان في كتابه ما في بعض الأحكام من المفاسد حثا على اجتناب المفاسد، وما في بعض الأحكام من المصالح حثا على إتيان المصالح[1].

ثم قال في موضع آخر:

لو تتبعنا مقاصد ما في الكتاب والسنة، لعملنا أن الله تعالى أمر بكل خير، دقه وجله، وزجر عن كل شر، دقه وجله. فإن الخير يعبر به عن جلب المصالح، ودرء المفاسد، والشر يعبر به عن جلب المفاسد، ودرء المصالح. وقد قال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾﴾ (الزلزلة: ٧، ٨) وهذا ظاهر في الخير الخالص، والشر المحض. وإنما الإشكال إذا لم يعرف خير الخيرين، من شر الشرين. أو يعرف ترجيح المصلحة على المفسدة، أو ترجيح المفسدة على المصلحة، أو جهلنا المصلحة والمفسدة . . . إلى أن قال:

«وأجمع آية في القرآن للحث على المصالح كلها، والزجر عن المفاسد بأسرها، قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (النحل: ٩٠) فإن (الألف واللام) في العدل والإحسان للعموم والاستغراق، فلا يبقى من دق العدل وجله شيء إلا اندرج في قوله ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾ ولا يبقى من دق الإحسان وجله شيء إلا اندرج في أمره بالإحسان. والعدل: هو التسوية والإنصاف، والإحسان: إما جلب مصلحة أو دفع مفسدة . . وكذلك (الألف واللام) في ﴿الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ﴾ عامة مستغرقة لأنواع الفواحش، ولما ينكر من الأقوال والأعمال. وأفرد البغي - وهو ظلم الناس - مع اندراجه في الفحشاء والمنكر، للاهتمام به . . . كما أفرد ﴿وَإِيتَاءِ

(١) قواعد الأحكام (١/ ٩) طبعة دار الكتب العلمية - بيروت.

ذِي الْقُرْبَىٰ﴾ بالذكر، مع اندراجه في العدل والإحسان[1]. أي للاهتمام به أيضا.

ثم جاء الأصوليون من بعد ذلك، وأكدوا ما قرره الغزالي من الضروريات الخمس، ومقدمهم في ذلك العلامة المالكي الإمام أبو إسحاق الشاطبي، الذي أفرد قسما كبيرا من كتابه الشهير (الموافقات) أفاض فيه عن مقاصد الشريعة يقول الإمام الشاطبي: «وقد اتفقت الأمة، بل سائر الملل، على أن الشريعة. وضعت للمحافظة على الضروريات الخمس، وهي الدين والنفس والنسل والمال والعقل»[2].

وفي موضع آخر قال الشاطبي:

«فأما الضرورية فمعناها أنها لا بد منها في قيام مصالح الدين والدنيا، بحيث إذا فقدت لم تجر مصالح الدنيا على استقامة، بل على فساد وتهارج وفوت حياة، وفي الأخرى فوت النجاة والنعيم، والرجوع بالخسران المبين».

«والحفظ لها يكون بأمرين: أحدهما: ما يقيم أركانها ويثبت قواعدها، وذلك عبارة عن مراعاتها من جانب الوجود؛ والثاني: من يدرأ عنها الاختلال الواقع أو المتوقع فيها، وذلك عبارة عن مراعاتها من جانب العدم»[3].

وبهذا أعطانا هذا التوجيه الأصولي طريقين لإصلاح البيئة ورعايتها:

١ ـ طريق إيجابي أو علاجي أو (وجودي) بتعبير الشاطبي.

٢ ـ طريق سلبي أو وقائي بتعبير عصرنا.

وهذا ما جعلنا نختار عنوان (الرعاية) ونؤثره على عنوان (الحماية) للبيئة ليشمل الجانبين: الوجودي والعدمي، كما عبر الشاطبي.

(١) المصدر السابق (٢/ ١٦١).

(٢) الموافقات (١/ ٣٨).

(٣) المصدر السابق (٢/ ٨).

ولا ريب أن حماية البيئة والمحافظة عليها وإصلاحها ورعايتها، تدخل في (الضروريات الخمس) كلها، إذا تأملنا الأمر بعمق وتدبر.

حفظ البيئة من (المحافظة على الدين):

فهي تدخل ـ أول ما تدخل ـ في المحافظة على (الدين). وهي الضرورية الأولى، وذلك لأن الجناية على البيئة ينافي جوهر التدين الحقيقي، ويناقض مهمة الإنسان في الأرض، ويخالف ما أمر الله تعالى به الإنسان بالنسبة للمخلوقات من حوله.

إن الجور على البيئة والقسوة عليها، والإساءة إليها ينافي (العدل والإحسان) اللذين أمر الله بهما في كتابه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾ (النحل: ٩٠).

وهي تنافي مهمة (الاستخلاف) التي كلف بها الإنسان في الأرض، فهذه الأرض ليست أرضه، ولا ملكه، إنما هي أرض الله تعالى وملكه، جعله خليفة فيها، يحكم فيها بأمره، ويعمل فيها وفق سننه في خلقه، وأحكامه في شرعه. كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ﴾ (الزمر: ١٠).

وقال تعالى على لسان نبيه صالح: ﴿هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ﴾ (هود: ٦٤).

وقال سبحانه على لسان موسى: ﴿إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ (الأعراف: ١٢٨).

فلا يجوز للإنسان أن ينسى أنه مستخلف في ملك الله، وأرض الله، ويتصرف كأنه هو السيد المالك الذي لا يسأل عما يفعل.

وهي أيضا تنافي ما أمر الله به من عمارة الأرض، وإصلاحها، وما نهى عنه من إفسادها وتخريبها، كما قال تعالى: ﴿وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا﴾ (الأعراف: ٥٦).

وقد بين الله عز وجل أنه لا ينال مثوبته ولا رضاه في الدار الآخرة أهل العلو (أي الطغيان) والفساد في الأرض: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (القصص: ٨٣).

حفظ البيئة من المحافظة على النفس:

ويدخل حفظ البيئة وحمايتها وإصلاحها ضمن الضرورة الثانية، وهي (المحافظة على النفس).

والمقصود بالمحافظة على النفس: المحافظة على الحياة البشرية، وعلى سلامة البشر وصحتهم.

فلا شك أنه بات معلوما اليوم أن فساد البيئة وتلوثها، واستنزاف مواردها، والإخلال بتوازنها، أصبح يهدد حياة الإنسان اليوم، وكلما استمر تَعَدّي الإنسان على البيئة، ازداد الخطر على الإنسان وحياته يوما بعد يوم.

والإسلام حريص على حياة الإنسان، ويعتبر قتل النفس التي حرم الله بغير حق أكبر الجرائم بعد الشرك بالله تعالى.

بل قرر القرآن قيمة النفس الإنسانية، وقدسية الحياة في الأديان قبل الإسلام، وقرر في ذلك: ﴿أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ (المائدة: ٣٢).

ومعنى الآية الكريمة: أن من استهان بنفس واحدة فكأنما استهان بحياة البشر كلهم، إذ لا فرق بين نفس وأخرى.

وكما لا يجيز الإسلام قتل الغير، نجده كذلك لا يبيح قتل النفس

(الانتحار) بحال من الأحوال، ويتوعد من فعل ذلك بالنار والعذاب الشديد يوم القيامة. وقد قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ (النساء: ٢٩).

وهناك نوع من القتل أو الانتحار البطيء، يؤذي فيه الإنسان نفسه بسوء تصرفه وهو لا يشعر، كالذي يتناول المسكرات أو المخدرات ونحوها من السموم، وقريب منها التدخين، الذي أجمع الأطباء على ضرره بالإنسان، وإصابته بكثير من الأمراض القاتلة لمتعاطيه، ولكنه سم بطيء. ومثل ذلك كثير من تلويث البيئة وإفسادها الذي نراه في عصرنا.

وإذا كان الإسلام يصون حياة الحيوان الأعجم، ويحرم قتله بغير حق، إما مباشرة أو بحبسه أو تجويعه أو غير ذلك، فلا غرو أن يحرم ويجرم بشدة الاعتداء على حياة الإنسان.

حفظ البيئة من المحافظة على النسل:

ويدخل حفظ البيئة في ضرورية (المحافظة على النسل) والنسل هم ذرية الإنسان التي يستمر بها، بقاء النوع الإنساني في هذه الأرض، كما أراد الله سبحانه. فالنسل يعني: جيل المستقبل.

والجناية على البيئة تهدد الأجيال المستقبلة، بما تحمله في طياتها من أسباب الهلاك والدمار، التي قد ينجو منها ـ إلى حد ما ـ أجيال اليوم، ولكن الخطر يتفاقم ويتكاثر ويتركز بالنسبة للأجيال القادمة، فنحن نستنزف الموارد المذخورة التي هي من حقهم، لنسرف في استهلاكها، ونحن نورثهم آفات لا يملكون لها دفعا مما تلوث به البيئة من حولهم، ونحن نخل بالتوازن الكوني، الذي يضر إخلاله بهم.

وإذا كان الآباء والأمهات مسئولين ـ وجوبا ـ عن تربية أولادهم، وحسن تنشئتهم ورعايتهم الصحية والأدبية، فهم مسئولون وجوبا أيضا عن وقايتهم

من أخطار البيئة، قياما بواجب الرعاية التي نوه بها الحديث الشريف «كلكم راع، وكلكم مسئول عن رعيته . . . والرجل راع في أهل بيته، ومسئول عن رعيته»[1].

ومن المفاهيم الإسلامية المهمة، التي سنعرض لها فيما بعد: تكافل الأجيال الإسلامية بعضها مع بعض، بحيث لا يجوز أن يستأثر جيل بالخير والنعمة على حساب جيل أو أجيال قادمة، كما لا يجوز أن يطغى على حقه، أو يستنفذ مصادر رزقه، أو يجور على موارد معيشته، فإن هذا من الظلم الذي حرمه الله على عباده. والله لا يحب الظالمين. ولا يهدي القوم الظالمين. وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: «إنك إن تذر ورثتك أغنياء، خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس»[2].

حفظ البيئة من المحافظة على العقل:

ويدخل حفظ البيئة ضمن الضرورية الرابعة، وهي (المحافظة على العقل) الذي هو مناط الخطاب والتكليف في الإسلام. فمن فقد العقل فلا تكليف عليه، والقلم مرفوع عنه.

وحفظ البيئة - بمعناه العام - يقتضي المحافظة على الإنسان، بكيانه كله، الجسدي والعقلي والنفسي، ولا معنى للمحافظة على الإنسان إذا لم تحافظ على عقله، الذي ميزه الله به عن الحيوان.

وبعض ما يقوم به الإنسان المعاصر اليوم من إفساد للبيئة وتعريضها وتعريض نفسه معها للخطر، يعد ضربا من الجنون. وفي مثله يخاطب القرآن المكلفين بقوله: (أفلا تعقلون). من أجل ذلك حرم الإسلام الخمر، وأوجب فيها عقوبة زاجرة؛ لأنها تزيل العقل، وحرم المخدرات؛ لأنها شقيقة الخمر، أو هي منها، إذ الخمر ما خامر العقل، كما قال سيدنا عمر.

---

(١) متفق عليه عن ابن عمر. اللؤلؤ والمرجان (١١٩٩).

(٢) متفق عليه عن سعد بن أبي وقاص. اللؤلؤ والمرجان (١٠٥٣).

فمن حفظ البيئة أن نحافظ على التفكير السوي في الإنسان الذي يوازن بين اليوم والغد، وبين المصالح والمفاسد، وبين المتعة والواجب، وبين القوة والحق. ولا يتعامل مع البيئة تعامل المخمور السكران أو المخدَّر التائه، الذي ألغى عقله باختياره، فلم يعد يعرف ما ينفعه مما يضره.

حفظ البيئة من المحافظة على المال:

ويدخل حفظ البيئة أيضا ضمن المحافظة على الضرورية الخامسة، وهي (المحافظة على المال). فمن المعلوم: أن الله قد جعل المال قواما لمعيشة الإنسان في هذه الدنيا، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا﴾ (النساء: ٥).

وليس المال هو النقود أو الذهب والفضة، كما يتوهم بعض الناس، بل المال أعم من ذلك وأشمل، فكل ما يتموله الإنسان ويحرص على كسبه واقتنائه مال، فالأرض مال، والشجر مال، والزرع مال، والأنعام مال، والماء مال، والمرعى مال، والمسكن مال، والثياب مال، والأثاث مال، والمعادن مال، والبترول مال.

وحفظ البيئة يوجب علينا أن نحافظ على المال بكل أجناسه وأنواعه: نحافظ على موارده فلا نتلفها بالسفه، ونستنزفها بلا ضرورة ولا حاجة معتبرة، ولا نحسن تنميتها ولا صيانتها، فتتعرض للهلاك والضياع، ولا نسرف في استخدامها، فنضيعها قبل الأوان.

إن إحدى المشكلات البيئية الكبرى في عالمنا اليوم إنما هي استنزاف الموارد، وهو ما يهدد البشرية في مستقبلها القريب.

ولهذا كان من المقاصد الشرعية، والمصالح الضرورية: المحافظة على المال، بحيث نحافظ على موارده، وننمي إنتاجه، ونرشد استهلاكه، ونحسن توزيعه وإنفاقه.

إفساد البيئة إضاعة لمقاصد الشريعة:

وإذا كانت رعاية البيئة والحفاظ عليها وإصلاحها يحقق مقاصد الشريعة، وضرورياتها الخمس، فإن إفساد البيئة وتلويثها واستنزاف مواردها، والإخلال بتوازنها ـ وهو ما نعبر عنه إسلاميا بعبارة (الإفساد في الأرض) ـ يضيع هذه المقاصد، ويجني على هذه الضروريات كلها.

وحسبي أن أذكر هنا عبارة الإمام المفسر أبي حيان في تفسيره (البحر المحيط) عند قوله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ (الأعراف: ٥٦)، قال رحمه الله:

«هذا نهي عن إيقاع الفساد في الأرض، وإدخال ماهيته في الوجود، فيتعلق بجميع أنواعه من إيقاع الفساد في الأرض: إفساد النفوس والأنساب والأموال والعقول والأديان (وهي الضروريات الخمس).

ومعنى بعد إصلاحها بعد أن أصلح الله خلقها على الوجه الملائم لمنافع الخلق، ومصالح المكلفين.

وما روي عن المفسرين من تعيين نوع الإفساد والإصلاح ينبغي أن يحمل ذلك على التمثيل إذ ادّعاء تخصيص شيء من ذلك لا دليل عليه»[1]. انتهى.

---

(١) تفسير البحر المحيط (٤/ ٣١١، ٣١٢).

٥ ـ علوم القرآن والسنة ورعاية البيئة

وتبقى بعد ذلك علوم القرآن وتفسيره، وعلوم السنة النبوية وشروحها، ومدى علاقتها برعاية البيئة. ونستطيع أن نقول بكل وضوح: إن كل العلوم الشرعية التي ذكرناها: من أصول الدين وأصول السلوك، ومن الفقه وأصول الفقه، إنما عمدتها هو القرآن والسنة. ولا يقبل ما تقرره من أحكام وقواعد واستنباطات، ما لم تكن مسنودة من كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم.

ومن يقرأ كتابنا هذا سيجد ـ بدون معاناة ـ عددا كبيرا من الآيات والأحاديث، وأنه يستند أول ما يستند في بيانه وتقريره إلى نصوص القرآن والحديث الصحيح، فهما وحدهما المصدران المعصومان الملزمان لكل مسلم ومسلمة بالطاعة والامتثال، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ (النساء: ٥٩).

وقد أجمع المسلمون أن الرد إلى الله يعني: الرد إلى كتابه، وأن الرد إلى الرسول يعني: الرد إلى سنته.

وقال تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ (آل عمران: ٣٢).

وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ

لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُّبِينًا ﴾ (الأحزاب : ٣٦) .

فهذا واجب المسلمين أبدا إزاء القرآن والسنة : سمعنا وأطعنا .

ومن أبرز الأدلة على عناية القرآن بالبيئة أسماء السور ودلالاتها .

من دلائل العناية بالبيئة:

ومن دلائل القرآن الكريم على الاهتمام بالبيئة : أن نجد عددا من سوره يسمى بأسماء للحيوانات والحشرات وبعض النباتات والمعادن ، وبعض الظواهر الطبيعية .

فنجد من أسماء السور : سورة البقرة ، وسورة الأنعام ، وسورة الفيل ، وسورة العاديات وهي الخيل ، وكلها من الحيوانات .

ونجد سورة النحل ، وسورة النمل ، وسورة العنكبوت ، وكلها من الحشرات .

وهذا ما جعل المشركين أو اليهود يعجبون من ذلك ويقولون : أي قدر للذباب وللعنكبوت ، حتى يضرب الله بهما الأمثال؟ !

ورد القرآن عليهم بقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ﴾ (البقرة : ٢٦) وأراد بما فوقها : أي في الضعف والهوان . ولهذا فسره بعضهم بقوله : أي ما دونها .

ونجد في القرآن سورة التين ، وهو من النباتات ، وسورة الحديد ، وهو من المعادن .

ونجد سورة الرعد ، وهو من الظواهر الطبيعية ، وسورة الذاريات ، وهي الرياح التي تذرو الأشياء . وسورة النجم ، وقد أقسم الله به إذا هوى ، وسورة

الفجر، وسورة الشمس، وسورة الليل، وسورة الضحى، وسورة العصر، وكلها ظواهر طبيعية.

ونجد سورة الطور، وهو يعني الجبل مطلقا أو جبلا معينا، وسورة البلد، والمراد به مكة البلد الحرام، وسورة الأحقاف، وهي في الجزيرة العربية، وسورة الحجر، وسورة الكهف، وكلها أماكن.

فهذه التسميات للسور القرآنية لها دلالاتها وإيحاؤها في نفس الإنسان المسلم، وربطه بالبيئة من حوله، بحيث لا يكون في عزلة أو غفلة عنها.

(٢)

الركائز الإسلامية لرعاية البيئة

١ ـ التشجير والتخضير.

٢ ـ العمارة والتثمير.

٣ ـ النظافة والتطهير.

٤ ـ المحافظة على الموارد.

٥ ـ الحفاظ على الإنسان.

٦ ـ الإحسان بالبيئة.

٧ ـ المحافظة على البيئة من الإتلاف.

٨ ـ حفظ التوازن البيئي.

الركائز الإسلامية لرعاية البيئة

١ـ التشجير والتخضير

من ركائز المحافظة على البيئة في الإسلام: العناية بالتشجير وتخضير الأرض بالغرس والزرع.

نقرأ هذا في القرآن الكريم في معرض امتنان الله على خلقه بما سخر لهم من أسباب الزرع والغرس والشجر والخضرة. فيقول تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (الأنعام: ٩٩).

وفي نفس السورة يقول تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ (الأنعام: ١٤١).

وفي سورة أخرى يقول تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (الرعد: ٤).

وفي سورة أخرى يقول سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ (١٠) يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١١)﴾ (النحل: ١٠، ١١).

وقد تكرر هذا المعنى كثيرا في القرآن الكريم في سور شتى، ونبه فيها على عنصرين مهمين من فوائد الزرع والشجر والخضرة:

العنصر الأول: عنصر المنفعة. كما في قوله ﴿كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ﴾ وقوله تعالى ﴿فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ (٢٤) أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعِنَبًا وَقَضْبًا (٢٨) وَزَيْتُونًا وَنَخْلاً (٢٩) وَحَدَائِقَ غُلْبًا (٣٠) وَفَاكِهَةً وَأَبًّا (٣١) مَتَاعًا لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ (٣٢)﴾ (عبس: ٢٤ ـ ٣٢).

فانظر كيف جعل في هذه النباتات عنصر المتاع أي المنفعة للناس ولأنعامهم التي تخدمهم أيضا.

وقال تعالى: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلا يُبْصِرُونَ﴾ (السجدة: ٢٧).

فأرشد إلى منفعة الأكل من الزرع لهم ولأنعامهم معهم، بل قبلهم.

والعنصر الثاني: هو عنصر (الجمال). وهذا مما قد يتصور بعض الناس أن الإسلام لا يهتم به، ولا يجعل له اعتبارا، وهو وهم لا أساس له في القرآن ولا في السنة، فإن الله تعالى جميل يحب الجمال، كما علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وقد وضح هذا في آيات كثيرة من كتاب الله عز وجل، كما في قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ

ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ (النمل : ٦٠) .

فانظر إلى هذا التعبير المبين (حدائق ذات بهجة) أي ذات حسن وجمال، تبهج النفس والخاطر، وتسر العين والقلب .

وقوله تعالى : ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ (الحج : ٥) والبهيج هو الحسن الجميل .

وقوله ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ (ق : ٧) .

وقد ذكرنا قوله تعالى بعد الامتنان بذكر الزرع والنخيل والأعناب والزيتون والرمان : ﴿انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ﴾ (الأنعام: ٩٩) . فأمرنا أن ننظر إلى الثمر اليانع ، لنستمتع بمنظره الجميل .

وقال الإمام القرطبي في تفسيره : الزراعة من فروض الكفاية ، فيجب على الإمام (ولي الأمر) أن يجبر الناس عليها ، وما كان في معناها من غرس الأشجار[1] .

السنة تأمر بالغرس والزرع:

والأحاديث النبوية تؤكد هذا الأمر ، وتزيد على ما في القرآن بما ورد فيها من الأوامر النبوية ، والتوجيهات المحمدية بالغرس والزرع في جملة من الأحاديث الصحاح .

منها : ما رواه الشيخان عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه

(١) تفسير القرطبي (٣/ ٣٠٦) وانظر : أحكام القرآن للجصاص (٤/ ٣٧٣) .

وسلم: «ما من مسلم يغرس غرسا، أو يزرع زرعا، فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة، إلا كان له به صدقة»[1].

وروى مسلم عن جابر مرفوعا: «ما من مسلم يغرس غرسا، إلا كان ما أكل منه له صدقة، وما سرق منه له صدقة، وما أكل السبع منه فهو له صدقة، وما أكلت الطير فهو له صدقة، ولا يرزأه أحد (أي لا ينقصه ويأخذ منه) إلا كان له صدقة».

وفي رواية له: «إلى يوم القيامة»[2].

ومما يلفت النظر هنا: أن تكتب الصدقة والمثوبة للغارس والزارع، على ما أخذ من زرعه وثمره، وإن لم تكن له فيه نية، لمجرد اتجاهه إلى الغرس والزرع، فكل ما يستفاد منه لكائن حي له فيه ثواب.

وعن رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم بأذني هاتين يقول: «من نصب شجرة، فصبر على حفظها، والقيام عليها حتى تثمر، فإن له في كل شيء يصاب من ثمرها صدقة عند الله عز وجل»[3].

وروي أن رجلا مر بأبي الدرداء رضي الله عنه، وهو يغرس جوزة (شجرة جوز) فقال: أتغرس هذه وأنت شيخ كبير، وهي لا تثمر إلا في كذا وكذا عاما؟ فقال: أبو الدرداء: ما عليَّ أن يكون لي أجرها، ويأكل منها غيري؟![4].

وروى ابن جرير عن عمارة بن خزيمة بن ثابت قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول لأبي: ما يمنعك أن تغرس أرضك؟ فقال له أبي: أنا شيخ كبير

(١) متفق عليه، كما في اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان، حديث رقم (١٠٠١).

(٢) رواه مسلم في كتاب المساقاة برقم (١٥٥٢).

(٣) رواه أحمد، وفيه قصة (٤/ ٦١) و (٥/ ٣٧٤).

(٤) انظر: كتابنا (الحلال والحرام) الاكتساب عن طريق الزارعة ص ١٢٣ وما بعدها.

أموت غدا! فقال عمر: «أعزم عليك لتغرسنها!»، فقد رأيت عمر بن الخطاب يغرسها بيده مع أبي[1]. فعمر الخليفة الراعي المسئول يرى ألا تترك أرض صالحة للغرس والزرع دون أن يستفاد منها، وينبه أصحابه على ذلك، ويساعد بنفسه على ذلك. وهذه قمة الشعور بالمسئولية.

وروى البخاري في (الأدب المفرد) عن نافع بن عاصم أنه سمع عبد الله بن عمرو يقول لابن أخ له خرج من (الوهط): أيعمل عمالك؟ قال: لا أدري! أما لو كنت ثقفيا لعلمت ما يعمل عمالك. ثم التفت إلينا فقال: إن الرجل إذا عمل مع عماله في ماله كان عاملا من عمال الله عز وجل[2].

والوهط في اللغة هو البستان، ويطلق على أرض عظيمة كانت لعمرو بن العاص بالطائف، ويبدو أنه خلفها لأولاده، وقد روى ابن عساكر في تاريخه (١٣/ ٢٦٤) بسند صحيح عن عمرو بن دينار، قال: دخل عمرو بن العاص في حائط له بالطائف يقال له: (الوهط) فيه ألف ألف خشبة (مليون) اشترى كل خشبة بدرهم! يعني ليقيم بها الأعناب.

فهذه عناية الصحابة بالغرس والتشجير، بفضل هذه التوجيهات القرآنية والنبوية التي حفزتهم إلى أن يخضروا الأرض، ويجعلوا منها حدائق ذات بهجة، تنبت من كل زوج بهيج.

وروى الإمام أحمد في مسنده والبخاري في (الأدب المفرد) عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال «إن قامت الساعة، وفي يد أحدكم فسيلة، فإن استطاع ألا تقوم حتى يغرسها، فليغرسها»[3].

وليس هناك حث وتحريض على الغرس والتشجير أقوى من هذا الحديث،

---

(١) انظر: الأحاديث الصحيحة للألباني ج ١ ص ١٧ وقد نسب الأثر لـ (الجامع الكبير) للسيوطي.

(٢) رواه البخاري في (الأدب المفرد) برقم (٤٤٨) وقال الألباني: وسنده حسن إن شاء الله تعالى.

(٣) رواه أحمد (٣/ ١٨٣، ١٨٤، ١٩١) والبخاري في (الأدب المفرد) رقم (٤٧٩) وذكره الألباني وصححه برقم (٩).

لأنه يدل على الطبيعة المنتجة والخبرة للإنسان المسلم، فهو بفطرته عامل معطاء للحياة، كالنبع الفياض، لا ينضب ولا ينقطع، حتى إنه ليظل يعطي ويعمل، حتى تلفظ الحياة آخر أنفاسها، فلو أن الساعة توشك أن تقوم، لظل يغرس ويزرع، وهو لن يأكل من ثمر غرسه، ولا أحد غيره سيأكل منه، لأن الساعة تدق طبولها، أو ينفخ في صورها، فالعمل هنا يؤدى لذات العمل، لأنه ضرب من العبادة، والقيام بحق الخلافة لله في الأرض إلى آخر رمق.

ولقد بين لنا العلم الحديث: أن التشجير له فوائد أخرى - غير ما عرفه الناس قديما من الثمر والظل وتخفيف الحرارة وغيرها - مثل المساعدة في حفظ التوازن البيئي، وامتصاص الضوضاء، ومقاومة الآثار الضارة للتصنيع على البيئة، أو التخفيف منها على الأقل.

٢ـ العمارة والتثمير

ومن المقومات الأساسية للمحافظة على البيئة في نظر الإسلام: ما حث عليه التوجيه الإسلامي، وقام عليه التشريع الإسلامي: من عمارة الأرض، وإحياء مواتها، وتثمير مواردها وثرواتها.

حتى إن الإمام الراغب الأصفهاني[1] اعتبر (عمارة الأرض) أحد مقاصد ثلاثة أساسية خلق لها الإنسان، مستمدا ذلك من نصوص القرآن الكريم ذاته. كما ذكرنا ذلك من قبل. وهذه المقاصد هي:

أولا: عبادة الله تعالى. كما قال عز وجل: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات: ٥٦).

ثانيا: خلافة الله تعالى في خلقه، كما قال سبحانه ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (البقرة: ٣٠).

ثالثا: عمارة الأرض، كما في قوله تعالى على لسان نبيه صالح: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ (هود: ٦١) ومعنى: (استعمركم) أي طلب إليكم أن تعمروها.

ومن هنا كانت عمارة الأرض وإصلاحها، وحظر الإفساد فيها، مما اتفقت عليه شرائع الأنبياء، ورسالات السماء.

ومن هنا جاء التنويه بهذا المقصد الكبير على لسان نبي الله صالح عليه

---

(١) في كتابه (الذريعة إلى مكارم الشريعة).

السلام، وهو من أنبياء العرب، وقد أرسله الله إلى ثمود، الذي بوأهم الله في الأرض وهيأ لهم أسباب التقدم والرخاء: قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ (هود: ٦١).

وفي مقام آخر ذكرهم بنعم الله تعالى وآلائه عليهم، وحذرهم من الإفساد في الأرض، التي هيأها الله لهم، فيقابلون النعمة بالكفران، قال تعالى على لسان صالح: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ (الأعراف: ٧٤).

وهذا بعد أن دعاهم إلى التوحيد الذي هو الأساس الأول لدعوات الرسل جميعا. ولهذا نجدهم جميعا يقولون: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ (هود: ٦١).

يقول العلامة أبو حيان في تفسير قوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾:

«ذكَّر صالح قومه بما ذكَّر به هود قومه، فذكر أولا نعما خاصة، وهي جعلهم خلفاء بعد الأمة التي سبقتهم، وذكر هو لقومه ما اختصوا به من زيادة البسطة في الخلق، وذكر صالح لقومه ما اختصوا به من اتخاذ القصور من السهول، ونحت الجبال بيوتا، ثم ذكر أنعما عامة بقولهما: فاذكروا آلاء الله، ومعنى بوأكم في الأرض أنزلكم بها وأسكنكم إياها والمباءة المنزل في الأرض وهو من باء أي رجع»[1].

وفي مقام آخر حذرهم صالح من القادة والزعماء الذين يقودونهم إلى الشر

(١) انظر: تفسير البحر المحيط لأبي حيان (٤/ ٣٢٩).

والإفساد في الأرض، وذلك ما ذكره القرآن الكريم في قوله لقومه: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾﴾ (الشعراء: ١٥٠ ـ ١٥٢).

ونجد هذا التحذير من الإفساد في رسالة نبي الله شعيب، الذي بعثه الله إلى أهل مدين، فبعد أن دعاهم إلى عبادة الله وحده، وترك عبادة ما سواه، دعاهم إلى إقامة العدل في معاملاتهم، وترك الظلم والإفساد في الأرض، حتى لا ينزل بهم عذاب الله تعالى. اقرأ هذه الآيات الكريمة من سورة هود:

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ وَلا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾﴾ (هود: ٨٤، ٨٥).

وفي موقف آخر يقول: ﴿قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا﴾ ثم يقول: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ (الأعراف: ٨٦).

فحذرهم من عواقب المفسدين من قبلهم، وكيف نزل بهم عقاب القدر الأعلى، الذي يمهل ولا يهمل، ويملي للمفسدين ثم يأخذهم أخذا أليما شديدا.

وقد ذكر ذلك بتفصيل في سورة هود: ﴿وَيَا قَوْمِ لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ (هود: ٨٩) ذلك أن قوم لوط أقرب إليهم في المكان، وأقرب إليهم في الزمان.

وفي قصة موسى نقرأ قول الله تعالى: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ (البقرة: ٦٠).

قال أبو حيان في تفسيره: لما أمروا بالأكل والشرب من رزق الله، ولم يقيد ذلك عليهم بزمان ولا مكان ولا مقدار من مأكول أو مشروب، كان ذلك إنعاما وإحسانا جزيلا إليهم، واستدعى ذلك التبسط في المآكل والمشارب، وأنه ينشأ عن ذلك القوة الغضبية والقوة الاستعلائية - نهاهم عما يمكن أن ينشأ عن ذلك، وهو الفساد، حتى لا يقابلوا تلك النعم بما يكفرها، وهو الفساد في الأرض.

وقد اجتهد بعض المفسرين أن يحددوا نوع الفساد المنهي عنه في الآية الكريمة، فقال بعضهم معنى ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾: لا تتظالموا؛ لأن كل سبط منكم قد جعل له شرب معلوم.

قيل: معناه: لا تؤخروا الغداء، فكانوا إذا أخروه فسد.

وقيل: معناه: لا تخالطوا المفسدين.

وقيل: معناه: لا تتمادوا في فسادكم.

وقيل: معناه: لا تطغوا.

قال أبو حيان: وهذه الأقوال كلها قريب بعضها من بعض[1].

والأولى عندي إبقاء اللفظ على عمومه وإطلاقه ليشمل كل فساد مادي أو معنوي، واقع أو متوقع.

ومن ذلك ما جاء على لسان قوم قارون في نصيحتهم له: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ (القصص: ٧٧).

---

(١) تفسير البحر المحيط لأبي حيان (١/ ٢٣٠، ٢٣١).

ولما جاء الإسلام أكد النهي عن الفساد في الأرض بأساليب شتى.

منها النهي عن الإفساد، كما في قوله تعالى: ﴿وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ (الأعراف: ٥٦).

ومنها: التنفير من النماذج المفسدة، والتحذير منها ومن مشابهتها، كما في قوله تعالى في وصف بعض المنافقين: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾﴾ (البقرة: ٢٠٤-٢٠٦).

ومثل ذلك قوله في ذم اليهود: ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ (المائدة: ٦٤).

وقوله في ذم المنافقين: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾﴾ (البقرة: ١١، ١٢).

ومنها: إعلان أن الله تبارك وتعالى ﴿لا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾ و ﴿لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ كما في الآيات السابقة. وأنه لا يصلح عمل المفسدين كما جاء في قصة موسى ﴿قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (يونس: ٨١).

والإفساد في الأرض: يشمل الإفساد المادي، بتخريب العامر، وإماتة الأحياء، وتلويث الطاهرات، وتبديد الطاقات، واستنزاف الموارد في غير حاجة ولا مصلحة، وتعطيل المنافع وأدواتها.

كما تشمل الإفساد المعنوي، كمعصية الله تعالى، ومخالفة أمره، والكفر بنعمته، والتمرد على شريعته، والاعتداء على حرماته، وإشاعة الفواحش ما

ظهر منها وما بطن، وترويج الرذائل، ومحاربة الفضائل، وتقديم الأشرار، وتأخير الأخيار، وتجبر الأقوياء على الضعفاء، وقسوة الأغنياء على الفقراء.

ومن ذلك: ما كان عليه قوم لوط، الذين شذوا عن الفطرة، وحادوا عن سواء السبيل، وأتوا فاحشة ما سبقهم بها من أحد من العالمين، حيث أتوا الذكران من العالمين، وتركوا ما خلق لهم ربهم من أزواجهم، وارتكبوا هذا الإثم، حتى لم يسلم منهم ضيف ينزل عليهم.

فلا غرو أن دعا عليهم نبيهم لوط في مرارة وحرقة، إذ ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾ (العنكبوت: ٣٠).

وأي فساد أشد من هذا الفساد الخلقي، وقد نصره الله عليهم، فأنزل عليهم نقمته، وجعل عالي قريتهم سافلها، وأمطر عليهم حجارة من سجيل منضود ﴿مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ (هود: ٨٣).

إحياء الموات:

ومما جاءت به شريعة الإسلام من عمارة الأرض: (إحياء الموات).

والموات: هي الأرض الدارسة الخراب، كما قال ابن قدامة في (المغني).

وعرفها الأزهري في (الصحاح) بأنها الأرض التي ليس لها مالك، ولا ماء، ولا عمارة، ولا ينتفع بها.

و(إحياء الموات) تعبير إسلامي مأخوذ من الحديث النبوي: «من أحيا أرضا ميتة فهي له»[1].

---

(١) رواه أبو داود في سننه برقم (٣٠٧٣) والترمذي وقال: حسن غريب برقم (١٣٧٨)، وأحمد والضياء في (المختارة) كما في (الجامع الصغير) للسيوطي، والنسائي أيضا كما نبه عليه المناوي في (فيض القدير) كلهم من حديث سعيد بن زيد، ورواه الترمذي من حديث جابر وقال: حسن صحيح برقم (١٣٧٩)، وهو في مسند أحمد (٣/ ٣٦٣، ٣٨١)، ورواه البخاري في صحيحه باب المزارعة موقوفا على عمر بهذا اللفظ، ورواه في كتاب العُمْرَى والرُّقْبَى عن عائشة بلفظ: «من أعمر أرضا ليست لأحد فهو أحق بها».

والأرض الميتة هي الأرض البور، التي لا زراعة فيها ولا بناء، سماها الرسول صلى الله عليه وسلم (ميتة) للإشارة إلى أن الأماكن والأراضي تموت وتحيا، كما يحيا الإنسان ويموت، و(موت) الأرض إنما يكون بتركها بوارا لا ينبت فيها نبات، ولا يغرس فيها شجر، ولا يقوم فيها بناء ولا عمران، و(حياة) الأرض بإجراء الماء فيها، وإنبات الزرع، وغرس الشجر، وإقامة أسباب السكن والمعيشة.

وقد اقتبس النبي صلى الله عليه وسلم معنى الموت والحياة للأرض من القرآن الكريم، في أكثر من آية. كما في قوله تعالى: ﴿ وَآيَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴾ (يس: ٣٣) وقوله عن المطر ﴿ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا ﴾ (ق: ١١) ﴿ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (فصلت: ٣٩).

ولا شك أن من أعظم الموارد التي عني الإسلام بالمحافظة عليها، وعمل على تنميتها، والاستفادة من خيراتها: الأرض الزراعية التي هي مصدر القوت والطعام للإنسان، كما قال تعالى: ﴿ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴿٣٢﴾ ﴾ (عبس: ٢٤ - ٣٢).

وقد مر بنا أن هذا يعد من أفضل الأعمال التي حث عليها الإسلام، ورغب فيها، ووعد فاعليها بأعظم المثوبة: استصلاح الأراضي البور، لما فيه من توسيع الرقعة الزراعية وزيادة مصادر الإنتاج، وقد عرف هذا الأمر في الفقه الإسلامي بعنوان معبر جميل هو: «إحياء الموات»، أو إحياء الأرض الميتة، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « من أحيا أرضا ميتة فهي له، وما

أكلت العافية (طلاب الرزق) منها فهي له صدقة»[1]، قال أبو عبيد: العافية: من السباع والطير والناس وكل شيء يعتافه.

وفي الحديث الذي ذكرناه نجد أن النبي صلى الله عليه وسلم قرر (ملكية الأرض) لمن أحياها، تشجيعا على الإحياء، وتحريضا عليه. ولا ريب أن حب التملك دافع فطري قوي في نفس الإنسان، فإذا وجد أن كل ما يحييه ويعمره من الأرض يملكه، دفعه ذلك إلى تحريك الهمة، وتقوية النشاط في توسيع دائرة الإحياء والعمران للأرض، حتى تدخل في ملكه.

وإحياء الموات يكون: بالغرس والزرع، وذلك لا يكون إلا بإجراء الماء إليها من نهر أو بحيرة أو عين، أو حفر بئر بها أو نحو ذلك، إذ لا يحيا الغرس والزرع إلا بالماء، كما قال تعالى: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ (الحج: ٥).

ويكون الإحياء كذلك: بالبناء عليها، وإقامة مساكن فيها للناس، فالأرض الموات، كما تحيا بالنبات والغرس، تحيا بالبناء والمسكن، ولهذا نرى الناس في عصرنا يتجهون إلى الصحاري ليقيموا فيها المباني، فيستفيدوا منها أمرين:

١ ـ إحياء الصحراء بالبيوت والمساكن، فتدب فيها الحياة من كل جانب.

٢ ـ وتوفير الأرض الزراعية التي يقتات منها الناس، وقد أضحت المباني تجور عليها من كل جانب، حتى تكاد تأكلها. فمن أين يأكل الناس بعدئذ؟

ويكون الإحياء كذلك بإقامة المصانع في الأرض، فالمصانع كالمزارع، مطلوبة لحياة الناس، وقد قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ (الحديد: ٢٥) وقوله: (فيه بأس شديد) إشارة إلى الصناعات الحربية، وقوله (ومنافع للناس) إشارة إلى الصناعات المدنية.

---

(١) الجملة الأولى من الحديث رواها أحمد وأبو داود والترمذي عن سعيد بن زيد، والترمذي عن جابر، والحديث بجملته رواه أبو عبيد في الأموال، ورواه بصيغة قريبة: أحمد والنسائي وابن حبان، والضياء عن جابر، وانظر صحيح الجامع الصغير ص ٥٩٧٤ ـ ٥٩٧٦.

ويجب أن تكون هذه المصانع بعيدة عن المناطق السكنية حتى لا تؤذي الناس بما قد يترتب عليها من أدخنة أو من روائح يكرهها الناس أو من ضجيج وضوضاء نتيجة تشغيل الآلات الكبيرة، وهو ملوث آخر من ملوثات البيئة، وقد قرر الإسلام: أن «لا ضرر ولا ضرار».

وكان من سياسة النبي - صلى الله عليه وسلم - و خلفائه الراشدين: الإقطاع من هذه الأراضي البور لبعض الرجال الذين أدوا خدمات ممتازة للدولة الإسلامية، فهي مكافأة لهم من جهة، وتشجيع على استصلاحها وعمرانها من جهة أخرى.

وما قرب من العامر وتعلق بمصالحه، مثل طرفه وفنائه، ومسيل مائه، ومرعى أنعامه، ومحتطبه، وحريمه، ونحو ذلك من كل ما يحتاج إليه (العامر) ويعنون بالعامر: المدينة أو القرية، لعمل مدارس أو جامعات أو مصانع أو مستشفيات أو أندية أو مساحات خضراء، فلا يملك ذلك بالإحياء[1]، لأنه لا يعتبر مواتا في هذه الحالة، لأنه لتعلقه بمصالح البلد العامر الحي، يعتبر في حكم الحي بسببه، فلا يدخل في الحديث الشريف: «من أحيا أرضا مواتا فهي له» لأنها ليست ميتة. فإن ما جاور الشيء يأخذ حكمه.

بل ذهب بعض الفقهاء إلى أن القريب من العامر لا يملك بالإحياء، وإن لم يتعلق به مصالحه في الحال، إذ هو بصدد أن يحتاج إليه في المستقبل لقربه، وتنزيلا للضرر في المآل منزلة الضرر في الحال، إذ هو بصدد أن يحتاج إليه في المآل[2]. وهذا هو الذي يجب أن نرجحه في عصرنا، لسرعة تطور العمران، واتساع حاجات الناس، فلا بد من ترك مساحات فسيحة حول العمران من أجل حاجات المستقبل، التي قد لا نتوقعها اليوم.

ومن تحجر مواتا، أي شرع في إحيائه ولم يتمه - مثل أن يحيط حول

---

(١) انظر: المبدع شرح المقنع لابن مفلح (٥/ ٢٥٠).
(٢) المصدر السابق (٥/ ٢٥١).

الأرض ترابا، أو بجدار صغير، أو بحفر بئر ولم يصل ماؤها - لم يملكه بذلك، لأن الملك يكون بالإحياء، ولم يتحقق. وهو أحمق به من غيره ووارثه بعده، ومن ينقله إليه بالهبة، وليس له بيعه.

فإن لم يتم إحياؤه، قيل له: إما أن تحييه وإما أن تتركه ليحييه غيرك، لأنه ضيق على الناس في حق مشترك بينهم، فلم يمكن منه. فإن طلب الإمهال أمهل الشهرين والثلاثة.

ومن قُطِعَ له من هذه الأرض مساحة معينة، ثم تركها بغير أن يعمرها ويصلحها، كان لولي الأمر أن ينتزعها منه، ويعطيها لغيره ممن يقوم بإحيائها.

وقد روى أبو عبيد وغيره عن بلال بن الحارث المزني: «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أقطعه العقيق - أرضا بالمدينة - فلما كان زمان عمر، قال لبلال: إن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لم يُقطعك لتحتجزه عن الناس، وإنما أقطعك لتعمل، فخذ منها ما قدرت عَلى عمارته، ورد الباقي»[1].

وعن عبد الله بن عمر قال: كان عمر بن الخطاب يخطب على هذا المنبر يقول: «يا أيها الناس؛ من أحيا أرضا ميتة فهي له»، وذلك أن رجالا كانوا يحتجزون من الأرض ما لا يعمرون.

وكان من سنة عمر تشجيع الأفراد العاملين على زيادة الإنتاج كنافع أبي عبد الله الذي كتب إلى واليه بالبصرة في شأنه يقول: «أما بعد، فإن أبا عبد الله ذكر أنه زرع بالبصرة.. وافتلَى أولاد الخيل (رعاها بالفلاة) حين لم يَفْتَلها أحد من أهل البصرة، وإنه نعم ما رأى، فأعنه على زرعه وعلى خيله، فإني قد أذنت له أن يزرع، وآته أرضه التي زرع... ولا تعرض له إلا بخير...»[2].

---

(١) الأموال ص٢٩٠.

(٢) من هامش الأموال عن البلاذري ص٣٤٦، وفي الأموال نحوه ص ٢٧٧.

وجمهور الفقهاء لا يشترطون إذن الإمام أو ولي الأمر فيما يحييه من الأرض، ويعتبرون أن الحديث أعطى إذنا عاما بالإحياء والتملك لمن أحيا.

وذهب أبو حنيفة إلى أن الإحياء الذي به تتحقق الملكية هو الذي يكون بإذن الإمام، وأن الرسول حينما قال «من أحيا أرضا ميتة فهي له» قاله بوصفه إماما للأمة، ورئيسا للدولة.

٣ ـ النظافة والتطهير

ومن الوسائل التي حرص عليها الإسلام في حفظ البيئة: العناية بالنظافة، والحقيقة أن موقف الإسلام من النظافة موقف لا نظير له في أي دين من الأديان، فالنظافة فيه عبادة وقربة، بل فريضة من فرائضه.

إن كتب الشريعة في الإسلام تبدأ أول ما تبدأ بباب عنوانه «الطهارة» أي النظافة، فهذا أول ما يدرسه المسلم والمسلمة من فقه الإسلام.

وما ذلك إلا أن الطهارة هي مفتاح العبادة اليومية «الصلاة» كما أن الصلاة مفتاح الجنة، فلا تصح صلاة المسلم ما لم يتطهر من الحدث الأصغر بالوضوء ومن الحدث الأكبر بالغسل، والوضوء يتكرر في اليوم عدة مرات، تغسل فيه الأعضاء التي تتعرض للاتساخ والعرق والأتربة، مثل الوجه ـ ومنه الفم والأنف ـ واليدين والرجلين والرأس والأذنين، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا﴾ (المائدة: ٦) وقال صلى الله عليه وسلم: «لا يقبل الله صلاة بغير طهور»[1].

ومن شرط صحة الصلاة كذلك: نظافة الثوب والبدن والمكان من الأخباث والقاذورات، قال تعالى: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ (المدثر: ٤) ومن ذلك: نظافة

---

(١) رواه مسلم وابن ماجه عن ابن عمر، وابن ماجه عن أنس وعن أبي بكرة، وأبو داود والنسائي وابن ماجه عن والد أبي مليح، كما في صحيح الجامع الصغير (٧٧٤٦).

مخرج البول والبراز بالاستنجاء والغسل بالماء، إن تيسر، وإلا فبالمسح ولو بالأحجار ونحوها في الصحراء (الاستجمار).

وفوق ذلك أشاد القرآن والسنة بالنظافة وأهلها، فقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ (البقرة: ٢٢٢) وأثنى على أهل مسجد قباء. فقال: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ (التوبة: ١٠٨).

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «الطهور شطر الإيمان»[١] أي نصفه، وهو حديث صحيح.

ومن ذلك شاعت بين المسلمين هذه الحكمة التي ينطق بها خاصتهم وعامتهم ولا يعرف لها مثيل عند غيرهم: وهي «النظافة من الإيمان».

وقد عني النبي صلى الله عليه وسلم بنظافة الإنسان، فدعا إلى الاغتسال، وخاصة يوم الجمعة: «غسل الجمعة واجب على كل محتلم»[٢] أي بالغ «حق على كل مسلم في كل سبعة أيام يغسل فيه رأسه وجسده»[٣].

وعني بنظافة الفم والأسنان خاصة، فرغب في السواك أعظم الترغيب «السواك مطهرة للفم، مرضاة للرب»[٤] بجوار الأمر بالمضمضة والاستنشاق في الوضوء؛ حتى اعتبرهما المذهب الحنبلي من فرائض الوضوء.

وأمر بنظافة الشعر «من كان له شعر فليكرمه»[٥].

---

(١) رواه مسلم عن أبي مالك الأشعري في الطهارة (٢٢٣).

(٢) رواه مالك وأحمد وأبو داود والنسائي وابن ماجه عن أبي سعيد الخدري (صحيح الجامع الصغير ٤١٥٥).

(٣) متفق عليه عن أبي هريرة، اللؤلؤ والمرجان(٤٩٢).

(٤) رواه أحمد عن أبي بكر، والشافعي في مسنده وأحمد أيضا والنسائي وابن حبان والحاكم والبيهقي عن عائشة، وابن ماجه عن أبي أمامة الباهلي.. وغيرهم (صحيح الجامع الصغير: ٣٦٩٥) وعلقه البخاري بصيغة الجزم.

(٥) رواه أبو داود عن أبي هريرة (٤١٦٣).

وبإزالة الفضلات من الإبط والعانة وتقليم الأظافر، واعتبر ذلك من سنن الفطرة[1].

وعني بنظافة البيت وساحاته وأفنيته فقال: «إن الله جميل يحب الجمال، طيب يحب الطيب، نظيف يحب النظافة، فنظفوا أفنيتكم ولا تتشبهوا باليهود»[2].

وعني بنظافة الطريق، وتوعد كل من ألقى فيه أذى أو قذرا: «من آذى المسلمين في طرقهم وجبت عليه لعنتهم»[3].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الإيمان بضع وستون ـ أو سبعون ـ شعبة أدناها إماطة الأذى عن الطريق، وأرفعها قول: لا إله إلا الله»[4].

«أماط» الشيء عن الطريق: نحّاه وأزاله، والمراد بالأذى: كل ما يؤذي المار كالحجر والشوكة والعظم والنجاسة والقذر ونحو ذلك.

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «عرضت عليّ أعمال أمتي حسنُها وسيئُها، فوجدت محاسن أعمالها الأذى يُمَاطُ عن الطريق، ووجدت في مساوئ أعمالها النُّخَامَة تكون في المسجد لا تدفن»[5].

وعن أبي برزة رضي الله عنه قال: قلت: يا نبي الله إني لا أدري نفسي تمضي أو أبقى بعدك؛ فزدني شيئا ينفعني الله به، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «افعل كذا، افعل كذا، وأَمِرَّ الأذى عن الطريق».

---

(١) روى الشيخان عن أبي هريرة مرفوعا: «خمس من الفطرة: الختان، والاستحداد (إزالة شعر العانة) وقص الشارب، وتقليم الأظافر، ونتف الإبط».

(٢) رواه الترمذي (٢٨٠٠) وذكر أن فيه روايا يضعف، لكن قوله «فنظفوا أفنيتكم» إلخ.. له طريق أخرى عن سعد بإسناد حسن، كما ذكر الألباني في تخريج الحلال والحرام، حديث (١١٣).

(٣) رواه الطبراني عن حذيفة بن أسيد، وحسنه في صحيح الجامع الصغير (٥٩٢٣).

(٤) متفق عليه. اللؤلؤ والمرجان (٢١).

(٥) رواه مسلم (٥٥٣).

وفي رواية قال أبو برزة: قلت: يا نبي الله، علمني شيئا أنتفع به، قال: «اعزل الأذى عن طريق المسلمين»[1].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «على كل ميسَم من الإنسان صلاة كل يوم» فقال رجل من القوم: هذا من أشد ما أنبأتَنا به، قال: «أمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر صلاة، وحملك على الضعيف صلاة، وإنحاؤك القذر عن الطريق صلاة، وكل خطوة تخطوها إلى الصلاة صلاة» رواه ابن خزيمة في «صحيحه».

وعن أبي ذر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «ليس من نَفْس ابن آدم إلا عليها صدقة في كل يوم طلعت فيه الشمس» قيل: يا رسول الله، من أين لنا صدقة نتصدق بها؟ فقال: «إن أبواب الخير لكثيرة: التسبيح، والتحميد، والتكبير، والتهليل، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وتُميطُ الأذى عن الطريق، وتُسمع الأصم، وتَهْدي الأعمى، وتدل المستدل علَى حاجته، وتسعى بشدة ساقيك مع اللهفان المستغيث، وتحمل بشدة ذراعيك مع الضعيف، فهذا كله صدقة منك على نفسك»[2] رواه ابن حبان في «صحيحه»[3]؛ والبيهقي مختصرا، وزاد في رواية: «تبسمك في وجه أخيك صدقة، وإماطتك الحجر والشوكة والعظم عن طريق الناس صدقة، وهديك الرجل في أرض الضالة لك صدقة».

وعن بريدة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «في الإنسان ستون وثلاثمائة مفصل، فعليه أن يتصدق عن كل مفصل

---

(١) رواه مسلم (٢٦١٨).

(٢) هذا الحديث وما قبله وما بعده تجعل من المسلم ينبوع خير للمجتمع الذي يعيش فيه، فخدمة المجتمع ومساعدة أبنائه فريضة يومية عليه، بل على كل عضو من أعضاء بدنه، يتعبد بذلك لربه، ويعتبره الدين صدقة وصلاة. ولو أحسن المسلمون فهم ذلك والعمل به، لكانوا في مقدمة أمم الأرض تماسكا ورقيا في العمران والأخلاق، فأين المسلمون من هذا الحديث؟!

(٣) وهو في «الموارد» في كتاب الزكاة (٨٦٢). وقال الشيخ شعيب: إسناده صحيح، ابن حبان (٣٣٧٧).

منها صدقة» قالوا: فمن يطيق ذلك يا رسول الله؟ قال: «النخامة في المسجد تدفنها، والشيء تنحيه عن الطريق»[1].

ونجد آثار هذه التوجيهات النبوية في حياة جيل الصحابة وأبنائهم وتلاميذهم واضحا للعيان:

فعن المستنير بن أخضر بن معاوية عن أبيه قال: كنت مع معقل بن يسار رضي الله عنه في بعض الطرقات، فمررنا بأذى فأماطه ـ أو نحَّاه ـ عن الطريق، فرأيت مثله، فأخذته فنحَّيتُه، فأخذ بيدي وقال: يا ابن أخي، ما حملك على ما صنعت؟ قلت: يا عم، رأيتك صنعت شيئا، فصنعت مثله، فقال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «من أماط الأذى عن طريق المسلمين كتبت له حسنة، ومن تقبلت منه حسنة دخل الجنة» رواه الطبراني في «الكبير» هكذا.

ورواه البخاري في كتاب «الأدب المفرد»، فقال: عن المستنير بن أخضر بن معاوية بن قرة عن جده.

قال الحافظ المنذري: وهو الصواب[2].

وعن أبي شيبة الهروي قال: كان معاذ يمشي، ورجل معه، فرفع حجرا من الطريق، فقال: ما هذا؟ فقال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «من رفع حجرا من الطريق كتبت له حسنة، ومن كانت له حسنة دخل الجنة»[3] رواه الطبراني في «الكبير» وقال الهيثمي: رواته ثقات[4].

---

(١) رواه أحمد (٥/ ٣٥٤، ٣٥٩)، وأبو داود في الأدب (٥٢٤٢)، وابن خزيمة في صلاة الضحى (١٢٢٦)، وهو في «الموارد» (٦٣٣) وقال الشيخ شعيب: إسناده قوي، ابن حبان (٢٥٤٠).

(٢) وكذا نقل الهيثمي عن الحافظ المزي، وقال: فإن كان كما قال المزي فإسناده حسن إن شاء الله (٣/ ١٣٥، ١٣٦).

(٣) وهذا بشرط الإيمان، وهو مفهوم، لأن الذي تكتب له الحسنات هو المؤمن، وهو إلى الجنة في عاقبة أمره، وإن عذب بسوء عمله.

(٤) انظر: مجمع الزوائد (٣/ ١٣٥).

وعن عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «خُلِقَ كل إنسان من بني آدم على ستين وثلاثمائة مَفصل، فمن كَبَّر الله، وحمد الله، وسبح الله، وهلل الله، واستغفر الله، وعزل الحجر عن طريق المسلمين، أو شوكة، أو عظما عن طريق المسلمين، وأمر بمعروف، أو نهى عن منكر، عدد تلك الستين والثلاثمائة، فإنه يمسي يومئذ وقد زحزح عن النار». قال أبو توبَة: وربما قال: «يمشي»[1].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم: «بينما رجل يمشي بطريق وجد غُصْنَ شوك فأخَّره، فشكر الله له فغفر له» رواه البخاري ومسلم[2].

وفي رواية لمسلم قال: «لقد رأيت رجلا يتقلب في الجنة في شجرة قطعها من ظهر الطريق كانت تؤذي المسلمين».

وذكر الحافظ المنذري في كتابه (الترغيب والترهيب) أكثر من حديث في الترغيب في تنظيف المساجد وتطهيرها:

فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن امرأة سوداء كانت تقم المسجد[3] ففقدها رسول الله صلى الله عليه وسلم، فسأل عنها بعد أيام، فقيل له: إنها ماتت، فقال: «فهلا آذنتموني»[4]؟ . . . فأتى قبرها فصلى عليها. رواه البخاري ومسلم[5]، وابن ماجه بإسناد صحيح واللفظ له، وابن خزيمة في «صحيحه»، إلا أنه قال: إن امرأة كانت تلقط الخرق والعيدان من المسجد.

فانظر: كيف اهتم الرسول بأمر هذه المرأة والسؤال عنها، والصلاة على قبرها، لما كانت تقوم به من تنظيف المسجد.

(١) رواه مسلم (١٠٠٧).
(٢) البخاري (٦٥٢)، ومسلم (١٩١٤).
(٣) تقم: تجمع القمامة، والقمامة كالكناسة وزنا ومعنى.
(٤) آذنتموني: أعلمتموني.
(٥) البخاري (٤٦٠)، ومسلم (٩٥٦)، «اللؤلؤ والمرجان» (٥٦٠).

فالحديث يدل على اهتمام المرأة بالمسجد ونظافته في عصر النبوة. فلا عجب أن سأل الرسول صلى الله عليه وسلم عنها، حين افتقدها، ولام أصحابه حين لم يعلموه بموتها، وصلى عليها في قبرها بعد موتها.

وعن سمرة بن جندب رضي الله عنه قال: أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم: أن نتخذ المساجد في ديارنا، وأمرنا أن ننظفها». رواه أحمد، والترمذي وقال: حديث صحيح[1].

كما ذكر في الترهيب من البصاق في المسجد:

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب يوما إذ رأى نُخَامَة في قبلة المسجد - فتَغَيَّظ على الناس، ثم حكَّهَا - قال: وأحسبه قال: فدعا بزعفران، فلطخه به - وقال: «إن الله عز وجل قبَل وجه أحدكم إذا صلى فلا يبصق بين يديه». رواه البخاري، ومسلم[2]، وأبو داود واللفظ له.

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان تعجبه العَرَاجينُ أن يمسكها بيده، فدخل المسجد ذات يوم، وفي يده واحد منها، فرأى نخَامات في قبلة المسجد فحَتَّهُنَّ حتى أنقاهن، ثم أقبل على الناس مغضبا فقال: «أيحب أحدكم أن يستقبله رجل فيبصق في وجهه؟ إن أحدكم إذا قام إلى الصلاة فإنما يستقبل ربه، والمَلَكُ عن يمينه، فلا يبصق بين يديه، ولا عن يمينه» الحديث. رواه ابن خزيمة في «صحيحه».

(١) رواه أحمد في مسند سمرة (٥/ ١٧)، وأبو داود (٤٥٦)، ولم أجده في الترمذي. وقد روى أحمد نحوه في «مسنده» عن عائشة (٦/ ٢٧٩)، وأبو داود (٤٥٥)، والترمذي (٥٩٤)، وابن ماجه (٧٥٨) و(٧٥٩) والمراد بالدور: محال القبائل، كما يقال دار بني فلان، وذلك ليجتمعوا فيها ويقيموا الصلاة، إذا شق عليهم الذهاب إلى المسجد الجامع.

(٢) البخاري (٤٠٦)، ومسلم (٥٤٧)، «اللؤلؤ والمرجان» (٣١٩).

ضرب النبي صلى الله عليه وسلم المثل لهم، فحرص على إزالة الأذى والقذر بنفسه، حتى يعلمهم العناية بالنظافة عامة، وبالمساجد خاصة، لأنها ملتقى المسلمين، ومظهر حضارتهم، ووجه دينهم، وعلى الأخص جهة القبلة، لما ترمز إليه من معان كريمة نبه عليها الرسول الكريم.

٤ ـ المحافظة على الموارد

المحافظة على الموارد: موضوع مهم يبحثه الاقتصاديون، كما يبحثه علماء البيئة. ولا غرو أن تحدثنا عنه في كتابنا «دور القيم والأخلاق في الاقتصاد الإسلامي» باعتباره قيمة من القيم الأساسية في الاقتصاد، ولا سيما في مجال الإنتاج. وهنا نتحدث عنه مرة أخرى بوصفه دعامة من الدعائم المهمة في الحفاظ على البيئة وصلاحها ونمائها وبركتها. فإن من الأصول الأخلاقية والتشريعية المهمة هنا.

المحافظة على «الموارد» باعتبارها نعما من الله تعالى على خلقه، فواجبهم أن يقوموا بشكرها، ومن شكرها المحافظة عليها من التلف أو الخراب أو التلوث أو غير ذلك، مما يعتبر نوعا من الإفساد في الأرض.

والله تعالى يقول: ﴿وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا﴾ (الأعراف: ٥٦).

وقال تعالى لبني إسرائيل بعد أن فَجَّر لهم في التيه اثنتي عشرة عينا: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ (البقرة: ٦٠).

وقال شعيب لقومه: ﴿وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا﴾ (الأعراف: ٨٥).

وقبل ذلك: قال صالح لقومه: ﴿فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ (الأعراف: ٧٤).

والإفساد في الأرض قد يكون ماديا، بتخريب عامرها، وتلويث طاهرها وإهلاك أحيائها، وإتلاف طيباتها، أو تفويت منفعتها.

وقد يكون معنويا، بإشاعة الظلم، ونشر الباطل، وتقوية الشر، وتلويث الضمائر، وتضليل العقول.

وكلاهما شر يبغضه الله تعالى، ولا يحب أهله.

لهذا تكرر في القرآن أن الله ﴿لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ (المائدة: ٦٤) و ﴿لا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾ (البقرة: ٢٠٥).

وذم الله اليهود بقوله: ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَاداً وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ (المائدة: ٦٤).

فما هي تلك الموارد؟ هناك الموارد الطبيعية، وهي هبات الله في الطبيعة التي يمكن أن تتحول إلى ثروة: هي الغلاف الغازي بعناصره المختلفة، وهي الغلاف المائي، وهي الغطاء النباتي الطبيعي في صورة مختلفة. وبمعنى آخر: هي الموارد الزراعية - المناخ والتربة -، وهي الموارد النباتية في صورة الغابات والحشائش، وهي الموارد البحرية سواء أكانت في مناطق الرصيف القاري أو في الأعماق المحيطة، وهي في النهاية: الموارد التعدينية في صخور الأرض ومعادنها المختلفة، ولعل هناك موارد أخرى لم نستطع تحويلها إلى ثروة حتى الآن، كالموارد الشمسية أو الجاذبية مثلا[1].

هذا ما يقرره الاقتصاديون، فإذا تأملنا في القرآن الكريم وجدناه يدفعنا دفعا إلى استغلال هذه الموارد. إنه ينبه عقولنا، ويلفت أنظارنا بقوة إلى هذا الكون المحيط بنا بمائه وهوائه وبحاره وأنهاره، ونباته وحيوانه وجماده، وشمسه وقمره، وليله ونهاره، كل ذلك مسخر لمنفعة الإنسان، تكريما من الله له ونعمة عليه، فعليه أن ينتفع بما سخر الله له إن كان من أهل الفكر والعلم، نقرأ في ذلك قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ

(١) من كتاب قواعد الجغرافية الاقتصادية ص٢٦، الطبعة الثانية - للدكتور نصر السيد نصر.

﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا﴾ (إبراهيم: ٣٢-٣٤)، ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ (لقمان: ٢٠)، ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الجاثية: ١٣).

الثروة الحيوانية:

نَبَّه القرآن على الثروات الطبيعية - في مختلف صورها - في كثير من آياته وسوره.

ففي سورة كسورة النحل تنبيه على الثروة الحيوانية وما ينتج عنها من لحوم وألبان وجلود وأصواف وغيرها، فقال تعالى: ﴿وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ (النحل: ٥)، ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ﴾ (النحل: ٦٦)، ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ (النحل: ٨٠).

الثروة النباتية:

وفي السورة نفسها تنبيه على الثروة النباتية بقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾﴾ (النحل: ١٠، ١١).

وفي صناعة الحلويات وما يتصل بها بقوله تعالى: ﴿وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ

والأعناب تتخذون منه سكرًا ورزقًا حسنًا إن في ذلك لآية لقوم يعقلون﴾ (النحل: ٦٧).

ويدخل في الثروة الحيوانية: النحل وما ينتج عنه يقول تعالى: ﴿وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتًا ومن الشجر ومما يعرشون ﴿٦٨﴾ ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللًا يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون ﴿٦٩﴾﴾ (النحل: ٦٨ - ٦٩).

وفي سورة يس يقول تعالى: ﴿وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبًا فمنه يأكلون ﴿٣٣﴾ وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون ﴿٣٤﴾ ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون ﴿٣٥﴾﴾ (يس: ٣٣ - ٣٥).

الثروة البحرية:

وفي السورة نفسها (النحل) لفت إلى الثروة البحرية وإمكان استغلالها في صيد الأسماك واللآلئ والانتفاع بها في التجارة المحلية والدولية، وقال تعالى: ﴿وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحمًا طريًا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون﴾ (النحل: ١٤).

الثروة المعدنية:

ومن أبرز ما ورد في القرآن من التنبيه على الثروة المعدنية قوله تعالى: ﴿وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس﴾ (الحديد: ٢٥)، وفي الآية دلالة على أهمية هذا المعدن الخطيرة (الحديد) في حياة البشر في الناحيتين: العسكرية والمدنية.

ومما له مغزى عميق أن تسمى السورة التي ذكرت فيها هذه الآية سورة «الحديد».

كما ذكر القرآن «القطْر» في قصة السد العظيم الذي بناه ذو القرنين: ﴿آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا ﴿٩٧﴾﴾ (الكهف: ٩٦ ـ ٩٧).

وفي معرض الامتنان على سليمان وما سخر الله له من طاقات كونية، قال تعالى: ﴿وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ﴾ (سبأ: ١٢).

الشمس والقمر:

وأكثر من ذلك كله تصريح القرآن في غير سورة: أنه سخر للإنسان الشمس والقمر، وهذا التسخير يمد حبل الأمل للإنسان، ويشبع من طموحه في السيطرة على الفضاء وتسخيره بأمر الله والانتفاع بالطاقة الشمسية، والوصول إلى القمر بل الشمس وتسخيرهما لمنفعة الإنسان، قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ﴾ (إبراهيم: ٣٣)، ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (النحل: ١٢)[1].

المحافظة على الثروة الحيوانية:

ومن أهم ما جاء به الإسلام في تنمية البيئة والحفاظ عليها وعلى مواردها: عنايته بالثروة الحيوانية.

وعناية الإسلام بالثروة الحيوانية من جهتين:

---

(١) انظر: كتابنا (دور القيم والأخلاق في الاقتصاد الإسلامي) ص١٣١ ـ ١٣٤ ط. وهبة.

الأولى: أنها كائنات حية تحس وتتألم، ولها حاجات وضرورات ومطالب، يجب أن تهيأ لها، ولا يحل التقصير في حقها، لأنها لا تستطيع أن تطالب به، ولا أن تسيِر مظاهرة تضغط على الإنسان ليرعاها، ولا يمكنها رفع أمرها للقضاء.

لهذا كانت رعايتها ابتغاء وجه الله تعالى، وطلبا لمرضاته ومثوبته، وخشية من عقابه عز وجل، فهو من مراعاة المثل الأخلاقية العليا لذاتها، التي تميزت بها الشريعة الإسلامية[1].

والجهة الثانية: أنها تمثل ثروة للإنسان، وموردا مهما من موارد البيئة، وخصوصا الحيوانات المستأنسة منها، والدواجن ونحوها، فإضاعتها تعني إضاعة مال الإنسان، وهو منهي عنه.

لهذا جاء التوجيه النبوي الكريم يحذر من إضاعة هذه الحيوانات، أو القسوة عليها، أو العبث بها، إرضاء لنزوات الإنسان وغروره وأنانيته.

تعطيل الثروة الزراعية والحيوانية من عمل الشرك:

ولقد حمل القرآن على نوع من الفساد شاع لدى مشركي العرب، وهو تعطيل بعض الموارد الزراعية والحيوانية، بناء على أوهام وأباطيل شركية، ما أنزل الله بها من سلطان، وناقشهم مناقشة مفصلة في سورة الأنعام كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا هَٰذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لاَّ يَطْعَمُهَا إِلاَّ مَن نَّشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ (الأنعام: ١٣٨).

وفي سورة يونس خاطبهم بقوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلالاً قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ (يونس: ٥٩).

---

(١) انظر: كتابنا (مدخل لدراسة الشريعة) فصل (الأخلاقية) من خصائص الشريعة.

الوعيد على قتل عصفور عبثا:

وأكدت السُّنَّة الأمر بالمحافظة على الموارد بأساليب شتى من الترغيب والترهيب.

من ذلك قوله عليه الصلاة والسلام: «من قتل عصفورا عبثا، عج إلى الله يوم القيامة، يقول: يا رب، إن فلانا قتلني عبثا، ولم يقتلني منفعة»[1].

«ما من مسلم يقتل عصفورا فما فوقها، بغير حقها، إلا يسأله الله عز وجل عنها» قيل: يا رسول الله؛ وما حقها؟ قال: «أن يذبحها فيأكلها، ولا يقطع رأسها، ويرمي بها»[2].

والحديثان يدلان دلالة قوية على احترام كل ذي روح من الطير والحيوان، ومنع قتله لغير حاجة ولا منفعة معتبرة، كما يرشدان إلى المحافظة على موارد الثروة، وعدم تبديدها باللهو والعبث، أي لغير منفعة اقتصادية.

بالإضافة إلى ما يدل عليه الحديثان من المحافظة على البيئة بكل ما فيها من الكائنات الحية، التي أصبح التقدم التكنولوجي خطرا عليها.

وفي هذا الهدْي النبوي تنديد بحملات الصيد أو (القنص) التي يقوم بها كثير من أهل الثراء، الذين يتخذون من الصيد وسيلة للهو، وتزجية أوقات الفراغ، وصيد الغزلان وبعض الطيور في أحيان كثيرة لغير الأكل، بل للعبث والتلهي.

---

(١) رواه النسائي (٧/ ٢٣٩)، وابن حبان في صحيحه (الموارد: ١٠٧١)، وأحمد أيضا: (٤/ ٣٨٩) كلهم عن الشريد الثقفي.

(٢) رواه أحمد عن عبد الله بن عمرو (٦٥٥١)، وبأخصر منه (٦٥٥٠)، وقال الشيخ شاكر: إسناده صحيح، ورواه النسائي ص٢٠٧ـ٢٣٩، والحاكم وصححه، ووافقه الذهبي (٤/ ٢٣٣)، كما أقره المنذري في الترغيب والترهيب، كما رواه الطيالسي والحميدي والدارمي. انظر تعليقنا على الحديثين ص٥٧٦، ٥٧٧ من (المنتقى من الترغيب والترهيب) طبع دار الوفاء.

الحفاظ على الحيوانات من العدوى:

ومن التوجيهات النبوية حديث: «لا يوردن مُمْرض على مُصِح»[1].

والممرض: صاحب الإبل المريضة بداء الجرب، والمصح: صاحب الإبل الصحيحة السليمة، فعندما تورد الإبل للشرب، يجب على صاحب الإبل المريضة ألا يوردها على الإبل السليمة، فتحتك بها فتعديها، وهذا توجيه لوقايتها من المرض، فإذا أصيبت، فيجب أن تعالج حفاظا عليها، باعتبارها كائنا حيا من ناحية، وباعتبارها مالا ناميا من ناحية أخرى، ولا يتم هذا الواجب إلا بطبيب بيطري متخصص، فهو مطلوب شرعا.

إياك والحلوب:

ومن روائع ما ورد في السنة في المحافظة على الموارد: قول النبي صلى الله عليه وسلم لمضيفه الأنصاري الذي أراد إكرامه بذبح شاة: «إياك والحلوب»[2].

قاله له حينما أخذ الرجل المدية ومضى ليذبح.

ومعنى الحديث: أنه عليه الصلاة والسلام نهى المضيِّف أن يعمد إلى شاة ينتفع بدرها ولبنها، لأنها حلوب، فيذبحها، فيخسر درها وحليبها، ويخسرها معه المجتمع، ويغني عنها شاة أخرى غير حلوب.

وربما يقول بعض الناس: وماذا يؤثر ذبح شاة في موارد مجتمع أو أمة؟

والجواب: أن الرسول الكريم يربي الأمة على قيم وأخلاق معينة ينبغي أن يلتزم بها الجميع، ورعاية هذه القيم والأخلاقيات على مستوى الأمة ذو مردود هائل، عند من يتدبرون الأمور.

---

(١) متفق عليه عن أبي هريرة، اللؤلؤ والمرجان (١٤٣٦).

(٢) رواه مسلم في الأطعمة عن أبي هريرة (١٠٣٨).

الانتفاع بجلد الميتة:

وأكثر من ذلك قوله لأصحابه، وقد رأى شاة ميتة: «لمن هذه الشاة»؟ قالوا: إنها شاة لمولاة ميمونة - أم المؤمنين - قال: «هلا انتفعتم بجلدها» ؟ قالوا: إنها ميتة، قال: «إنما حرم أكلها»[1].

فهو ينبههم على الاستفادة بجلد الشاة - فروتها - بأن يُدبغ، فيطهر بالدباغ، وينتفع به.

المحافظة على الأجناس الحية من الانقراض:

ومن التعاليم التي جاء بها الإسلام في المحافظة على البيئة، ما سبق زمانه، حتى إن المرء في عصرنا ليدهش له، وهو المحافظة على أجناس المخلوقات الحية من الفناء والانقراض، فإن الله تعالى لم يخلقها إلا لحكمة، علمها من علمها، وجهلها من جهلها.

وقد حكى القرآن عن (أولي الألباب) من أهل الذكر والفكر: أنهم حين تفكروا في خلق السماوات والأرض، قالوا: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ﴾ (آل عمران: ١٩١).

وقد تحدثت يوما مع أحد علماء البيئة المختصين، وذكرت له مدى عناية الإسلام بالبيئة وتحسينها، والمحافظة عليها، وأوردت بعض مظاهر ذلك وأدلته، فراعه ذلك وأعجبه، وسألني: هل يمكن أن نجد في النصوص الشرعية ما يؤيد فكرة المحافظة على بعض الأنواع من ا لحيوانات أو الطيور أو غيرها من الانقراض؟

قلت: نعم، نجد ذلك صريحا في حديث رسول الله صلى الله عليه

(١) متفق عليه عن ابن عباس، انظر: اللؤلؤ والمرجان (٢٠٥).

وسلم، الذي يقول في صراحة وجلاء: «لولا أن الكلاب أمة من الأمم لأمرت بقتلها فاقتلوا منها الأسود البهيم»[1].

فهذا الحديث النبوي الشريف يشير إلى حقيقة كونية قررها القرآن الكريم، وهي أن الكائنات الحية الأخرى - غير العاقلة - لها كينونتها الاجتماعية الخاصة، التي تميزها عن غيرها، وتربط بعضها ببعض. وبتعبير القرآن: كل منها أمة مثلنا. يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ (الأنعام: ٣٨).

و(المثلية) التي ذكرها القرآن الكريم لا تقتضي المشابهة في كل شيء، فالمشبه لا يقتضي أن يكون كالمشبه به في جميع الوجوه بل في وجه معين يقتضيه المقام، وهو هنا (الأممية) فكل منها أمة لها كيانها واحترامها، وحكمة لله تعالى في خلقها تمييزها عما سواها من الأجناس والأمم الأخرى.

فأمة النمل غير أمة النحل، غير أمة العنكبوت. وأمة الكلاب غير أمة السنانير، غير أمة أبناء آوى.

وما دامت أمة، فلا ينبغي أن تستأصل، لأن هذا ينافي حكمة الله سبحانه في خلقها، فإن الله تعالى لم يخلق شيئا عبثا.

ولا غرو أن جاء هذا الحديث النبوي الشريف في شأن الكلاب، برغم تأذي بعض الناس منها، أو من بعض أنواعها على الأقل، فربما خطر ببال بعض الناس أن يجردوا حملة للقضاء عليها، والخلاص منها، فلا تبقى لها من باقية. فجاء هذا الحديث ينفي هذا الخاطر، ويعارض هذا اللون من

---

(١) رواه أبو داود برقم (٢٨٤٥) والترمذي (١٤٨٩) والنسائي (٤٢٨٥) وابن ماجه (٣٢٠٤) كلهم في كتاب الصيد وقال الترمذي: حديث حسن، وذكره الألباني في صحيح الجامع الصغير، ورواه الطبراني في الأوسط عن عائشة وفيه ليث بن أبي سليم، وهو ثقة، ولكنه مدلس، كما قال الهيثمي، ورواه الطبراني في الكبير والأوسط وأبو يعلى بنحوه عن ابن عباس وقال الهيثمي: إسناده حسن (المجمع: ٤/ ٤٣).

التفكير، معللا بهذه العلة التي تعلو على منطق العصر الذي قيل فيه الحديث، لولا أن قائله لا ينطق عن الهوى ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ (النجم: ٤).

يقول الإمام أبو سليمان الخطابي في شرح الحديث في كتابه (معالم السنن):

«معناه: أنه كره إفناء أمة من الأمم، وإعدام جيل من الخلق، حتى يأتي عليه كله، فلا يبقى منه باقية، لأنه ما من خلق لله تعالى إلا وفيه نوع من الحكمة، وضرب من المصلحة. يقول إذا كان الأمر على هذا، ولا سبيل إلى قتلهن كلهن، فاقتلوا شرارهن، وهي السود البُهْم، وأبقوا ما سواها، لتنتفعوا بها في الحراسة، ويقال: إن السود منها شرارها وعقرها»(١) اهـ.

ذكرت ملخص هذا الكلام لأستاذ البيئة الذي سألني، فقال: عجيب أن يكون عندنا مثل هذه الكنوز الثمينة، ولا نطلع عليها، ولا نعرفها.

قلت له: إن عندنا من هذه الكنوز الكثير الكثير في كل جانب، ولكن هذه الكنوز الدفينة عادة تحتاج إلى من يفتش عنها في مظانها، ويزيح التراب والأحجار عنها، كما يفعل رجال الآثار في البحث عنها في باطن الأرض، حتى يجدوها مطمورة تحت الثرى، أو بين الأتربة والصخور، ومن جد وجد، ولكل مجتهد نصيب(٢).

يؤكد هذا التوجيه النبوي المستنبط من القرآن الكريم: ما استنبطه بعضهم مما أوحى الله به إلى نبيه نوح عليه السلام قبل مجيء الطوفان: أن يصنع سفينته

---

(١) انظر: معالم السنن للخطابي مع مختصر السنن للمنذري وتهذيبها لابن القيم بتحقيق أحمد محمد شاكر ومحمد حامد الفقي (٤/ ١٣٢، ١٣٣) ط. المكتبة الأثرية بباكستان، المصورة عن ط. السنة المحمدية بمصر. وقد اختلف الفقهاء في حكم قتل الكلاب، والصحيح أنه لا يجوز قتلها، إلا ما كان يؤذي ويضر. وقد أجازت النصوص اقتناءها للصيد والماشية والزرع، ويقاس عليها سائر المنافع المعتبرة شرعا، كحراسة المنازل ونحوها، كما قاله ابن عبد البر وغيره. انظر: مختصر السنن المذكور.

(٢) انظر: كتابنا (السنة مصدرا للمعرفة والحضارة).

بأعين الله تعالى ووحيه، وأن يحمل فيها من كلٍّ زوجين اثنين، كما جاء ذلك في القرآن الكريم في سورة هود وفي سورة (المؤمنون). يقول تعالى في قصة نوح في سورة هود:

﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴾ (هود: ٤٠).

وفي سورة المؤمنون قال تعالى: ﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ ﴾ (المؤمنون: ٢٧).

قال الحافظ ابن كثير: أمر الله نوحا عليه السلام أن يحمل معه في السفينة من كل زوجين اثنين من المخلوقات ذوات الأرواح (يعني من الحيوانات والطيور والحشرات والزواحف ونحوها من كل ما يعيش في البر) وقيل: وغيرها من النباتات، اثنين ذكرا وأنثى[1].

والزوج هنا: الواحد المزدوج بآخر من جنسه، فالذكر زوج للأنثى، كما هي زوج له، والاثنان زوجان، كما قال تعالى: ﴿ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴾ (النجم: ٤٥) وكما قال تعالى ﴿ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ ... وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ ﴾ (الأنعام: ١٤٣، ١٤٤).

وقد يطلق الزوج على مجموع الذكر والأنثى، وليس بمراد هنا، وإلا لزم أن يحمل من كل صنف أربعة. وليمنع هذا التوهم وصف بقوله (اثنين).

وحاصل المعنى كما قال الآلوسي: احمل ذكرا وأنثى من كل نوع من الحيوانات.

قال: وأدرج فيه أناسي الهوام والطير[2].

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٤٤٥) طبعة عيسى الحلبي.

(٢) روح المعاني للآلوسي (١٢/ ٥٣).

وقد سمى بعض علماء الطبيعة هذا الصنيع - من الحفاظ على الأحياء من الانقراض - (مبدأ نوح) أخذا من عمله في السفينة[1] .

ولكن إنما يتم هذا الاستدلال إذا كان نوح قد أمر بذلك للإبقاء على أجناس الأحياء، ولا دليل على ذلك في النص . وخصوصا أن بعض العلماء قد ذهبوا إلى أن الطوفان لم يعم الأرض كلها . وهذا هو المعقول . فأمر نوح بحمل ما يحتاج إليه إذا نجا ومن معه من الغرق، لئلا يغتموا لفقده، ويتكلفوا مشقة جلبه من الأصقاع النائية، التي لم يصلها الطوفان . فكأنه قيل : احمل فيها من كل ما تحتاجون إليه - إذا نجوتم - زوجين اثنين[2] .

فالعمدة في هذه القضية إذن هو الحديث الذي ذكرناه في عدم قتل الكلاب، لأنها أمة من الأمم .

نموذج من عناية الفقه الإسلامي بالحيوان:

ولقد قننت هذه العناية بالحيوان في فقهنا الإسلامي بكل مذاهبه، التي وضحت أن لهذه الحيوانات حقوقا يجب أن ترعى وتؤدّى .

وأنقل هنا فقرات من كتاب فقهي معتبر عند الحنابلة وهو «شرح غاية المنتهى» قال : «وعلى مالك بهيمة إطعامها ولو عطبت (أي لم يرج منها نفع) وعليه سقيها حتى تنتهي إلى أول شبع وأول ري دون غايتها، لحديث ابن عمر قال : «عذبت امرأة في هرة حبستها حتى ماتت جوعا . . . » (الحديث) .

فإن عجز عن نفقتها أجبر على بيع أو إجارة، أو ذبح مأكول، إزالة لضررها وظلمها، ولأنها تتلف إذا تركت بلا نفقة، وإضاعة المال منهي عنه .

فإن أبى فعل شيء من ذلك فعل الحاكم الأصلح من الثلاثة، أو اقترض عليه، وأنفق عليه، كما لو امتنع من أداء الدين . ويحرم لعنها - أي البهيمة - لما

(١) انظر : بحث د. كمال البتنانوني المقدم للمنتدى الأول للبيئة .
(٢) روح المعاني (١٢/ ٢٤).

روى أحمد ومسلم عن عمر: أنه صلى الله عليه وسلم كان في سفر فلعنت امرأة ناقة فقال: «خذوا ما عليها ودعوها فإنها ملعونة» فكأني أراها الآن تمشي في الناس ما يعرض لها أحد.

ولهما من حديث أبي برزة: «لا تصحبنا ناقة عليها لعنة الله» ، ولمسلم من حديث أبي الدرداء أنه قال: «لا يكون اللعانون شفعاء يوم القيامة».

ويحرم تحميلها ـ أي البهيمة ـ مشقا (ما يشق عليها) لأنه تعذيب لها. ويحرم حلبها ما يضر ولدها؛ لأن لبنها مخلوق له أشبه ولد الأمة، ويسن للحلاب أن يقص أظفاره لئلا يجرح الضرع.

ويحرم ضرب وجه ووسم (أي كَيٌّ فيه) أي في الوجه لأنه عليه الصلاة والسلام لعن من ضرب أو وسم الوجه ونهى عنه، ذكره في الفروع. . ويكره جَزٌّ معرفة وناصية، وجز ذَنَب، وتعليق جرس، أو وتر للخبر. . ويكره له إُطعامه فوق طاقته، وإكراهه على الأكل، على ما اتخذه الناس عادة لأجل التسمين، قاله في «الغنية».

ويجب على مقتني الكلب المباح أن يطعمه ويسقيه أو يرسله، لأن عدم ذلك تعذيب له. . ولا يحل حبس شيء من البهائم لتهلك جوعا أو عطشا لأنه تعذيب، ولو غير معصومة لحديث: «إذا قتلتم فأحسنوا القتلة»[1] انتهى.

وهكذا نجد فقهنا الإسلامي يتعمق في القضية، حتى يدخل في هذه التفصيلات الكثيرة، التي لا تكتفي برعاية الجانب المادي للحيوان، بل بالجانب الأدبي، حتى إنه يحرم لعن البهيمة، كأنما هي كائن يحس ويعقل. وهي ذروة في التعامل لم ترتق إليها أي فلسفة من الفلسفات أو دين من الأديان.

وقد ذكر الفقهاء أن مما يوجب التعزير قطع ذنب الدابة[2]، لما فيه من إيذاء وتشويه لها.

---

(١) مطالب أولي النهى شرح غاية المنتهى ج٥ ص٢٦٢ ـ ٢٩٤.

(٢) ذكر ذلك في (الفتاوى الهندية) ج٢ ص٩١. انظر: التعزير في الشريعة الإسلامية للدكتور عبد العزيز عامر ص٢٠٦.

ومن اهتمام المسلمين بالحيوانات: اهتمام علم (الحسبة) - وقد أُلِّفَ فيه عدد من الكتب في مختلف المذاهب الفقهية - بموضوع الحسبة على البياطرة، ويقصد بهم الأطباء الذين يعالجون الحيوانات، وهي - كما قالوا - أصعب علاجا من أمراض الآدميين، لأن الدواب ليس لها نطق تعبر به عما تجده من المرض والألم، وإنما يستدل على عللها بالحس والنظر، فيحتاج البيطار إلى حسن بصيرة بعلل الدواب وعلاجها، فلا يتعاطى البيطرة إلا من له معرفة وخبرة، فلا يتهجم على الدواب بَفَصْد أو قطع أو كَيٍّ وما أشبه، بغير خبرة، فيؤدي إلى إهلاك الدابة أو عطبها، فيلزمه الضمان من طريق الشرع، ويعزره المحتسب من طريق السياسة.

وذكر العلماء هنا تفاصيل كثيرة مهمة، تدل على مدى عنايتهم بهذا الأمر[1].

المحافظة على الثروة النباتية:

ومن الموارد المهمة: الثروة النباتية التي يحتاج إليها الإنسان والحيوان في غذائهما، كما قال تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلاً ﴿٢٩﴾ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾ (عبس: ٢٤ - ٣٢).

فهكذا خلق الله النبات متاعا ومنفعة للآدميين ولأنعامهم التي تخدمهم وهي صحيحة، ويأكلونها وهي ذبيحة، فهي في النهاية متاع لهم في الحقيقة.

وقال تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَاتٍ لأُولِي النُّهَىٰ ﴿٥٤﴾﴾ (طه: ٥٣، ٥٤).

---

(١) انظر: معالم القربة في أحكام الحسبة للقرشي ص٢٤ - ٢٧ نشر الهيئة العامة للكتاب.

وقال سبحانه معددا آياته في الخلق، ونعمه على الناس: ﴿ وَآيَةٌ لَّهُمُ الأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ (يس: ٣٣-٣٥).

وفي آيات أخرى لفت الأنظار ونبه العقول إلى ما في الزرع من بديع صنع الله الذي أتقن كل شيء، والذي يرى الإنسان فيه الجمال المبهج للأنفس، والذي يسر الناظر بينعه، كما قال تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (الأنعام: ٩٩).

وقد ذكر علماء النبات المختصون والمتتبعون له ولفصائله وأنواعه وألوانه في شتى بقاع الأرض: أن هناك نحو مائتين وخمسين ألفا من أنواع النبات وألوانه! ولا يسعنا إلا أن نقول: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ ﴾ (يس: ٣٦).

هذه الثروة النباتية التي توفر للإنسان الثمر الطيب، والظل الظليل، والمنظر الجميل، ومنافع كثيرة بدأنا ندركها اليوم، إنما هي نعم من الله تبارك وتعالى يجب أن تقابل بالشكر للمنعم جل شأنه، ومن شكره سبحانه عليها أن ننميها ونحافظ عليها، ونقوم بحسن رعايتها، حتى تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، وألا نهملها فتضيع وتهلك وتذوي، ولا نقطعها لغير حاجة أو مصلحة معتبرة، بل نزيد مساحتها بالغرس والزرع ما استطعنا، وألا نسرف في استهلاكها بغير حساب، وأن نعاملها بالإحسان والرفق، كما سنبين ذلك بعد. فإن لم نفعل ذلك، فقد كفرنا نعمة الله تعالى، ومن كفر نعمة الله فإن الله شديد العقاب.

ومما ذكره القرآن عبرة لنا: قصة قوم أضاعوا ثروتهم النباتية الطيبة العظيمة، بسوء ما صنعوا، فقد مَنَّ الله تعالى عليهم بثروة زراعية هائلة، ولكنهم لم يقوموا بحق شكرها، والمحافظة عليها، فَسُلِبُوا هذه النعمة، جزاء وفاقا.

وهؤلاء هم قوم سبأ باليمن، الذين قص الله علينا قصتهم في سورة سميت باسمهم: سورة سبأ، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾﴾ (سبأ: ١٥ ـ ١٧)

لقد انهار سدهم العظيم الذي أقاموه، فانهارت حياتهم بسببه، وتفرقوا وتمزقوا «شر ممزق» كما قال القرآن، وضرب بهم المثل، فقيل: تفرقوا تفرق أيدي سبأ.

قاطع السدر في النار:

يؤكد هذا التوجه الحديث الشريف: «من قطع سِدْرة صوب الله رأسه في النار»[١].

قال أبو داود بعد أن روى هذا الحديث: يعني من قطع سدرة في فلاة، يستظل بها ابن السبيل والبهائم، عبثا وظلما، بغير حق يكون له فيها، صوَّب الله رأسه في النار[٢].

---

(١) رواه أبو داود في الأدب (٥٢٣٩)، عن عبد الله بن حبشي وذكره في صحيح الجامع الصغير (٦٤٧٦)، والمراد بالسدرة: شجرة السدر (النبق) التي يكثر وجودها في البراري.

(٢) انظر سنن أبي داود (٣/ ٤٠٤).

وفي هذا الوعيد الشديد توجيه إلى المحافظة على الأشجار، ومنها أشجار البَرِّ والغابات، لما فيها من نفع كبير للبيئة، فلا يجوز أن تقطع إلا بقدر وحساب، بحيث يغرس مكانها غيرها، مما يقوم بوظيفتها.

المحافظة على الثروة المائية:

ومن أهم الموارد التي تجب العناية بها، والمحافظة عليها: الماء، أصل الحياة للإنسان والحيوان والنبات، كما قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ (الأنبياء: ٣٠).

الماء ثروة غالية نفيسة، ولكن الناس لا يقدرونها حق قدرها، لأن الله تعالى هيأها للناس بالمجان، في الأنهار والبحيرات والأمطار، كما قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ﴾ (إبراهيم: ٣٢).

وقال تعالى: ﴿ وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴿٣١﴾ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴿٣٢﴾ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ ﴿٣٣﴾ ﴾ (النازعات: ٣٠-٣٣).

ومن فضل الله تعالى على عباده أن جعل الأشياء الضرورية للناس أرخص الأشياء، لأنه هيأها للناس بوفرة، مثل الماء والهواء والحرارة والضياء. وهذا ما جعل كثيرا من الناس للأسف لا يحسون بقيمة هذه النعم إلا إذا فقدوها أو حرموا منها ولو جزئيا أو نسبيا، فيدركون حينئذ قدرها وفائدتها. وبضدها تتميز الأشياء.

ولكن مما ينبغي أن يعلم أن الماء خاصة لا يقبل الزيادة والنماء، مثل الثروة النباتية، أو الثروة الحيوانية. كما أشار إلى ذلك القرآن بقوله ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الأَرْضِ﴾ (المؤمنون: ١٨).

وإذا كانت الكائنات الحية ـ وعلى رأسها الإنسان ـ لا تستطيع أن تعيش بغير

الماء، والماء محدود، فالواجب على البشر أن يحافظوا على هذا الكنز النفيس، ولا يسيئوا إليه، بتلويثه أو إفساده أو إضاعته في غير وجهه، أو الإسراف في استهلاكه لغير حاجة حقيقية أو مصلحة لها اعتبارها عند العقلاء من الناس.

ولقد نبه علماء البيئة والبيولوجيا وغيرهم على أن الماء من أهم مكونات البيئة، وأن الحاجة إليه عامة، وأن البشرية مقبلة على أزمة في المياه، توشك أن تكون من أسباب الحروب بين الناس بعضهم وبعض، وأن الماء في المستقبل سيكون أهم وأغلى من النفط، وربما ظهرت بوادر ومؤشرات لهذه الأزمة المخوفة نلحظها اليوم.

ونحن إذا أنعمنا النظر في تعاليم الإسلام وأحكامه نجد أنه عني عناية بالغة بالحفاظ على الثروة المائية، وتقدير نعمة الله فيها، وذلك من خلال عدة أحكام وتوجيهات ملزمة للمسلمين، بعضها تلزمهم أخلاقيا، وبعضها تلزمهم قانونيا. منها:

النهي عن تلويث الماء:

من هذه التوجيهات الإسلامية: النهي عن تلويث الماء بأي سبب من أسباب التلويث، مثل البول أو البراز فيه.

اقرأ معي هذه الأحاديث الشريفة:

«اتقوا الملاعن الثلاث: البراز في الموارد (موارد الماء) وقارعة الطريق والظل»[1].

«لا يبولن أحدكم في الماء الدائم، (أي الراكد) الذي لا يجري، ثم يغتسل منه»[2].

---

(١) رواه أبو داود وابن ماجه والحاكم والبيهقي عن معاذ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع الصغير (١١٢).

(٢) رواه البخاري في كتاب الوضوء ومسلم في الطهارة (٢٨١) عن أبي هريرة.

«لا يبولن أحدكم في الماء الدائم ثم يتوضأ منه»[1].

«لا يبولن أحدكم في الماء الدائم ولا يغتسل فيه من الجنابة»[2].

«لا يبولن أحدكم في مستحمه»[3].

والتلويث في عصرنا لم يعد مقصورا على البول والبراز ونحوها من الحاجات البشرية التي يفعلها الدهماء من الناس، بل غدت هناك أنواع أشد خطرا، وأبعد أثرا، وأوسع نطاقا، من هذا كله، وهي التلويث بمخلفات الصناعة، والمواد الكيماوية، ومنها مواد سامة وقاتلة، ومخلفات النفط والبواخر التي تغرق في البحار ويسيل ما فيها، فتلوث المياه، وآثار الحروب وما تتركه من المواد المشعة، التي تكون خطرا على الأسماك والأحياء المائية، وبالتالي تصبح خطرا على الإنسان نفسه حين يأكلها.

خطر الإسراف في الماء:

وهناك خطر آخر يتجسد في سوء استهلاك الماء، والإسراف في استخدامه، واعتباره مادة رخيصة الثمن، مع ماله من قيمة لا يعرفها إلا أولو الألباب من البشر.

ولقد روى ابن ماجه أن النبي صلى الله عليه وسلم مر بسعد بن أبي وقاص وهو يتوضأ فقال له: لا تسرف. فقال: أوَفي الماء إسراف؟! قال: نعم، وإن كنت على نهر جار[4].

ظن سعد بحكم نشأته ومقتضى ثقافته الموروثة: أن الإسراف إنما يكون

---

(١) رواه أحمد والترمذي والنسائي عن أبي هريرة، كما في صحيح الجامع الصغير (٧٥٩٤).

(٢) رواه أبو داود في الطهارة (باب البول في الماء الراكد) برقم (٧٠) وابن ماجه في الطهارة أيضا (٣٤٣) ولفظه «لا يبولن أحدكم في الماء الراكد» كلاهما عن أبي هريرة. ورواه أيضا أحمد وابن حبان والبيهقي كما في صحيح الجامع الصغير (٧٥٩٥).

(٣) رواه أحمد وأصحاب السنن وابن حبان والحاكم عن عبد الله بن مغفل، المصدر المذكور (٧٥٩٧).

(٤) رواه ابن ماجه عن سعد، وفي سنده ضعف، وسيأتي تخريجه.

في المال والنفقة فيه، أما أن يكون في الماء، فلم يكن يتصور ذلك، فقال ما قال مستغربا ومستعلما، فكان جواب الرسول معلما ومصححا: «نعم وإن كنت على نهر جار» ومعنى هذا: أن الاقتصاد يجب أن يكون خلقا للمسلم، لا تدفعه إليه حاجة ولا ضيق يد، بل يجب أن يتجنب الإسراف، ولو كان على نهر جار.

وروى أبو داود عن عبد الله بن مغفل قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: « إنه سيكون قوم من أمتي يعتدون في الطهور والدعاء»[1].

وقد روى أبو داود هذا الحديث في كتاب الطهارة في (باب الإسراف في الماء).

ومعنى الاعتداء في الطهور (أي الطهارة): تجاوز الحد المعقول في استعمال الماء، والخروج من الاعتدال إلى الإسراف المحظور.

ومن المعروف شرعا: أن استعمال الماء للشرب مقدم على استعماله للطهارة والوضوء. ومما يشير إلى ذلك ما رواه أبو هريرة أن رجلا سأل النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله؛ إنَّا نركب البحر، ونحمل معنا القليل من الماء، فإن توضأنا به عطشنا، أفنتوضأ بماء البحر؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «هو الطهور ماؤه الحل ميتته»[2].

يفيد سؤالهم أن إرواء العطش مقدم على الوضوء. وهو ما قرره الفقهاء في أن خوف العطش يبيح للمسلم أن يتيمم مع وجود الماء المحتاج إليه للشرب. كما أجاز ابن قدامة في (المقنع) التيمم لعطش يخافه على نفسه أو على رفيقه في السفر أو بهيمته.

---

(١) رواه أبو داود في الطهارة (٩٦) كما رواه أحمد وابن ماجه وابن حبان والحاكم كما في صحيح الجامع الصغير وزيادته (٢٣٩٦).

(٢) رواه أبو داود في الطهارة (٨٣) والترمذي (٦٩) قال: حسن صحيح، والنسائي وابن ماجه (٣٧٦) ومالك في الصلاة.

قال في (الشرح الكبير): وإن خاف على رفيقه أو بهائمه، فهو كما لو خاف على نفسه . . . فجاز له التيمم كالمريض.

وإن وجد عطشانا يخاف تلفه، لزمه سقيه ويتيمم. قيل لأحمد: رجل معه إداوة من ماء الوضوء، فيرى قوما عطاشا: أحب إليك أن يسقيهم أو يتوضأ؟ قال: لا، بل يسقيهم. ثم ذكر عدة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يتيممون، ويحبسون الماء لشفاههم.

وقال أبو بكر والقاضي (من الحنابلة): لا يلزمه ذلك، لأنه محتاج إليه.

ورده في الشرح الكبير قائلا: ولنا: أن حرمة الآدمي تقدم على الصلاة. بدليل ما لو رأى حريقا أو غريقا عند ضيق الصلاة، لزمه ترك الصلاة، والخروج لإنقاذه، فلأن يقدمها على الطهارة بالماء أولى. وقد روي في حديث البغيِّ أن الله غفر لها بسقي الكلب عند العطش، فإذا كان هذا قد حصل في سقي الكلب، فالآدمي أولى[1]. انتهى[2].

(١) المقنع مع الشرح الكبير والإنصاف (٢/ ١٧٦، ١٧٧) بتحقيق التركي والحلو.

(٢) انظر: مزيدا من عناية الإسلام بالثروة المائية في فصل (الإحسان بالبيئة): الإحسان بالماء.

٥ـ الحفاظ على صحة الإنسان

إذا كان مطلوبا منا أن نحافظ على موارد البيئة وثرواتها الحيوانية والزراعية والمائية، فأولى من ذلك كله: المحافظة على الثروة البشرية، أي على الإنسان، خليفة الله في الأرض.

إذ لا ريب أن من أنفس الموارد، وأثمن الثروات، وأغلاها قيمة: صحة الإنسان، فهو الغاية من المحافظة على الموارد، والمستفيد منها، وقد سخرها الله جميعا له. وهو كذلك الوسيلة لذلك في المحافظة عليها.

وقد يظن بعض الناس أن الدين لا يلقي بالا لصحة الإنسان، على اعتقاد أن الدين يوجه عنايته للروح لا للجسم، وللآخرة لا للدنيا، وهذا ـ إن صح في أديان أخرى ـ لا يصح في الإسلام بحال من الأحوال، لأنه دين يجمع بين الحسنتين: حسنة الدنيا وحسنة الآخرة.

ولقد عني القرآن، كما عنيت السنة النبوية، بصحة الإنسان، وعافية بدنه ونفسه، عناية فائقة. وقدمت نصوصها في ذلك معارف ومفاهيم، وقيما ومبادئ تعتبر ثروة نفيسة عند كل من يقدر الإنسان حق قدره.

ونحن هنا نحاول أن نذكر أهم هذه المبادئ أو المفاهيم التي جاء بها القرآن وفصلتها السنة فيما يتعلق بصحة الإنسان وسلامته من الأدواء، وقدرته على الإنجاز والعطاء، ومقاومته للأسقام والأوبئة التي تهدد الإنسان في عافيته. وقد اقتبسنا معظمها من كتابنا (السنة مصدرا للمعرفة والحضارة).

الصحة نعمة:

أول هذه المبادئ أو القيم أو المفاهيم التي اهتمت بها السنة المحمدية: اعتبار الصحة والعافية من أعظم نعم الله تعالى، التي يجب أن تقابل بالشكر، المستوجب للمزيد.

يقول تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ (إبراهيم: ٧).

وشكر هذه النعمة يتم بالمحافظة عليها، وفق سنن الله في الأسباب والمسببات، والاقتداء بالهدي النبوي في ذلك، فهو خير الهدي وأكمله.

يقول الإمام ابن القيم: ومن تأمل هدي النبي صلى الله عليه وسلم وجده أفضل هدي يمكن حفظ الصحة به، فإن حفظها موقوف على حسن تدبير المطعم والمشرب، والملبس والمسكن، والهواء والنوم، واليقظة والحركة، والسكون والمنكح، والاستفراغ والاحتباس، فإذا حصلت هذه على الوجه المعتدل الموافق الملائم للبدن والبلد والسن والعادة، كان أقرب إلى دوام الصحة أو غلبتها إلى انقضاء الأجل.

ولما كانت الصحة والعافية من أجَلِّ نعم الله على عبده، وأجزل عطاياه، وأوفر منحة، بل العافية المطلقة أجل النعم على الإطلاق، فحقيق لمن رزق حظا من التوفيق مراعاتها وحفظها وحمايتها عما يُضادها.

وقد روى البخاري في «صحيحه» من حديث ابن عباس، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «نعمتان مغبون فيها كثير من الناس: الصحة والفراغ»[1].

وفي الترمذي وغيره من حديث عبيد الله بن محصن الأنصاري، قال: قال

---

(١) رواه البخاري (١١/ ١٩٦) في الرقاق.

رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من أصبح معافى في جسده، آمنا في سربه، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا»[1].

وفي الترمذي أيضا من حديث أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «أول ما يسأل عنه العبد يوم القيامة من النعيم، أن يقال له: ألم نُصِح لك جسمك، ونروك من الماء البارد»[2].

ومن هاهنا قال من قال من السلف في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ (التكاثر: ٨) قال: عن الصحة.

وفي مسند أحمد وغيره عن أبي بكر الصديق: قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «سلوا الله اليقين والمعافاة، فما أوتي أحد بعد اليقين خيرا من العافية»[3]، فجمع بين عافيتي الدين والدنيا، ولا يتم صلاح العبد في الدارين إلا باليقين والعافية، فاليقين يدفع عنه عقوبات الآخرة، والعافية تدفع عنه أمراض الدنيا في قلبه وبدنه[4]. اهـ.

وروى النسائي من حديث أبي بكر أيضا: «سلوا الله العفو والعافية والمعافاة، فما أوتي أحد بعد يقين خيرا من معافاة»[5]. وهذه الثلاثة - كما قال ابن القيم - تتضمن إزالة الشرور الماضية بالعفو، والحاضرة بالعافية، والمستقبلة بالمعافاة، فإنها تتضمن المداومة والاستمرار على العافية.

---

(١) رواه الترمذي (٢٣٤٧) وابن ماجه (٤١٤١) كلاهما في الزهد، والبخاري في (الأدب المفرد) (٣٠٠) والحميدي في «مسنده» رقم (٤٣٩) وفي سنده مجهول، لكن له شاهد من حديث أبي الدرداء عند ابن حبان (٢٥٠٣) وآخر من حديث ابن عمر عند أبي الدنيا، فيتقوى بهما.

(٢) رواه الترمذي (٣٥٥٥) في التفسير: باب ومن سورة ألهاكم التكاثر، وإسناده صحيح، وصححه ابن حبان (٢٥٨٥).

(٣) رواه الحاكم في مسند أبي بكر (٥) و(٧) وقال شاكر: إسناده صحيح، وابن ماجه (٣٨٤٩) والبخاري في الأدب المفرد (٧٢٤) والحاكم وصححه (١/ ٥٨٩) ووافقه الذهبي.

(٤) زاد المعاد (٤/ ٢١٤-٢١٦) ط. الرسالة.

(٥) رواه النسائي في «عمل اليوم والليلة» (٨٨١، ٨٨٢) بتحقيق د. فاروق حماده.

المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف:

وكما يحب الإسلام من المسلم أن يكون جسمه سليما معافى من الأمراض، يحب له كذلك أن يكون جسمه قويا مرنا، قادرا على الحركة والنشاط، والقيام بأعبائه الدينية والدنيوية. فالمؤمن القوي خير وأحب إلى الله تعالى من المؤمن الضعيف.

والإسلام يحث المسلمين على كل ما يكسبهم القوة في أبدانهم. وإذا كان عصرنا قد نظم في ذلك ممارسات وتدريبات معيَّنة تساعد على تقوية الجسم، فينبغي على المسلم أن يأخذ منها ما يناسبه ويحتاج إليه، وهو مطلوب طلب استحباب، وقد يكون طلب إيجاب، إذا اشتدت الحاجة إلى ذلك، أو كان ذلك لازما للدفاع عن نفسه وأهله ودينه وأمته، فإن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

وقد رغَّب النبي صلى الله عليه وسلم في العمل والنشاط والحركة والبكور «اللهم بارك لأمتي في بكورها»[١]. وحذر من التباطؤ والتكاسل والترهل، وكان عليه الصلاة والسلام يستعيذ بالله من العجز والكسل[٢] وجعل من صفة المؤمن الملتزم أن يصبح طيب النفس نشيطا، وصفة غيره أن يصبح خبيث النفس كسلان[٣]!

ودعا الإسلام إلى رياضة الأجسام بالسباحة والرماية وركوب الخيل، وما شابهها من ألوان الفروسية، ورغب الآباء في تربية أولادهم على ممارستها، وشرع التنافس والمسابقات تشجيعا على ذلك، وإغراء به. وسبق النبي صلى

(١) رواه أحمد وأصحاب السنن وابن حبان في صحيحه عن صخر الغامدي، وابن ماجه عن ابن عمر، والطبراني عن عدد من الصحابة كما في صحيح الجامع الصغير (١٣٠٠).

(٢) متفق عليه من حديث أنس. اللؤلؤ والمرجان (١٧٣٢).

(٣) كما يتضح ذلك من حديث: «يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد.. الحديث رواه البخاري عن أبي هريرة. في كتاب التهجد (٣/ ٢٤).

الله عليه وسلم بين الخيل، وأعطى السابق، كما شرع المسابقة على الأقدام ونحوها.

تقرير حق الجسد على الإنسان:

ومن المبادئ المهمة التي جاء بها الإسلام في الحفاظ على صحة الإنسان: تقريره (حق الجسد) على الإنسان.

فلأول مرة في جو الدين والروحانيات، يسمع الناس هذا التوجيه المؤكد، الذي صدر من رسول الإسلام «إن لبدنك عليك حقا». فلم يكن أهل الأديان يعنون بشأن الجسد، كما ذكرنا، فهو هنا يقرر هذا المبدأ الكبير والأصيل: أن للجسد على صاحبه حقا. ومن حقه عليه أن ينظفه إذا اتسخ، وأن يقويه إذا ضعف، وأن يطعمه إذا جاع، وأن يسقيه إذا عطش، وأن يريحه إذا تعب، وأن يقيه من أذى الحر والبرد، وأن يداويه إذا آلمته الأمراض، إلى غير ذلك مما يعرفه الناس بالفطرة والممارسة.

ومن هنا لم يجز للإنسان في نظر الإسلام إرهاق البدن بالعمل وطول السهر والجوع - وإن كان ذلك في صورة عبادة الله تعالى - فقد أنكر النبي صلى الله عليه وسلم على رهط من أصحابه أراد أحدهم أن يقوم الليل فلا ينام، والثاني أن يصوم فلا يفطر، والثالث أن يعتزل النساء فلا يتزوج، وقال لهم: «أنا أعلمكم بالله وأخشاكم له، ولكني أقوم وأنام، وأصوم وأفطر، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني»[1].

وعن أنس: أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى شيخا يهادى بين ابنيه (أي يمشي بينهما معتمدا عليهما) قال: «ما بال هذا؟» قالوا: نذر أن يمشي (أي إلى الحج) قال: «إن الله عن تعذيب هذا لغني» وأمره أن يركب[2].

(١) رواه البخاري وغيره عن أنس.

(٢) متفق عليه. اللؤلؤ والمرجان (١٠٦٤).

ولم يصح عن النبي صلى الله عليه وسلم حديث في فضل الجوع مجردا، إلا ما كان من جوع الصيام، بل ثبت عنه الاستعاذة بالله منه: «اللهم إني أعوذ بك من الجوع، فإنه بئس الضجيع»[1].

تشريع الرخص والتخفيفات:

ومن عناية الإسلام بحق الجسم ما شرعته أحكامه من رخص في أداء الفرائض، إذا كان العمل بالعزائم يؤذي الجسم؛ كأن يسبب له مرضا، أو يزيد في مرض قائم، أو يؤخر الشفاء منه، أو يؤدي إلى مشقة زائدة، فهنالك يدع الوضوء إلى التيمم، والصلاة قائما إلى الصلاة قاعدا أو مضطجعا، وله الفطر في رمضان للسفر أو للمرض: ﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ (البقرة: ١٨٥) ورُخَصُ السفر والمرض معروفة. إلى غير ذلك من أنواع التخفيف إلى بدل أو إلى غير بدل، حتى أصبح مقررا عند عامة المسلمين: أن صحة الأبدان مقدمة على صحة الأديان. وفي الحديث: «إن الله يحب أن تؤتى رخصه، كما يكره أن تؤتى معصيته»[2].

وأحيانا يصبح العمل بالرخصة واجبا، كما إذا كان المرض شديدا، أو السفر مجهدا، والجسم ضعيفا، لشيخوخة أو نحو ذلك، فعلى مثل هذا يحرم الصوم، لما فيه من مشقة بالغة، كالذي رآه النبي صلى الله عليه وسلم في السفر، يظلل عليه رفقاؤه ويرشون عليه الماء من فرط ما به من جهد، فلما سأل عن ذلك قالوا: إنه صائم، فقال عليه الصلاة والسلام: « ليس من البر الصيام في السفر» متفق عليه. أي في هذا النوع من السفر الذي يشق على صاحبه إلى هذا الحد[3].

ومن ذلك: ما شرعه القرآن والسنة من أحكام الضرورات، التي تباح بها

---

(١) رواه أبو داود والنسائي وابن ماجه عن أبي هريرة، وحسنه في صحيح الجامع الصغير (١٢٨٣).

(٢) رواه أحمد وابن حبان والبيهقي في الشعب عن ابن عمر، كما في صحيح الجامع الصغير (١٨٨٦).

(٣) انظر كتابنا: تيسير الفقه، «فقه الصيام» متى يكون الفطر في السفر أفضل؟

المحظورات، فمن هذه المحظورات: المحافظة على الجسم وسلامته، حتى أبيح للمسلم أكل الميتة، والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (البقرة: ١٧٣).

العناية بالطب والتداوي:

والإسلام، كما عُني بالصحة، عني بالطب سواء كان طبا علاجيا أم وقائيا، وإن كانت عنايته بالوقائي أكثر لما هو معلوم: أن درهم وقاية خير من قنطار علاج.

ومن أهم أسباب الوقاية: ترك الإسراف، والاحتماء من التخمة، فقد قال تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ (الأعراف: ٣١).

وفي الحديث: «ما ملأ ابن آدم وعاء شرا من بطنه. بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه، فإن كان ولا محالة فاعلا، فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه»[١].

إقرار سنة الله في العدوى:

ومن أهم ما جاء به الإسلام هنا: أنه أقر سنة الله في العدوى وأمر بالاحتراز والوقاية والعزل الصحي من الأوبئة العامة كالطاعون ونحوه، بل وسع دائرة الوقاية حتى شملت الحيوان الأعجم.

وقال: «لا يوردن ممرض على مصح»[٢] والممرض: الذي إبله مراض، والمصح: الذي إبله صحاح. ومعنى: لا يورد عليه: لا يخلط المريضة الجرباء بالصحيحة في أثناء ورود الماء.

---

(١) رواه أحمد (٤/ ١٣٢) والترمذي (١٣٨١) وابن ماجه (٣٣٤٩) كلهم عن أبي هريرة.

(٢) متفق عليه عن أبي هريرة، اللؤلؤ والمرجان (١٤٣٦).

وفي مسلم: أنه كان في وفد ثقيف رجل مجذوم، فأرسل إليه النبي صلى الله عليه وسلم: «ارجع فقد بايعناك»[1].

وعند ابن ماجه: «لا تديموا النظر إلى المجذومين»[2].

وقال في شأن الطاعون ـ وهو وباء عام ـ: «إذا سمعتم به بأرض فلا تدخلوا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها فرارا منه»[3].

وهذا حصر للوباء في أضيق نطاق. أما حديث «لا عدوى» فهو صحيح رواه البخاري، ولكن معناه: أن الأمراض لا تعدي بطبعها وذاتها، كما يعتقد أهل الجاهلية، بل بتقدير الله تعالى، وبناء على سننه الكونية.

احترام الطب القائم على العلم والتجربة:

قاوم الإسلام طب الكهنة والسحرة، الذي قد يسمى «بالطب الروحاني» واحترم الطب القائم على الملاحظة والتجربة والأسباب والمسببات، وأبطل ما أشاعته الوثنية الجاهلية عند العرب وغيرهم حتى أهل الكتاب، من اطراح الأسباب الظاهرة والسنن الكونية، والاعتماد على الأسباب الخفية، والرقى المجهولة: من عزائم ورقى غير مفهومة، وتمائم معلقة، وشعوذة يروجها السحرة والدجالون، ولم يُبْق من الأدوية الروحانية إلا ما فيه ذكر الله تعالى، والاستعاذة به، واللجوء إليه في صورة رقى أو تعوذات أو نحو ذلك من الأدعية والأذكار. إذ لا يجحد عاقل منصف ما لهذه الأدوية الإيمانية من أثر ملموس، في تقوية روح المريض، وتنشيط كيانه الداخلي، فيقوى أمله في الشفاء ورجاؤه في العافية، ويقينه برحمة الله، فلا يقنط من رحمة ربه إلا الضالون.

لقد كان النبي صلى الله عليه وسلم بقوله وعمله وتقريره أسوة حسنة في

(١) رواه مسلم في (السلام) برقم (٢٢٣١).

(٢) رواه ابن ماجه عن ابن عباس (٣٥٤٣) وفي الزوائد للبوصيري: رجال إسناده ثقات.

(٣) متفق عليه عن عبد الرحمن بن عوف، وأسامة بن زيد.

الهداية إلى الطب الصحيح، القائم على العلم والتجربة، لا على التهويل والادعاء.

فهو صلى الله عليه وسلم تداوى لنفسه وأمر بالتداوي، لأن الذي خلق الداء خلق الدواء.

وأرسل طبيبا إلى أبي بن كعب، فقطع له عرقا وكواه عليه[1]، أي أنه أجرى له عملية جراحية.

وعن سعد بن أبي وقاص قال: مرضت مرضا أتاني رسول الله صلى الله عليه وسلم يعودني، فوضع يده بين ثديي، حتى وجدت بردها على فؤادي، فقال: إنك رجل مفئود (أي مصاب في فؤادك، يعني صدرك) ائت الحارث ابن كلدة، أخا ثقيف، فإنه رجل يتطبب[2].

ولم يثبت أن الحارث بن كلدة أسلم، ولهذا استدل العلماء بهذا الحديث على جواز الاستعانة بأهل الكفر في الطب[3] إذا كانوا مأمونين على المسلمين.

وأصيب أحد الصحابة بجرح فاحتقن الدم، فدعا النبي صلى الله عليه وسلم رجلين من بني أنمار، فنظرا إليه فسألهما رسول الله: «أيكما أطب؟» (أي: أحذق وأمهر؟) فقال الرجل: أوَ في الطب خير يا رسول الله؟ فقال: «أنزل الله الدواء الذي أنزل الداء»[4].

قال ابن القيم: في هذا الحديث: إنه ينبغي الاستعانة في كل علم وصناعة بأحذق من فيها، فإنه إلى الإصابة أقرب[5].

---

(١) رواه مسلم في (السلام) عن جابر (٢٢٠٧).

(٢) رواه أبو داود في الطب عن سعد (٣٨٧٥).

(٣) التراتيب الإدارية للكتاني (١/ ٤٥٧).

(٤) رواه مالك في الموطأ، كتاب العين، باب تعالج المريض، ص٩٤٤، ط، عيسى الحلبي.

(٥) زاد المعاد (٤/ ١٣٢) ط. الرسالة.

وجاء عنه صلى الله عليه وسلم: «من تطبب ولم يعلم عن الطب فهو ضامن»[1].

وبهذا طارد الأدعياء الذين يتزيون بهيئة أهل الطب وليسوا من أهله، وحملهم مسئولية أخطائهم في التشخيص والعلاج، واحترم أهل الاختصاص والخبرة، فلكل علم رجاله، ولكل صناعة أهلها، ولا ينبئك مثل خبير.

كما طارد الكهان والدجالين الذين يعالجون الناس بتعليق التمائم، أو الرقى الجاهلية، التي لا تشتمل على ذكر الله تعالى وأسمائه الحسنى، وما كان من هذا القبيل الذي اعتبره من تفريخ الشرك ونتاج الجاهلية.

فتح باب الأمل أمام الأطباء والمرضى:

فتح الإسلام باب الأمل على مصراعيه أمام الأطباء والمرضى معا، في الشفاء من كل مرض، مهما طال واتصل، وقضى على اليأس المحطم، وعلى ما يسمى بالأمراض المستعصية. روى البخاري عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

«ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء»[2].

وروى مسلم وأحمد عن جابر: «لكل داء دواء، فإذا أصاب دواء الداء برئ بإذن الله تعالى»[3].

وروى أحمد عن أسامة بن شريك: «إن الله لم ينزل داء إلا أنزل له شفاء، علمه من علمه، وجهله من جهله»[4].

---

(١) رواه أبو داود (٤٥٨٦)، والنسائي (٨/ ٤١) وابن ماجه (٣٤٦٦) والحاكم: كلهم عن عبد الله بن عمر، وقال الحاكم: صحيح، ووافقه الذهبي (انظر: فيض القدير ج٦/ ١٠٦).

(٢) رواه البخاري في الطب (١٠/ ١٣٤).

(٣) انظر: صحيح الجامع الصغير (٥١٦٤).

(٤) رواه أحمد في المسند (٤/ ٢٧٨) وهو فيه أيضا عن ابن مسعود.

قال الشوكاني: فيه دليل على أنه لا بأس بالتداوي لمن كان به داء قد اعترف الأطباء بأنه لا دواء له، وأقروا بالعجز عنه[1].

وقال ابن القيم في «زاد المعاد»: في قوله صلى الله عليه وسلم: «لكل داء دواء» تقوية لنفس المريض والطبيب، وحث على طلب ذلك الدواء والتفتيش عليه، فإن المريض إذا شعرت نفسه أن لدائه دواء يزيد تعلق قلبه بروح الرجاء، وبرد من حرارة اليأس، وانفتح له الرجاء، ومتى قويت نفسه انبعثت حرارته الغريزية، وكان ذلك سببا لقوة الأرواح الحيوية والنفسانية والطبيعية، ومتى قويت هذه الأرواح قويت القوى التي هي حاملة لها، فقهرت المرض ودفعته، وكذلك الطبيب إذا علم أن لهذا دواء أمكنه طلبه والتفتيش عليه، وأمراض الأبدان على وزان أمراض القلوب، وما جعل الله للقلب مرضا إلا جعل له شفاء بضده، فإن علمه صاحب الداء واستعمله، وصادف داء قلبه، أبرأه بإذن الله تعالى[2].

الاهتمام بالصحة النفسية:

عني الإسلام بالصحة النفسية عناية فائقة: فأنت بالنفس لا بالجسم إنسان - ولا ريب أن بين الناحية النفسية والناحية الجسمية تبادلا في التأثير، فكلاهما يؤثر في الآخرة قوة وضعفا، وصحة وسقما، واعتدالا وانحرافا، وقد أثبت ذلك علماء النفس وأطباء الجسم من قديم.

وقد رأينا في السيرة النبوية مدى قوة الروح وأثرها في قوة البدن حين كانوا يبنون المسجد، والصحابة يحملون لبنة لبنة، وعمار بن ياسر يحمل لبنتين لبنتين، فرآه النبي صلى الله عليه وسلم فجعل ينفض التراب عن

(١) انظر: نيل الأوطار ج٩ ص٩٠, ٩١ ط. دار الجيل، بيروت.

(٢) زاد المعاد (٤/ ١٧) طبعة الرسالة.

رأسه، ويقول: «يا عمار، ألا تحمل ما يحمل أصحابك؟» قال: إني أريد الأجر من الله[1]، وقال: «إن عمارا ملئ إيمانا من قرنه إلى قدمه»[2].

وأشار إليها مرة أخرى حين نهاهم عن الوصال في الصيام، فقالوا له: تنهانا عن الوصال، وتواصل؟ قال: «وأيكم مثلي؟ إني أبيت يطعمني ربي ويسقيني»[3].

ومن مثله في قوة الروح حتى يتحمل ما يحتمله عليه السلام؟

والمؤمن أقوى الناس روحا، وأصحهم نفسا، فقد ملأ الإيمان ما بين جوانحه أمنا وطمأنينة ورضا وأملا وحبا، وطهر نفسه من أدران الحقد والغل والحسد والبغضاء وأمراض القلوب الفتاكة.

هذه هي المبادئ الخالدة التي أرسى الإسلام قواعدها، وحرص النبي صلى الله عليه وسلم على تثبيتها، وهي جديرة - إذا روعيت وطبقت - أن تنشئ أجيالا من الأصحاء الأقوياء الذين لا ينتصر الدين ولا ترقى الدنيا إلا بهم.

الحفاظ على عقل الإنسان وتنميته:

ويعمل الإسلام كذلك على حماية عقل الإنسان، باعتباره المميز له عن الحيوان الأعجم، والمخاطب من الله تعالى بالتكاليف، وقد اعتبر الأصوليون (المحافظة على العقل) من الضروريات الخمس ا لتي جاءت الشريعة بحفظها. ولهذا حرم الله تعالى الخمر على الإنسان، لأنها تذهب بعقله، كما تضر بجسده وعقله وبأخلاقه وبماله وبأسرته وبمجتمعه.

---

(١) رواه أحمد في مسند ابن عباس والبخاري في الصلاة، والجهاد، ومسلم في الفتن، وهو بهذا اللفظ في صحيح ابن حبان (١٥: ٧٠٧٩).

(٢) رواه أبو نعيم في الحلية (١/ ١٣٣) بهذا اللفظ، وابن حبان بلفظ: «إلى مشاشة» الحديث ٧٠٧٦ والمشاش: رءوس العظام اللينة.

(٣) رواه الشيخان في الصيام عن ابن عمر، وأبي هريرة، وأنس، وعائشة، وانظر: اللؤلؤ والمرجان (الأحاديث: ٦٧٠-٦٧٤).

ولم يكتف الإسلام بجانب النهي - الذي يركز عليه الأصوليون في بيان المحافظة على العقل - بل شرع من الأحكام، وأرسى من التوجيهات، ما ينهض بالعقل، ويرقى به، من ذلك فرضه لطلب العلم على كل مسلم ومسلمة، ومقاومته للتقليد والجمود على ما كان عليه الأجداد والآباء، أو ما كان عليه السادة والكبراء. كما رفض الظن في موضع طلب اليقين، وأنكر اتباع الهوى والعواطف في طلب الحقيقة، ودعا إلى النظر والتفكر في ملكوت السماوات والأرض وما خلق الله من شيء، كما اعتمد وجوب البرهان في العقليات، والمشاهدة في الحسيات، والتوثيق في النقليات.. وهذا كله مما يدلنا على احتفاء القرآن بضرورة (تكوين العقلية العلمية)[1] التي ترفض الخرافات، ولا تقبل دعوى إلا بدليل.

وبهذا ننشئ الإنسان الذي يتعبد لله بالنظر والتفكر، كما يتعبد له بالصلاة والصيام، وهو ما جعل كاتبا كبيرا مثل عباس العقاد يؤلف كتابا عنوانه: (التفكير فريضة إسلامية) وصدق، فإن الله كما أمرنا بالعبادات، أمرنا بالتفكر ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾ (سبأ: ٤٦).

والعلم الذي فرضه الإسلام على المسلم منه ما هو فرض عين، ومنه ما هو فرض كفاية.

ففرض العين هو: ما لا بد منه للمسلم في تحرير عقيدته، وتصحيح عبادته، وضبط سلوكه وفق أمر الله ونهيه، وتحري الحلال واجتناب الحرام، وإعطاء كل ذي حق حقه.

وأرى أن محو الأمية في عصرنا فريضة على أبناء الأمة، حتى تستطيع أن تتبوأ مكانتها بين الأمم، إذ لا يمكنها ذلك إذا تفشت الأمية بين أفرادها، فلا يمكنها أن تنافس الأمم التي تَعَلّم أبناؤها وتثقفوا.

(١) انظر: فصل (تكوين العقلية العلمية) في كتابنا (العقل والعلم في القرآن) نشر مكتبة وهبة.

وفرض الكفاية: هو ما يجب على الأمة بالتضامن فيما بينها، وذلك بأن يكون لديها من العلماء والخبراء في كل تخصص في علوم الدين أو علوم الدنيا ـ مما تحتاج إليه الأمة ـ ما يسد الثغرة، ويلبي الحاجة، ويحقق للأمة الاكتفاء الذاتي، والاستغناء عن غيرها. فلا يجوز للأمة الوسط التي جعلها الله شهيدة على البشرية: أن تكون عالة على غيرها في العلوم المدنية والعسكرية، فإذا قام بهذا الفرض عدد كاف من أبنائها برئت الأمة من الإثم والحرج، وإلا أثمت الأمة كلها، وبخاصة أولو الأمر فيها.

العناية بالطفولة:

وإذا كان الإسلام يعنى بالإنسان، وبصحته، وبكيانه كله: النفسي والعقلي البدني، فإنه يوجه عناية أكبر إلى الإنسان الطفل، لأمرين مهمين:

١ ـ أنه مخلوق ضعيف في حاجة إلى مزيد من الرعاية، والإسلام يهتم عادة برعاية الضعفاء.

٢ ـ أن طفل اليوم هو رجل المستقبل، فهو يمثل غد الأمة، فإذا أحسنا رعايته وتربيته وتوجيهه، تفاءلنا خيرا بمستقبل المجتمع، وإذا أضعناه فقد أضعنا المستقبل.

ولا يتسع المقام هنا للحديث عن موقف الإسلام من الطفولة، التي يرعاها الإسلام منذ الولادة، بل منذ يبدأ الإنسان التفكير في الزواج.

وفصلت الشريعة أحكام الرضاع والحضانة وحسن التنشئة والملاعبة وتعليم الصلاة والتأديب المناسب، مالا يخفى على مسلم حريص على دينه، وما يمكن تعلمه بسهولة من أهله.

وأعطى الإسلام عناية أبلغ وأوفى للأطفال الذين لا عائل لهم، مثل (اليتامى) الذي إذا أهملوا أو قسا المجتمع عليهم، قد يصبحون في الغد

جرثومة فساد فيه، وإذا رعيت حقوقهم، ولم تقهر شخصيتهم، أوشكوا أن يكونوا أعضاء صالحين في جسم المجتمع.

ولهذا قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ﴾ (الضحى: ٩) ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ۝ فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ۝﴾ (الماعون: ١، ٢).

وجعل لهؤلاء اليتامى حظا في أموال الغنائم والفيء، مع المساكين وابن السبيل.

كما لم تنس الشريعة الإسلامية الأطفال الذين لم يعرف لهم آباء ولا أمهات، فهؤلاء لا ذنب لهم، فمن الواجب القيام برعايتهم وحسن تربيتهم. ولا غرو أن في كل كتب الفقه الإسلامي بابًا لـ (اللقيط) يفصل أحكامه وماله من حقوق على المجتمع.

٦ـ الإحسان بالبيئة

الإسلام يربي المسلم على التعامل مع كل ما حوله بإحسان، كما جاء في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم عن شداد بن أوس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن الله كتب الإحسان على كل شيء».

ومعنى: أنه كتبه أي فرضه فرضية موثقة، كما قال تعالى: ﴿كُتب عليْكُمُ الصّيَامُ﴾ (البقرة: ١٨٣) ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ﴾ (البقرة: ١٧٨) وقال تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ (الأنعام: ٥٤) فإذا أدينا ما كتبه الله علينا، أدى الله ما كتبه على نفسه، فغمرنا برحمته وبركته.

والإحسان كلمة قرآنية نبوية تتضمن معنيين:

الأول: معنى الإحكام والإتقان، كما في الحديث الذي ذكرناه، وكما في حديث جبريل الشهير الإحسان: أن تعبد الله كما تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك» وهو يفسر معنى الإحسان في العبادة.

والثاني: معنى الإشفاق والحنان والإكرام، كقوله تعالى: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ﴾ (النساء: ٣٦).

والمعنيان مطلوبان هنا في التعامل مع البيئة، فيجب أن تعاملها بإحكام وإتقان، لا بإهمال وغفلة وإضاعة.

كما يجب أن تعاملها برفق وإشفاق وحنان.

وفي الحديث الصحيح: «إن الله رفيق يحب الرفق في الأمر كله»[1]. «إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شانه»[2]. «إن الله رفيق يحب الرفق، وإن الله يعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف». [3] «من يحرم الرفق يحرم الخير»[4].

ويتمثل هذا الرفق مع كل عناصر البيئة، جامدة كانت أم حية، عاقلة أم غير عاقلة. فيشمل هذا الرفق الإنسان، والحيوان، والنبات، والجماد.

الإحسان بالإنسان:

فأما الإحسان بالإنسان فهو أمر مفروغ منه، ولا ريب فيه، رحمة له، وتلطفا به، سواء كان مسلما أم غير مسلم.

يقول الله تعالى لرسوله: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ (آل عمران: ١٥٩).

ويقول: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (التوبة: ١٢٨).

وقال تعالى في شأن غير المسلمين ﴿لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (الممتحنة: ٨) والقسط: هو العدل، والبر فوق العدل وهو الإحسان. القسط أن تعطيهم حقهم، والبر أن تزيد على ذلك.

ويتأكد الإحسان بالضعفاء من الناس: من اليتامى والمساكين وأبناء

---

(١) رواه البخاري (٦٩٢٧) ومسلم (٢٥٩٣) عن عائشة.

(٢) رواه مسلم عن عائشة أيضا (٢٥٩٤).

(٣) هو رواية لمسلم في الحديث السابق (٢٥٩٣).

(٤) رواه مسلم عن جرير بن عبد الله (٢٥٩٢) ورواه أبو داود وقال: «يحرم الخير كله».

السبيل، والأرامل، وكل ضعيف في المجتمع، سواء كان ضعفه من فقد الأب كاليتيم، أو فقد المال كالمسكين، أو فقد الوطن كابن السبيل، أو فقد الحرية كالرقيق، أو فقد الزوج كالأرملة.

عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله» وأحسبه قال: «كالقائم لا يفتر، والصائم لا يفطر»[1].

قال تعالى في آية الحقوق العشرة: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ (النساء: ٣٦).

وأمر الإسلام بالرحمة بخلق الله جميعا، كما قال عليه الصلاة والسلام: «الراحمون يرحمهم الرحمن. ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء»[2] «من لا يرحم الناس لا يرحمه الله»[3] «لا تنزع الرحمة إلا من شقي»[4].

وقال: «لن تؤمنوا حتى تراحموا. قالوا: كلنا رحيم يا رسول الله؟ قال: أما أنه ليس برحمة أحدكم صاحبه، ولكنها رحمة العامة»[5].

الإحسان بالحيوان:

ومن أروع ما جاء به الإسلام هنا، هو الإحسان والرفق بالحيوان، في عصر ما كان يعتبر أن لهذه الحيوانات قيمة أو حقا، وأن في الإحسان إليها أجرا.

لقد امتن الله تعالى على الإنسان بتسخير الحيوانات له، وبعضها أقوى منه

---

(١) متفق عليه، كما في اللؤلؤ والمرجان (١٨٧٨).

(٢) رواه أبو داود (٤٩٤١) والترمذي (١٩٢٥) وقال: حديث صحيح، كلاهما عن ابن عمرو.

(٣) رواه البخاري (٧٣٧٦) ومسلم (٢٣١٩) عن جرير بن عبد الله.

(٤) رواه أبو داود (٤٩٤٢) والترمذي وحسنه (١٩٢٤) عن أبي هريرة.

(٥) رواه الطبراني عن أبي موسى، وذكره المنذري في الترغيب وقال: رواته رواة الصحيح (المنتقى: ١٣٢٢) ونحوه قال الهيثمي (٨/ ٧٨).

وأكبر حجما، فالواجب عليه أن يرفق بها، ويشكر الله تعالى على إنعامه بها، ولا يقسو عليها ويعذبها بغير حق. يقول تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾﴾ (غافر: ٧٩ـ ٨١).

وقال سبحانه وتعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ (يس: ٧١ـ ٧٣).

وجاءت الأحاديث النبوية المستفيضة تُحرِّض على الرحمة بالحيوان، وترهب من القسوة عليه، أو إضاعته وإهماله، منذرة بوعيد شديد لمن اقترف شيئا من هذه الأعمال. كما تنبئ بجزيل المثوبة عند الله لمن أحسن إلى هذه المخلوقات العجماوات.

اقرأ معي هذه الأحاديث لترى كيف حفل هذا الدين بهذا الأمر، وهي مما انتقيناه من كتاب (الترغيب والترهيب) للحافظ المنذري.

عن معاوية بن قرَّة عن أبيه رضي الله عنه أن رجلا قال: يا رسول الله، إني لأرحم الشاة أن أذبحها، فقال: «إن رحمتها رحمك الله» رواه الحاكم وقال: صحيح الإسناد[1].

وقد تقدم حديث ابن عباس رضي الله عنهما، أن رجلا أضجع شاة، وهو يحد شفرته، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «أتريد أن تميتها موتتين؟ هلا أحددت شفرتك قبل أن تضجعها؟!» رواه الطبراني في «الكبير»، و«الأوسط» والحاكم واللفظ له، وقال: صحيح على شرط البخاري[2].

---

(١) ووافقه الذهبي (٤/ ٢٣١).

(٢) قال المنذري: رجال الطبراني رجال الصحيح، ونحوه قال الهيثمي (٤/ ٣٣).

وعن ابن عمرو رضي الله عنهما، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ما من إنسان يقتل عصفورا فما فوقها بغير حقها إلا يسأله الله عنها يوم القيامة» قيل: يا رسول الله وما حقها؟ قال: «حقها أن تذبحها فتأكلها ولا تقطع رأسها فترمي به» رواه النسائي، والحاكم وقال: صحيح الإسناد[1].

وعن ابن سيرين أن عمر رضي الله عنه رأى رجلا يسحب شاة برجلها ليذبحها، فقال له: ويلك قدها إلى الموت قودا جميلا، رواه عبد الرزاق موقوفا[2].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما، أنه مر بفتيان من قريش قد نصبوا طيرا - أو دجاجة - يترامونها، وقد جعلوا لصاحب الطير كل خاطئة من نبلهم، فلما رأوا ابن عمر تفرقوا، فقال ابن عمر: من فعل هذا؟ لعن الله من فعل هذا، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لعن من اتخذ شيئا فيه الروح غرضا. رواه البخاري، ومسلم[3].

«الغرض» - بفتح العين المعجمة والراء - : هو ما ينصبه الرماة، يقصدون إصابته، من قرطاس وغيره.

وعن أبي مسعود رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر، فانطلق لحاجته، فرأينا حُمَّرة معها فَرْخَان، فأخذنا فرخيها، فجاءت الحمرة فجعلت تعرش، فجاء النبي صلى الله عليه وسلم فقال: «من فجع هذه بولديها؟ ردوا ولديها إليها». ورأى قرية نمل قد حرقناها فقال: «من حرق هذه؟» قلنا: نحن، قال: «إنه لا ينبغي أن يعذب بالنار إلا رب النار». رواه أبو داود[4].

---

(١) ووافقه الذهبي (٤/ ٢٣٣) ورواه أحمد في المسند (٦٥٥١) وصححه الشيخ شاكر.

(٢) المصنف (٨٦٠٥).

(٣) البخاري (٥٥١٥)، ومسلم (١٩٥٨)، «اللؤلؤ والمرجان» (١٢٧٩).

(٤) رواه في كتاب الجهاد (٢٦٧٥) وهو من حديث عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود عن أبيه. وقد رجح البخاري وابن أبي حاتم سماعه منه. وصحح الترمذي حديثا عنه. والرواية فيه «تفرش» بدل «تعرض» والتفريش مأخوذ من فرش الجناح وبسطه، والتعريش أن يرتفع فوقهما ويظلل عليهما.

«قرية نمل»: هي موضع النمل مع النمل.

قال العلامة ابن رجب: وأكثر العلماء على كراهية التحريق بالنار حتى للهوام.

وقال إبراهيم النخعي: تحريق العقرب بالنار مثلة. ونهت أم الدرداء عن تحريق البرغوث بالنار. وقال أحمد: لا يشوى السمك بالنار، وهو حي.

وفي الصحيحين عن أنس: أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى أن تصبر البهائم[1]. (أي تحبس وتضرب بالنبل ونحوه حتى تموت).

وخرج الإمام أحمد وابن ماجه من حديث ابن عمر، قال: أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بحد الشفار، وأن توارى البهائم، وقال: «إذا ذبح أحدكم فليجهز»[2]. يعني: فليسرع الذبح[3].

ومن التوجيهات النبوية ألا يذبح ولد الناقة وهو صغير عند ولادته، فلا ينتفع بلحمه، ولا بلبن الناقة، لأنها يجف لبنها حزنا على ولدها، ثم فيه توليه الناقة على ولدها بفقدها إياه. والأولى أن يترك حتى يكبر، ويكون ابن مخاض (يكمل سنة ويدخل في الثانية) أو ابن لبون (يكمل سنتين ويدخل في الثالثة) وقد جاء ذلك في حديث رواه أبو داود[4].

وعن عبد الله بن جعفر رضي الله عنهما قال: أردفني رسول الله صلى الله عليه وسلم خلفه ذات يوم، فأسَرَّ إليّ حديثا، لا أحدث به أحدا من الناس، وكان أحبُّ ما استتر به النبي صلى الله عليه وسلم لحاجته هدفا، أو حائش نخل[5]، فدخل حائطا لرجل من الأنصار، فإذا فيه جمل، فلما رأى النبي

(١) رواه البخاري (٥٥١٣) ومسلم (١٩٥٦).

(٢) رواه أحمد (٢/ ١٠٨) وابن ماجه (٣١٧٢) وسند أحمد قوي.

(٣) جامع العلوم والحكم (١/ ٣٩٠، ٣٩١) بتحقيق شعيب الأرناؤوط. طبعة الرسالة - بيروت.

(٤) برقم (٦٨٤٢) المصدر السابق ص٣٩٣، ٣٩٤.

(٥) الهدف: ما انتصب دار نفع من بناء وغيره. والحائش: النخل الملتف المجتمع.

صلى الله عليه وسلم حَنَّ، وذرفت عيناه، فأتاه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فمسح ذِفْرَاه[1] فسكت فقال: «من رب هذا الجمل؟ لمن هذا الجمل؟» فجاء فتى من الأنصار فقال: لي يا رسول الله، فقال: «أفلا تتقي الله في هذه البهيمة التي ملكك الله إياها؛ فإنه شكا إلي أنك تجيعه، وتدئبه»[2]. رواه أحمد، وأبو داود[3]. ومعنى (تدئبه): أي تتعبه.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «دخلت امرأة النار في هرة ربطتها، فلم تطعمها، ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض».

وفي رواية: «عذبت امرأة في هرة سجنتها[4] حتى ماتت، لا هي أطعمتها وسقتها، إذ هي حبستها، ولا هي تركتها تأكل من خَشَاش الأرض» رواه البخاري[5]، وغيره.

ورواه أحمد من حديث جابر، فزاد في آخره: «فوجبت لها النار بذلك».

وعن سهل بن الحنظلية رضي الله عنه قال: مر الرسول صلى الله عليه وسلم ببعير قد لصق ظهره ببطنه، فقال: «اتقوا الله في هذه البهائم المعجمة، فاركبوها صالحة، وكلوها صالحة» رواه أبو داود، وابن خزيمة في «صحيحه» إلا أنه قال: «قد لحق ظهره»[6].

وعن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم

---

(١) ذفراه: مؤخرة رأسه، وهو الموضع الذي يعرق من قفاه.

(٢) تدئبه: تكده وتتعبه بالعمل المتواصل دون إعطائه حقه من الراحة.

(٣) رواه أحمد من مسند عبد الله بن جعفر (١٧٤٥) وقال شاكر: إسناده صحيح، وهو عند أبي داود (٢٥٤٩).

(٤) فكيف بمن يسجن ألوف المؤمنين؟!

(٥) البخاري (٣٤٨٢).

(٦) ورقمه عند أبي داود (٢٤٥٨)، ورواه أيضا أحمد (٤/ ١٨٠، ١٨١)، وابن حبان (٥٤٥) قال الشيخ شعيب: إسناده صحيح. وصححه النووي في «الرياض».

صلى صلاة الكسوف، فقال: «دنت مني النار حتى قلت: أي رب وأنا معهم، فإذا امرأة - حسبت أنه قال: تخدشها هرة - قال: ما شأن هذه؟ قالوا: حبستها حتى ماتت جوعا» رواه البخاري[1].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «بينا رجل يمشي، فاشتد عليه العطش فنزل بئرا فشرب منها، ثم خرج فإذا هو بكلب يلهث، يأكل الثرى من شدة العطش قال: لقد بلغ هذا الكلب مثل الذي بلغ بي، فملأ خفه، ثم أمسكه بفيه، ثم رقي، فسقى الكلب! فشكر الله له، فغفر له» قالوا: يا رسول الله! وإن لنا في البهائم أجرا؟ قال: «في كل كبد رطبة أجر»[2] كان هذا التوجه جديدا على الصحابة، فلم يكونوا يعلمون أو يظنون أن يثاب المرء في الإحسان إلى البهائم، فأفهمهم الرسول الكريم أنه في الإحسان إلى كل حي أجرا ومثوبة.

وروى أبو هريرة حديثا آخر: «بينما كلب يطيف بركية (بئر فيها ماء) كاد يقتله العطش، إذ رأته بغي من بغايا بني إسرائيل، فنزعت موقها (خفها) فسقته، فغفر لها به»[3].

فإذا كانت امرأة دخلت النار في هرة من أجل قسوتها، فهذه امرأة عاصية دخلت الجنة في كلب، من أجل رحمتها به، والراحمون يرحمهم الرحمن.

روت عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يصغي للهرة الإناء، فتشرب، ثم يتوضأ بفضلها[4].

وهذه المعاملة النبوية الكريمة للهرة كان لها أثرها الفعال في نفوس أزواجه وأصحابه رضي الله عنهم.

---

(١) البخاري (٢٣٦٤).

(٢) رواه البخاري (٢٤٦٦) ومسلم (٢٢٤٤) وانظر: اللؤلؤ والمرجان (١٤٤٧).

(٣) متفق عليه اللؤلؤ والمرجان (١٤٤٨).

(٤) رواه الطبراني في الأوسط، وأبو نعيم في الحلية وابن ماجه والطحاوي والدارقطني والبيهقي في السنن، كما في صحيح الجامع الصغير (٤٩٥٨).

روى أبو داود بسنده عن داود بن صالح بن دينار التمار عن أمه: أن مولاتها أرسلتها بهريسة إلى عائشة رضي الله عنها، فوجدتها تصلي، فأشارت إليَّ: أن ضعيها.. فجاءت هرة فأكلت منها. فلما انصرفت (أي عائشة من الصلاة) أكلت من حيث أكلت الهرة، فقالت: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إنها ليست بنجس؛ إنما هي من الطوافين عليكم وقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يتوضأ بفضلها»[1].

وروى عن كبشة بنت كعب بن مالك - وكانت تحت ابن أبي قتادة - أن أبا قتادة دخل، فسكبت له وضوءا (الماء الذي يتطهر به) فجاءت هرة فشربت منه، فأصغى لها الإناء حتى شربت، قالت كبشة: فرآني أنظر إليه، فقال: أتعجبين يا ابنة أخي؟ فقلت: نعم. فقال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إنها ليست بنجس؛ إنها من الطوافين عليكم والطوافات»[2].

قال الإمام الخطابي في (معالم السنن): قوله «إنها من الطوافين عليكم والطوافات» يتأول على وجهين:

أحدهما: أن يكون شبهها بخدم البيت، وبمن يطوف على أهله.. كقوله تعالى ﴿طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ (النور: ٥٨) وقال ابن عمر: إنما هي ربيطة من ربائط البيت.

والوجه الآخر: أن يكون شبهها بمن يطوف للحاجة والمسألة. يريد أن الأجر في مواساتها كالأجر في مواساة من يطوف للحاجة ويتعرض للمسألة[3]. انتهى.

---

(١) رواه أبو داود في الطهارة (باب سؤر الهرة) برقم (٧٦).

(٢) رواه أبو داود برقم (٧٥) والترمذي (٩٢) وقال: حسن صحيح، والنسائي (١/ ٦٣) وابن ماجه (٣٦٧) ومالك في الموطأ (الطهارة: ١٣) وأحمد (٣٠٣: ٥، ٣٠٩) والحاكم وصححه ووافقه الذهبي (١/ ١٥٩، ١٦٠) قال: وهو مما صححه مالك واحتج به في الموطأ. وصححه النووي في المجموع (١/ ١٧١).

(٣) انظر: معالم السنن مع مختصر المنذري وتهذيب ابن القيم (١/ ٧٨) حديث (٦٨).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسم مر على حمار قد وُسِمَ في وجهه فقال: «لعن الله الذي وسمه» رواه مسلم[1].

وفي رواية له: نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الضرب في الوجه، وعن الوَسْم في الوجه.

ورواه الطبراني بإسناد جيد مختصر: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لعن من يسم في الوجه[2].

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: مر حمار برسول الله صلى الله عليه وسلم قد كوي في وجهه يفور منخراه من دم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لعن الله من فعل هذا» ثم نهى عن الكي في الوجه والضرب في الوجه. رواه ابن حبان في «صحيحه»[3]، ورواه الترمذي مختصرا وصححه.

والأحاديث في النهي عن الكي في الوجه كثيرة.

وهنا نقرأ جملة من الأحاديث لها مغزاها وأثرها في هذا الجانب.

فعن أبي هريرة أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال:

« بينما رجل يسوق بقرة، إذ ركبها فضربها، فقالت: إنَّا لم نخلق لهذا، إنما خلقنا للحرث»[4].

ومعنى هذا: أن كل حيوان يجب أن يستخدم فيما خلق له، فما خلق للحرث أو للدر والنسل، لا ينبغي أن يستخدم للركوب، إلا لضرورة أو حاجة، كقلة دواب الركوب ونحوها.

---

(١) مسلم (٢١١٧).

(٢) في نسخة: «من يسم الوجه»، والوسم: الكي. لقد حرص الإسلام على صيانة وجه الحمار، فكيف بالإنسان؟!

(٣) ورقمه في «موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان» (٢٠٠٣) قال الشيخ شعيب: إسناده صحيح، الإحسان (٥٦٢٦).

(٤) متفق عليه عن أبي هريرة. اللؤلؤ والمرجان (١٥٤٤).

وعنه أيضا أنه قال:

«إياكم أن تتخذوا ظهور دوابكم منابر، فإن الله إنما سخرها لكم، لتبلغكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس، وجعل لكم الأرض، فعليها فاقضوا حاجتكم»[1].

واستثنى العلماء من ذلك إذا احتاج إلى الوقوف عليها لحاجة طارئة، لا تتم بغير الوقوف على ظهرها، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم حيث خطب على راحلته واقفا عليها. فدل ذلك - كما قال الخطابي - على أن الوقوف على ظهورها إذا كانت لأرب لا يدرك مع النزول إلى الأرض: مباح جائز. وأن النهي إنما يصرف إلى الوقوف عليها لا لمعنى يوجبه، لكن أن يستوطنه الإنسان ويتخذ - مقعدا، فيُتْعِب الدابة ويضربها من غير طائل[2].

وأعتقد أن عصرنا لم يعد يحوج الإنسان إلى اتخاذ ظهور الدواب منابر، وقد منحته التكنولوجيا الحديثة من الأدوات والأسباب ما يغنيه عن ذلك، إلا في البلاد المتخلفة التي لم تصل إليها الحضارة بعد.

وهذه التعاليم لم تكن مجرد كلام نظري أو حبر على ورق، بل تحولت إلى واقع عملي تجسد في حياة المسلمين، وفي حضارتهم المتوازنة.

وبهذا كان الخلفاء والأمراء يزجرون كل من قسا على الحيوان. جاء في العتبية: قال مالك: إن عمر بن الخطاب مر بحمار عليه لَبن، فوضع عنه طوبتين، فأتت سيدته (مالكته) لعمر فقالت: يا عمر، مالكَ ولحماري؟ ألك عليه سلطان؟ قال: فما يقعدني في هذا الموضع؟

وعقب ابن رشد على قول عمر فقال: المعنى في هذا بين، لأن المصطفى عليه السلام قال: «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته، فالإمام راع وهو مسئول عن رعيته».

---

(١) رواه أبو داود في الجهاد عن أبي هريرة (٢٥٦٧).
(٢) معالم السنن.

وقد قال عمر في مثل هذا : لو مات جمل بشاطئ الفرات ضياعا لخشيت أن يسألني الله عنه[١] ا . هـ .

وفي طبقات ابن سعد عن المسيب بن دارم قال : رأيت عمر بن الخطاب ضرب حَمَّالا وقال : « لِمَ تُحَمِّل بعيرك ما لا يطيق؟» .

وعلى سنة عمر الأول سار عمر الثاني ابن عبد العزيز .

ففي فضائل عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم : إن عمر كتب إلى صاحب السكك : أن لا يحملوا أحدا بلجام ثقيل ولا ينخس بمقرعة في أسفلها حديدة .

وكتب أيضا إلى حيان بمصر : بلغني أن بمصر إبلا نقَّالات يُحمل على البعير منها ألف رطل ، فإذا أتاك كتابي هذا فلا أعرفن أنه يحمل على البعير أكثر من ستمائة رطل[٢] .

وجاء الفقهاء ففصلوا ما يجب على مالك الدابة من النفقة والرعاية في كتاب النفقات من كتب الفقه ، كما فصلوا ما يجب على الإنسان نحو الكلاب والطير ونحوها ، تفصيلا لم يخطر ببال أحد من البشر في تلك الأعصار ، وهو تفصيل لم تدفع إليه المنفعة المادية أو المصلحة الاجتماعية فحسب ، كما هو الشأن في القوانين الوضعية ، بل الدافع إليه ـ فوق ذلك كله ـ دافع أخلاقي محض ، هو رفع الظلم والأذى والضرر عن كائن حي ذي كبد رطبة ، يحس ويشعر ويتألم وإن لم يكن له لسان يتكلم به ويشكو .

ومن هذا التفصيل نراهم يحددون متى يجوز ضرب الدابة؟ وأين تضرب؟ وبم تضرب؟ وكيف تضرب؟ فنراهم يقولون : تضرب الدابة على النفار ولا تضرب على العثار ، لأن العثار لا يد لها فيه بخلاف النفار والحرونة .

---

(١) التراتيب الإدارية ج١ ص٢٦٨ .

(٢) التراتيب الإدارية ج٢ ص١٥٢ وسيرة ابن عبد الحكم .

ويقولون: لا تُضرب في الوجه، ولا تضرب بحديدة أو بمقرعة في أسفلها حديدة، كما نقلنا ذلك عن عمر بن عبد العزيز.

وقد تصدى لذلك العلامة المغربي المالكي، الشيخ أبو علي بن رحال فقال: «وما ذكر من حبس الطير إنما هو إذا لم يكن فيه تعذيب أو تجويع أو تعطيش، ولو بمظنة الغفلة عنه، أو بحبسه مع طير آخر ينقب رأسه، كما تفعله الديوك في الأقفاص ينقب بعضها رأس بعض، حتى إن الديك يقتل آخر، وهذا كله حرام بإجماع، لأن تعذيب الحيوان لا يختلف في تحريمه، والفائدة يتأتى وجودها بلا تعذيب، وهذا إن كان يحبسه وحده أو مع من لا ينقبه، أو يعمل بينهما حائلا بحيث لا يصل بعضه إلى بعض، ويتفقده بالأكل والشرب، كما يتفقد أولاده، ويضع للطير ما يركب عليه كخشبة، وأما أن يضعه على الأرض بلا شيء، فذلك يضر به غاية الضرر في البرد، وهذه الأمور لا تحتاج إلى جلب نص فيها لوضوحها، وكم رأينا من يعذب الدجاج في الأقفاص على وجوه مختلفة من أنواع العذاب، وكذا حبس الكبش بلا أكل ولا شرب، أو بغل يربطه في موضع، ويغلق عليه حتى يكاد يموت جوعا، ومن لا رحمة فيه، لا يعتبر في الدفع عن الدواب إلا ما يقتلها أو يضعف بدنها، وأما عذابها في نفسها إذا سلمت مما ذكر فلا يبالي به، وذلك كله حرام وعقوبته في الدنيا والآخرة إن لم يعف الله».

ثم قال: «وكثير من الناس يسمع مثلا أن الطير يجوز حبسه وأن العصفور يجوز أن يلعب به»، ويستدل بحديث: «يا أبا عمير ما فعل النغير»؟ ويعتمد على ذلك بلا شرط عدم تعذيبه وهذه مسألة عظيمة الأجر والعقاب وكذا تحميل الدواب أكثر مما تقدر عليه بحسب العادة وغير ذلك، وذلك كله من نزع الرحمة من القلوب ولكن: «إنما يرحم الله من عباده الرحماء»[1].

وليست مراعاة هذه الأحكام الخاصة برعاية الحيوان والإحسان إليه،

---

(١) التراتيب الإدارية ج٢ ص ١٥١، ١٥٢.

موكولة إلى ضمائر الأفراد فقط، فمن فرط فيها أو تهاون بها لم يكن للقضاء ولا للدولة عليه من سلطان.

كلا، فقد رأينا العمرين - ابن الخطاب وابن عبد العزيز - يلزمان الرعية بالرفق إلزاما، وإنما لم يفعل ذلك النبي صلى الله عليه وسلم، لأن الناس في عهده كانت تكفيهم الموعظة لتغيير سلوكهم، دون حاجة إلى إلزام قضائي أو تدخل حكومي.

أما بعد ذلك فمن حق السلطان والقاضي والمحتسب أن يتدخلوا لإزالة الظلم عن هذه المخلوقات المظلومة، ومن واجب أي مسلم شاهد هذا الظلم أو القسوة أن ينهى عنه، ومن حقه أن يرفعه إلى أولي الأمر ليعملوا على رفعه.

قال العلامة الماوردي في «الأحكام السلطانية» : «إذا كان من أرباب المواشي من يستعملها فيما لا تطيق الدوام عليه أنكره المحتسب عليه ومنعه منه» ا. هـ.

ولما قال ابن رشد : «يُقْضَى للعبد على سيده إن قصر عما يجب له عليه بالمعروف في مطعمه وملبسه، خلاف ما يملكه من الدواب، فإنه يؤمر بتقوى الله في إجاعتها، ولا يقضى عليه بعلفها» رده مستعظما له، الشيخ أبو علي بن رحال في باب النفقات من شرح المختصر - يعني متن خليل - بنص ابن عبد البر في «الكافي» ، والرفق بالدواب في ركوبها والحمل عليها واجب سنة فإنها عجم لا تشكو و «في كل ذي كبد رطبة أجر»، هذا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإذا كان في الإحسان إليها أجر فكذلك في الإساءة إليها وزر، ولا يحمل على الدواب أكثر من طاقتها ولا تضرب على وجوهها ولا تتخذ ظهورها كراسي ولا تقلد الأجراس ولا تستعمل ليلا إلا أن يروح عنها نهارا، ولا يحل حبس بهيمة مربوطة عن السرح والانتشار بغير علف ولا طعام، قال ابن رحال : فإن قول ابن رشد : الدابة لا يقضى . . إلخ، يلزم ابن رشد، أن الدابة إذا حمّلها مالكها ما لا تطيقه من الحمل أوالشغل يعذبها عذابا شديدا بلا

فائدة، أنه لا يقضى على المالك بترك ذلك، وأنه يترك هو وإياها، ويؤمر بتقوى الله فيها فقط، وذلك لا يحل أصلا مع مخالفة ذلك لكلام الناس وحديث: «في كل ذي كبد رطبة أجر»، رأيت أبا عمر قال: يلزم عليه أن الإساءة فيها وزر، والوزر منكر، والمنكر يجب تغييره - كما أشار إليه ابن عرفة - ولو كان الناس يزجرون بقول الإمام لهم: اتقوا الله في كذا ما شرعت الزواجر والقتل والسجون والتعزيرات[1].

وبهذه النقول النيرة، يتبين لنا روعة هذه الأحكام الخاصة بالرفق بالحيوان، وسبقها بقرون طويلة كل ما عرفه الناس عن ذلك في العصر الحديث وفاقته بمراحل ومراحل[2].

الإحسان بالنبات:

ومن مجالات الإحسان بالبيئة وعناصرها الحية: الإحسان بنباتاتها وأشجارها، وذلك بحكم أن الإنسان مستخلف من الله في هذه الأرض، وأمانة الخلافة تقتضي أن يحافظ المستخلف على كل ما ائتمن عليه، وعهد إليه رعايته. وإنما يتم ذلك برعاية حاجته، وإصلاح أمره، وعدم إفساده وإتلافه، أو تعريضه للتلف بوسيلة وأخرى، وحتى لا يحقق سوء ظن الملائكة بالإنسان حين عرض ربنا تبارك وتعالى عليهم قضية خلق آدم وذريته، وقال لهم: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٣٠).

ومما يناسب هذا الجواب الإلهي للملائكة أن يقوم الإنسان بحق خلافته، ويستخدم مواهبه وملكاته وما علمه الله من أسماء، في إصلاح الأرض وعمارتها.

---

(١) التراتيب الإدارية ج٢ ص١٥٣، ١٥٤.

(٢) انظر: كتابنا (مدخل لدراسة الشريعة الإسلامية) فصل (الأخلاقية) من خصائص الشريعة.

ولعل أبرز النصوص في ذلك ما جاء في المحافظة على نباتات الحرم، بحيث لا يقطع بأي وسيلة من الوسائل، بله أن يتلف أو يحرق. ولم يستثن من ذلك إلا (الإذخر) لحاجة الناس إليه.

ومن عجيب ما يذكر هنا: اهتمام المسلمين ببعض أنواع النبات أكثر من غيره مثل (النخلة) التي تكرر ذكرها والحديث عنها في القرآن، والتي شبهها النبي صلى الله عليه وسلم بالمؤمن أو شبه المؤمن بها، وقال: «إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها، وهي مثل المؤمن».

وقد أكد المسلمون اهتمامهم هذا برواية حديث حول النخلة ضعفه بعض العلماء، ورماه بعضهم[1] بالوضع والكذب، وهو الحديث الذي يقول: «أكرموا عمتكم النخلة، فإنها خلقت من طينة أبيكم آدم. وليس من الشجر شجرة أكرم على الله من شجرة ولدت تحتها مريم ابنة عمران»[2].

ولا أذكر هذا الحديث هنا للاستدلال به، فهو أوهى من أن يستدل به، ولكن للدلالة على تقبل العقلية الإسلامية لفكرة إكرام النخل، حتى اخترعوا لها نسبا بالإنسان، وزعم بعضهم أنه نسب حقيقي، وقال غيره: إنها عمتكم بخيرها.

ونقل العلامة المناوي في (فيض القدير) عن ولي الدين العراقي قوله: المراد بإكرامها: سقيها، وتلقيحها والقيام عليها، وتعهدها[3].

وقد مر النبي صلى الله عليه وسلم بالأنصار، وهم يلقحون نخيلهم، فسألهم ماذا يفعلون، فأخبروه، فلم ير ضرورة لهذا الأمر، وظنه الأنصار أمرا

---

(١) منهم ابن الجوزي في كتابه (الموضوعات) ولم يتعقبه السيوطي، وإن أورده في (الجامع الصغير) حديث (١٤٣٢)، والألباني في ضعيف الجامع الصغير قال: موضوع. حديث (١٢٣٤).

(٢) ذكره في الجامع الصغير ونسبه إلى أبي يعلى وابن أبي حاتم وابن عدي وابن السني وأبي نعيم وابن مردويه عن علي رضي الله عنه. ورمز له بعلامة الضعف. وانظر: كلام المناوي عليه في فيض القدير (٢/ ٩٥).

(٣) فيض القدير للمناوي (٢/ ٩٤، ٩٥).

دينيا، فتركوا التلقيح أو التأبير، فخرج الثمر في الموسم شيصا (أي رديئا غير صالح) فلما سألهم قالوا له: أنت أشرت علينا بتركه، فقال لهم: «إنما ظننت ظنا، فلا تؤاخذوني بالظن، أنتم أعلم بأمر دنياكم»[1].

وبهذا ترك للناس أن يدبروا أمر دنياهم بما وهب الله لهم من عقول، وبما حصلوا من خبرات وتجارب، حتى يصلوا إلى درجة (الإحسان) الذي هو فريضة إسلامية، كما في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم «إن الله كتب الإحسان على كل شيء»[2].

الإحسان والرفق بالجمادات:

وليس الإحسان والرفق المطلوب مقصورا على الكائنات الحية من الإنسان والحيوان والنبات فحسب، فقد رأينا الحديث النبوي يقرر «إن الله كتب الإحسان على كل شيء» فهذه كلية عامة لا استثناء فيها. وقد قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ (النحل: ١٢٨) فهؤلاء الأخيار يتعاملون مع الله تعالى بالتقوى، ومع خلقه بالإحسان. وخلق الله هنا يشمل: الأحياء والجمادات جميعا.

ولهذا ينبغي للمسلم أن يحسن بكل ما يتصل به، ويتعامل معه، ويرفق به الرفق الذي يلائمه، ويحفظه وينميه، كما يحب الله تعالى ويرضى. كما قال تعالى: ﴿ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (البقرة: ١٩٥).

الإحسان بالأرض وتربتها:

ومن ذلك: الإحسان بالأرض التي نعيش عليها، ونمشي في مناكبها، آكلين من رزق الله فيها، وقد جعلها الله لنا ذلولا.

وقد خلق الله لنا هذه الأرض صالحة لإقامتنا، ولغرسنا وزرعنا، وجعل لنا

(١) رواه مسلم عن عائشة وأنس.

(٢) رواه مسلم عن شداد بن أوس. وهو من أحاديث الأربعين النووية.

بها صلة وثيقة، فمنها نأكل وتأكل أنعامنا، وعليها نعيش وتعيش حيواناتنا، إلى ترابها نعود بعد موتنا، ومنها نخرج عند بعثنا. وهذا ما جعل كثيرا من الأدباء والشعراء يقولون: الأرض أُمُّنا!.

والقرآن الكريم يشير إلى ذلك في آيات كثيرة، حسبنا منها ما ذكره الله تعالى على لسان سيدنا موسى، وقد سأله فرعون مع أخيه هارون: من ربكما يا موسى؟ قال: ﴿ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾ ﴾ (طه: ٥٠ ـ ٥٥).

وقد أمرنا الله تعالى أن نحسن بالأرض، ونصلحها، ولا نعثي فيها مفسدين، قياما بأمانة الاستخلاف، وبشكر النعمة، وبواجب العمارة.

فمن الإحسان بالأرض الزراعية أن يتولاها زارعها بالرعاية والتسميد والسقي والتنقية مما يعوق نماء نباتها، وعليه أن يراعي ما يناسبها من الزرع، فمن الزرع ما إذا استمر في أرض أضعف تربتها، وأفقدها كثيرا من حيويتها. ولقد رأيت الفلاحين في قريتي ـ وأنا صبي ـ يزرعون الأرض في سنة قمحا وشعيرا، وفي السنة التالية برسيما، فالقمح يضعفها، والبرسيم يقويها، وقد ذكر علماء الزراعة لذلك تفسيرا لا مجال له هنا الآن.

كما أنهم كانوا إذا سقوها كان سقيها بحساب، فلا يسرفون في السقي حتى تغرق، ولا يقللون منه حتى لا يرتوي ظمؤها.. ويقدرون ما بين السقيتين بحساب دقيق، وكل نبات يعرفون مقدار حاجته إلى الماء، فالأرز غير القمح، وهما غير القطن. وهكذا.

وكانوا يقولون: أعط الأرض تعطك. وأحسن إليها تحسن إليك. وهذا مستمد من قوله تعالى: ﴿ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴾ (الرحمن: ٦٠).

وهكذا إذا كانوا طيبين مع الأرض كانت الأرض طيبة معهم، فالطيبات للطيبين، والله تعالى يقول: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لا يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِدًا﴾ (الأعراف: ٥٨).

وأعظم ما يتحقق به الإحسان في عصرنا: تجنب كل ما يؤدي إلى (تلويث التربة) بالمواد التي تخرجها عما جعل الله فيها من الخير والبركة والصلاح بمقتضى فطرتها، فلا يجوز للإنسان تغيير فطرتها التي فطرها الله عليها، فكل خروج على الفطرة - في أي مجال كان - ضرب من الفساد المحظور.

الإحسان بالماء:

ومن الإحسان بالجماد كذلك: الإحسان بالماء، أساس خلق الأحياء، وقوام الحياة كلها. يقول تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ﴾ (النور: ٤٥) وقال سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ (الأنبياء: ٣٠).

وقد سبق القرآن بهذا كل ما قرره (علم الأحياء) الحديث من أن الماء هو أصل الحياة.

وقد لوحظ منذ أقدم العصور أن الماء هو العنصر الأساسي لاستقرار الإنسان وازدهار حضارته. وأينما وجد الماء وجدت مظاهر الحياة. ولا عجب أن ارتبطت الحضارات القديمة ارتباطا وثيقا بموارد المياه العذبة، وبالأنهار الكبيرة، كما في مصر والعراق وغيرهما.

وليس بغريب أن يتجمع البدو في الواحات حول عيون الماء. فالماء لا يمكن الاستغناء عنه لاستحالة استمرار الحياة بدونه، ولارتباط الأنشطة البشرية المختلفة به.

وقد أثبتت علم الخلية: أن الماء هو المكون المهم في تركيب مادة الخلية، حيث يدخل في تكوين جميع خلايا الكائنات الحية بمختلف صورها وأشكالها

وأحجامها وأنواعها. وهو يكون نحو ٩٠ في المائة من أجسام الأحياء الدنيا، ونحو ٦٠ ـ ٧٠ في المائة من أجسام الأحياء الراقية بما في ذلك الإنسان.

وبدون الماء لا يمكن لخلايا الجسم الحي أن تحصل على الغذاء. فالماء مكون رئيسي لأجهزة نقل الغذاء في الكائنات الحية، والفضلات السامة ـ التي تنتج من العمليات الحيوية كالبول والعرق ـ تطرح خارج الجسم الحي ذائبة في الماء.

والماء هو الوسط الذي تُجرى فيه جميع العمليات الحيوية من هضم وامتصاص وبناء. . . إلخ.

وقد أثبت علم الكيمياء الحيوية أن الماء لازم لحدوث جميع التفاعلات والتحولات التي تتم داخل أجسام الأحياء، فهو إما وسط أو عامل مساعد catlyst أو داخل في التفاعل أو ناتج عنه.

كما أثبت علم وظائف الأعضاء (الفسيولوجيا) أن الماء ضروري لقيام كل عضو في جسم الإنسان بوظائفه على الوجه الأمثل، ومن دون الماء لا يمكن لهذا العضو وغيره أن يستمر في عمله ووجوده.

ومما يجدر بنا ذكره أن الماء ـ كما خلقه الله ـ يحمل من الصفات ما يمكنه من المساعدة في الحياة على سطح الأرض، بغض النظر عن كونه عذبا فراتا أم ملحا أجاجا ـ فالماء العذب والماء المالح هما بيئة كثير من المخلوقات والكائنات الحية.

يقول الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ (النحل: ١٤).

أي جعل مياهه صالحة لحياة الأحياء التي تعيش فيه، والتي يعتمد عليها الإنسان في غذائه. ويقول تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ﴾ (المائدة: ٩٦).

وقد قال المفسرون: إن المقصود بالبحر في هذه الآية: كل ماء يوجد فيه صيد بحري، وإن كان نهرا أو غديرا.

كما أشار القرآن الكريم إلى أهمية مياه الأمطار للأحياء: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ (الأنعام: ٩٩) فماء المطر ضروري لنمو النباتات التي تتغذى عليها الحيوانات ويتغذى عليها الإنسان. ومن دون هذا الماء تكون الأرض مواتا. ولولا الماء لما أمكن للنباتات الخضراء، والأحياء الأخرى المحتوية على صبغة اليخضور (الكلوروفيل)، أن تقوم بصنع الغذاء في عملية البناء الضوئي photo synthisis .

إن الماء - بإيجاز - هو وحدة البناء في كل كائن حي، نباتا كان أم حيوانا أم إنسانا.

ونظرا لأهمية الماء، جعله الله حقا شائعا بين البشر جميعا، فحق الانتفاع به مكفول للجميع بلا احتكار ولا إفساد ولا تعطيل[١].

وروى ابن ماجه عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ثلاث لا يمنعن: الماء والكلأ والنار»[٢] وعن ابن عمر مرفوعا: «المسلمون شركاء في ثلاثة: في الكلأ والماء والنار»[٣].

وبهذا يشترك الناس جميعا في الموارد التي تقوم عليها ضروريات الحياة.

وينبغي للإنسان أن يتعامل مع الماء بإحسان، باعتباره من أعظم نعم الله عليه، وعلى كل الكائنات الحية من حوله من أنعام ونبات، مما سخر للإنسان.

والإحسان بالماء يتضمن عدة أمور، ينبغي للإنسان - وخصوصا الإنسان المؤمن - أن يعيها ويغرسها في أعماق فكره ووجدانه. منها:

١ - أن يشعر بنعمة الله عليه فيه، ويحمده تعالى عليها، روى مسلم في صحيحه عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه

---

(١) انظر: البيئة مشاكلها وقضاياها. لمحمد عبد القادر الفقي.

(٢) رواه ابن ماجه في كتاب الرهون، برقم (٢٤٧٣) وقال في الزوائد: إسناد صحيح رجاله موثقون.

(٣) رواه عن ابن عمرو أحمد وأبو داود عن رجل، وذكره الألباني في صحيح الجامع الصغير (٦٧١٣).

وسلم «إن الله تعالى ليرضى عن العبد يأكل الأكلة فيحمده عليها، ويشرب الشربة فيحمده عليها»[1].

كما علم المسلم أن يقول بعد أن يفرغ من وضوئه: «أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له. وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، اللهم اجعلني من التوابين، واجعلني من المتطهرين»[2].

٢ ـ أن يحافظ عليه نقيا طاهرا، فلا يلوثه بأي ملوث من الملوثات، التي تخرجه عن فطرته، وتجعله خبيثا غير طاهر، ضارا غير نافع، فإن شكر النعمة أن تستخدم فيما خلقت له، لا في الفساد وفي معصية الله، وآفة الحضارة الحديثة أنها لم تراع ذلك في استخدامها، فكان تلويث الماء في الأنهار والبحار وغيرها، حتى ذلك إلى موت كثير من الكائنات الحية في الماء، أو إصابتها بما يضرها ويضر الإنسان معها.

٣ ـ أن يقدر قيمة الثروة الثمينة، التي لا يقدر قدرها، فلا يسرف في استعماله بغير حاجة، ولا يضيعه هباء، فقد نهي المسلم عن الإسراف في الماء، كما نهي عن الإسراف في كل شيء، فإن الله لا يحب المسرفين.

ولقد روى أكثر من صحابي (عائشة وجابر وسفينة) عن النبي صلى الله عليه وسلم: أنه كان يتوضأ بالمد، ويغتسل بالصاع (المد: رطل وثلث بالبغدادي أو رطلان ـ على الخلاف، والصاع أربعة أمداد) على خلاف ما يفعله الموسوسون من المتدينين.

وقد جاء أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فسأله عن الوضوء، فأراه ثلاثا ثلاثا، ثم قال: «هذا الوضوء، فمن زاد على هذا فقد أساء وتعدى وظلم»[3].

---

(١) رواه مسلم في الذكر والدعاء (٢٧٣٤).

(٢) رواه مسلم وغيره عن عمر، دون قوله «اللهم اجعلني» فقد رواها الترمذي وأعلها بالاضطراب، ورده الألباني وصحح الزيادة. انظر: إرواء الغليل رقم (٩٦).

(٣) رواه أبو داود بلفظ «فمن زاد على هذا أو نقص، فقد أساء وظلم» أو «ظلم وأساء» حديث (١٣٥) والنسائي مختصرا (١٤٠) وابن ماجه (٤٢٢).

وروى ابن ماجه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى رجلا يتوضأ، فقال: «لا تسرف، لا تسرف»[1].

وعن عبد الله بن عمرو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر بسعد، وهو يتوضأ، فقال: «ما هذا السرف؟» فقال: أو في الوضوء سرف؟ (كان يحسب الإسراف في المأكل والمشرب ونحوهما) قال: «نعم وإن كنت على نهر جار»[2].

ويلحق بالماء: الهواء الذي جعل الله فيه حياة الإنسان والحيوان والنبات، وعلى الإنسان أن يتعامل معه بما لا يفسده ولا يلوثه، وبشكر نعمة الله فيه.

كما يلحق بذلك كل ما يقع تحت يد الإنسان من الأشياء، والآلات والأدوات والمساكن، فواجب عليه الإحسان بها، ولا يجوز إفسادها أو إتلافها أو العدوان عليها، أو إهمالها وإضاعتها، فتضيع بذلك ثروة على المجتمع، بل على البشرية كلها.

---

(١) رواه ابن ماجه برقم (٤٢٤) وفي إسناده بقية، وهو مدلس.

(٢) رواه ابن ماجه برقم (٤٢٥) وفي إسناده ضعف، ولكن يتقوى بالحديث الذي قبله.

٧- المحافظة على البيئة من الإتلاف

يسعى الإسلام بتوجيهاته الأخلاقية، وتشريعاته القانونية للمحافظة على عناصر البيئة ومكوناتها، ويعمل على تنميتها وتحسينها.

كما أن الإسلام يقاوم بشدة كل عمل يفسد البيئة، ويتلف عناصرها، ويعتبر ذلك عملا محرما يعاقب الله عليه، ومنكرا يجب النهي عنه، وتغييره باليد أو باللسان أو بالقلب، وذلك أضعف الإيمان.

وهناك أنواع من الإتلاف بدوافع مختلفة كلها محرم ومنكر شرعا.

١- الإتلاف بدافع القسوة:

فمن الإتلاف المحظور شرعا: الإتلاف بدافع القسوة على خلق الله، وخصوصا من الحيوانات، كما جاء ذلك في حديث المرأة التي حبست الهرة حتى ماتت جوعا. وهو ما رواه ابن عمر: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: « دخلت امرأة النار في هرة ربطتها، فلم تطعمها، ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض» وفي رواية: «عذبت امرأة في هرة سجنتها حتى ماتت، فدخلت فيها النار، لا هي أطعمتها وسقتها إذ هي حبستها، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض»[١].

وخشاش الأرض: الحشرات والهوام مثل الفأرة ونحوها.

وإنما استحقت هذه المرأة النار والعذاب، لقسوة قلبها، وخلوه من الرحمة لهذه المخلوقة الضعيفة.

---

(١) رواه البخاري برقم (٣٤٨٢).

٢ ـ الإتلاف بدافع الغضب:

ومما يحرمه الإسلام الإتلاف لعناصر البيئة الحية ـ ولو كانت من جنس الحشرات ـ بدافع الغضب، ولا سيما إذا أدى ذلك إلى ما يشبه (الإبادة الجماعية)، فكثيرا ما أدى الغضب بصاحبه إلى الوقوع في فساد الرأي أو فساد السلوك، ولذلك أوصى الرسول بعض الناس فقال له: «لا تغضب» وكان ذلك بطلب من الرجل، ثم كرر الطلب أكثر من مرة، فكرر النبي الوصية «لا تغضب»[1] لأن الغضب ـ كالشهوة ـ مصدر شر كثير، وعلى المرء المؤمن أن يجعل عقله مسيطرا على قوته الغضبية، حتى يتميز عن السباع، وقوته الشهوية، حتى يرتقي عن البهائم.

روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «قرصت نملة نبيا من الأنبياء فأمر بقرية النمل، فأحرقت فأوحى الله إليه: أن قرصتك نملة أحرقت أمة تسبح الله؟»[2].

وذكر الحافظ ابن حجر في شرح الحديث: أنه وقع في بعض طرقه: أن الله أوحى إليه: «فهلا نملة واحدة؟» فإن فيه إشارة إلى أنه لو أحرق التي قرصته وحدها لما عوتب[3].

وقال الحافظ المنذري في (الترغيب والترهيب) بعد أن ذكر رواية «فهلا نملة واحدة» فيه دليل على أن التحريق كان جائزا في شريعتهم[4].

فهل هو جائز في شريعتنا؟ وهل شرع من قبلنا شرع لنا أو لا؟ وقد جاءت أحاديث صحاح تنهى عن التحريق والتعذيب بالنار بصفة عامة، فإنه لا يعذب بالنار إلا رب النار. وخصوصا أن بعض الأحاديث نهت عن قتل النملة

---

(١) رواه البخاري برقم (٦١١٦).

(٢) رواه البخاري في كتاب الجهاد (ج٦/ ١٥٤) الحديث(٣٠١٩) ورواه مسلم أيضا (٢٢٤١).

(٣) المصدر السابق.

(٤) انظر: المنتقى من الترغيب والترهيب .. الحديث (١٨١٨).

والنحلة والهدهد والصرد. على أن الذي لا خلاف في تحريمه هو القتل الجماعي للنمل وغيره.

٣ ـ الإتلاف بدافع العبث:

ومن الإتلاف المحظور والمنكر شرعا: الإتلاف بدافع العبث، ومعنى العبث: ألا يكون له هدف يحقق له منفعة معتبرة من وراء هذا الإتلاف المتعمد.

ومن ذلك: ما رواه ابن عمر رضي الله عنهما: أنه مر بفتيان من قريش نصبوا طيرا ـ أو دجاجة ـ يترامونها. وقد جعلوا لصاحب الطير كل خاطئة من نبلهم، فلما رأوا ابن عمر تفرقوا، فقال ابن عمر: من فعل هذا؟ لعن الله من فعل هذا. إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لعن من اتخذ شيئا فيه الروح غرضا![(١)]

والغرض: هو الهدف الذي ينصبه الرماة، يقصدون إصابته من قرطاس أو خشب أو معدن أو غيره.

فهؤلاء قد اتخذوا هذا الطير أو هذه الدجاجة غرضا لهم يصوبون نحوه نبالهم، إما ليتدربوا أو ليتسابقوا، وكان يمكنهم أن يحققوا هذه المنفعة باتخاذ غرض من خشب أو قرطاس ونحو ذلك، ولكنه العبث بأرواح المخلوقات الضعيفة غلب على هؤلاء الفتية، ولهذا حذرهم ابن عمر وأخبرهم بلعن رسول الله صلى الله عليه وسلم لكل من قام بهذا الصنيع.

وأصرح من هذا ما رواه الشريد رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «من قتل عصفورا عبثا عج إلى الله يوم القيامة، يقول: يا رب، إن فلانا قتلني عبثا. ولم يقتلني منفعة»[(٢)].

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري (٥٥١٥) ومسلم (١٩٥٨) وانظر اللؤلؤ والمرجان: (١٢٧٩).

(٢) رواه النسائي (٧/ ٢٢٩) وابن حبان في صحيحه (٥٨٩٤) وأحمد (٤/ ٣٨٩) وانظر: تعليقنا عليه في (المنتقى من الترغيب والترهيب) الحديث (٥٧٧).

ونحوه حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «ما من إنسان يقتل عصفورا فما فوقها، بغير حقها، إلا يسأله الله عز وجل عنها، قيل: يا رسول الله، وما حقها؟ قال: أن يذبحها فيأكلها، ولا يقطع رأسها ويرمي بها»[1].

٤- الإتلاف بلا ضرورة ولا حاجة:

ويقرب من هذا الإتلاف العبثي: الإتلاف لعناصر البيئة بلا ضرورة تلجئ إلى ذلك، ولا حاجة معتبرة تدفع إليها، إنما هو الجهل أو الظلم والإفساد في الأرض، الذي نهت عنه كل رسالات السماء.

انظر إلى هذا الحديث الذي رواه أبو داود في سننه عن عبد الله بن حبشي رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من قطع سدرة صوب الله رأسه في النار»[2].

والمراد بالسدرة: شجرة السدر المعروف، (ويسمى في بعض البلاد: النبق) وهو ينبت في الصحاري، ويصبر على العطش، ويقاوم الحر، وينتفع الناس بتفيؤ ظلاله، والأكل من ثماره، إذا اجتازوا تلك الفيافي مسافرين، أو باحثين عن الكلأ والمرعى، أو لغير ذلك من الأغراض.

والوعيد بالنار لمن قطع سدرة يدل على تأكيد المحافظة على مقومات البيئة الطبيعية، لما توفره من حفظ التوازن بين المخلوقات بعضها وبعض، وما يمثله الاعتداء عليها من فقدان بعض العناصر المهمة لسلامة الحياة والإنسان.

وبهذا سبقت السنة النبوية الجماعات والأحزاب المعاصرة في كثير من أنحاء

---

(١) رواه النسائي (٧/ ٢٠٧، ٢٣٩) والحاكم وصححه ووافقه الذهبي (٤/ ٢٣٣) كما رواه أحمد في المسند (٦٥٥) وقال الشيخ شاكر: إسناده صحيح. كما رواه الطيالسي والدارمي والحميدي والبيهقي في المنتقى (٥٧٦).

(٢) رواه أبو داود في كتاب الأدب من سننه - باب قطع السدر (٥٢٣٩)، ورواه البيهقي في السنن، وذكره في صحيح الجامع الصغير.

العـالم، التي تنادي بالمحافظة على (الخضرة) في الغابات وغيرها، وتندد بقتلة (الأشجار) وبـ(المذابح) التي تتعرض لها الأراضي الخضراء نتيجة جهل الإنسان وجشعه ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً﴾ (الأحزاب: ٧٢).

وقد رأيت بعض رجال الحديث يصرفون هذا الحديث النبوي عن ظاهره المتبادر الذي يفيده عموم لفظه «من قطع سدرة» فتأولوه بأن المراد: سدرة من سدر الحرم، وكأنهم استكثروا الوعيد بالنار على قطع سدرة، فارتكبوا هذا التأويل الذي لا دليل عليه. والأصل حمل الكلام على ظاهره وعمومه، حتى يقوم دليل واضح على عكسه.

ومن حسن الحظ أن الإمام أبا داود الذي أخرج الحديث في (سننه) خالف هؤلاء المتأولين، واتجه بالحديث الوجهة الصحيحة، فقد سئل عن هذا الحديث فقال: هذا الحديث مختصر، يعني: من قطع سدرة في فلاة يستظل بها ابن السبيل والبهائم - عبثا وظلما بغير حق، يكون له فيها - صوب الله رأسه في النار. اهـ[1].

٥ - الإتلاف بسبب الإهمال والإضاعة

ومن الإتلاف المحظور: الإتلاف بسبب الإهمال للشيء، والتقصير في رعايته حتى يتلف ويهلك، سواء كان حيوانا أم نباتا أم جمادا. ويدخل ذلك - أول ما يدخل - في إضاعة المال التي نهى عنها النبي صلى الله عليه وسلم.

ومن أمثلة ذلك: إهمال الحيوان حتى يهلك من الجوع أو المرض، وإهمال الزرع حتى تأكله الآفات، وإهمال الحبوب والثمار والأطعمة حتى يتلفها العفن والسوس، وإهمال الثياب حتى تبليها (العتَّة)، وإهمال المباني والمرافق حتى تهلكها عوادي الزمن، وإهمال الآلات حتى يأكلها الصدأ، ومن ذلك إضاءة الأنوار نهارا حيث تستهلك الطاقة بلا حاجة إليها، وترك صنابير المياه

(١) المصدر السابق.

مفتوحة حيث تصب في غير حاجة، وإلقاء فضلات الطعام في القمامة وفي الناس من يحتاج إلى لقيمات يقمن صلبه، وترك الثياب الصالحة للاستعمال لمجرد خرق صغير بها، أو مرور زمن عليها، وفي المجتمع من يحتاج إلى خرقة تستر عورته أو تقيه الحر والقر.

ومن إضاعة المال: ترك الأرض الصالحة للزراعة دون استغلالها، وترك الوسائل المستطاعة لزيادة إنتاجها ـ كما ونوعا ـ دون استخدامها، وكذلك إهمال الثروة الحيوانية مع إمكان تنميتها، وتوسيع نطاق الانتفاع بها، بلحومها وألبانها وما يستخرج منها، وبما أشار القرآن إليه من جلودها وأصوافها وأوبارها وأشعارها. وترك المصانع والمباني والأجهزة دون صيانة دورية، حتى تهلك قبل عمرها الافتراضي.

ومن أجل النهي عن إضاعة المال أنكر النبي صلى الله عليه وسلم على من تركوا الشاة الميتة فلم ينتفعوا بجلدها، فقد روى الشيخان عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر بشاة ميتة فقال: «هلا استمتعتم بإهابها؟ (جلدها)، قالوا: إنها ميتة! ، قال: إنما حرم أكلها»[1].

ومن أجل ذلك أيضا عنون البخاري في صحيحه فقال: باب : هل تكسر الدنان التي فيها خمر أو تخرَّق الزِّقاق (أي القرب التي فيها الخمر)؟ وقال الحافظ ابن حجر في شرحه: لم يبين الحكم؛ لأن المعتمد فيه التفصيل، فإن كانت الأوعية يُراق ما فيها، وإذا غُسلت طهرت وانتفع بها، لم يجز إتلافها، وإلا جاز[2].

وقال السبكي الكبير: الضابط في إضاعة المال: ألا يكون لغرض ديني ولا دنيوي، فإن انتفيا حرم قطعا، وإن وجد أحدهما وجودا له بال، وكان الإنفاق لائقا بالحال، ولا معصية فيه، جاز قطعا، وبين الرتبتين، وسائط كثيرة لا تدخل تحت ضابط [3].

---

(١) متفق عليه عن ابن عباس، كما في اللؤلؤ والمرجان (٢٠٥).

(٢) انظر: فتح الباري (٦/ ٤٦) طبعة الحلبي.

(٣) فتح الباري (١٣/ ١١ ـ ١٢) طبعة الحلبي.

٦ـ تحريم الإتلاف في الحرب:

ومن روائع ما جاء في الشريعة الإسلامية: أنها لم تجز الإتلاف والإفساد لعناصر البيئة، حتى في حالة الحرب، التي يخرج الناس فيها عادة على الحدود المعهودة، ويتجاوزون المألوف في العلاقات، فكثيرا ما يقطعون الأشجار، ويخربون العامر، ويهدمون الأبنية، ويقتلون الحيوانات لا ليأكلوها، بل ليتلفوها على أعدائهم. وهذا ما منعه الإسلام في حروبه، إلا ما اقتضته الضرورة القصوى، مثلما حدث في حصار بني النضير، حيث اختبئوا في نخيلهم محتمين به، معتمدين على أن المسلمين لن يقدموا على ضربهم في نخيلهم، لأنه من الإفساد الذي نهى عنه الإسلام.

ولكن الله تعالى أذن لرسوله لضرورة الحرب في قطع بعض النخيل، وكشف القوم، وإلزامهم بالمواجهة الصريحة، وقد قال اليهود في ذلك: كنت تنهى عن الفساد يا محمد، فما بالك تفعله اليوم، أو نحو ذلك؟

فأنزل الله تعالى في كتابه ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ﴾ (الحشر: ٥).

وجاء في وصايا أبي بكر رضي الله عنه لقواده في الحرب هذه الوصية الواضحة الحاسمة، فقد قال يحيى بن سعيد: حدثت أن أبا بكر بعث جيوشا إلى الشام، فخرج يشيع يزيد بن أبي سفيان، فقال:

إني أوصيك بعشر: لا تقتل صبيا، ولا امرأة، ولا كبيرا هرما، ولا تقطعن شجرا مثمرا، ولا تخربن عامرا، ولا تعقرن شاة ولا بعيرا إلا لمأكلة، ولا تغرقن نخلا، ولا تحرقنه، ولا تغلل، ولا تجبن[1].

---

(١) رواه مالك في موطئه ـ كتاب الجهاد، باب النهي عن قتل النساء والولدان في الغزو: حديث رقم (١٠) ص٤٤٧, ٤٤٨ طبعة الحلبي، كما رواه عبد الرزاق في كتاب الجهاد من مصنفه (٥/١٩٩، ٢٠٠) الأثر رقم (٩٣٧٥، ٩٣٧٦) وابن أبي شيبة في مصنفه ـ كتاب الجهاد (١٢/ ٣٨٣، ٣٨٤) الأثر رقم (١٤٠٧٦) والبيهقي في السنن كتاب السير (٩/ ٨٩).

وهذا ما مضى عليه المسلمون في حروبهم طوال الفتوح الإسلامية، التي كان المسلمون فيها أقوى قوة عسكرية في الأرض، ولكنهم تجنبوا سياسة الإتلاف والإفساد، وما يسمونه في عصرنا (الأرض المحروقة) بل كانوا دائما صالحين مصلحين، لأنهم وعوا قول الله تعالى ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ (الأنبياء: ١٠٥).

وفي هذا قال المفكر والمؤرخ الاجتماعي الفرنسي غوستاف لوبون: ما عرف التاريخ فاتحا أعدل ولا أرحم من العرب. يعني: المسلمين.

ولكن الحروب في عصرنا لم تراع ما راعاه المسلمون منذ أربعة عشر قرنا. ولم تبال بما يصيب الإنسان والحيوان والنبات من جرائها.

لقد بلغ الطغيان البشري، وظلم الإنسان لأخيه الإنسان، حدا أغرى بعض الدول باستخدام المبيدات والمهلكات الكيمياوية في الأغراض الحربية والعسكرية، مستهدفة إهلاك المحاصيل الزراعية ومناطق الرعي والغابات، فضلا عن إفساد التربة الزراعية، وتنهض الحرب الأمريكية في «فيتنام» دليل صدق وشاهد حق على ما نقول، وكذلك الحال في كل من «لاوس» و«كمبوديا» حيث استخدمت الدول الغازيَةُ مبيدات الأعشاب في هذه المناطق بغرض إتلاف الرقعة الزراعية بها، ولقد انعقد في فيتنام المؤتمر الدولي لتقدير المحصلة الأولية لآثار الحرب الكيمياوية في فيتنام في الفترة من ١٣ ـ ٢٠ من يناير ١٩٨٣، وقد كان من أبرز نتائج هذا المؤتمر ما يلي:

ـ لقد منيت البيئة في «فيتنام» بخسائر جوهرية بسبب استخدام الولايات المتحدة الأمريكية لتلك المبيدات، فقد استخدمت على سبيل المثال مادة «لاجان أورانج» وهي خليط من المبيدات النباتية التي تحتوي على مادة «الديوكسين»، حيث ألقت منها ٤٤ مليون لتر على الأراضي الفيتنامية خلال عشر سنوات (١٩٦١ ـ ١٩٧١م)، وقد أدى ذلك إلى تغيير عميق في تكوين التربة في المناطق التي استخدمت فيها، وكذلك الحال بالنسبة للمناطق

المجاورة لها، حيث تم انتقال هذه المواد بواسطة العوامل الطبيعية والحيوانية والنباتية لم تقدر بعد جيدا.

- أكدت نتائج المؤتمر استمرار الآثار الضارة بالنوع البشري، فقد أظهرت نتائج الدراسات التي أجريت على الأفراد الذين تعرضوا لخطر استخدام المبيدات، كالمقاتلين - أنهم لحقت بهم أضرار وراثية أدت في النهاية إلى إحداث تشوهات خلْقيَّة بهم مثل مرض « المنغولية mangolism»، وهو مرض وراثي يحدث نتيجة لوجود كروموسوم إضافي للكروموسوم رقم (٢)، كما يمكن ظهور هذا المرض عند التصاق جزء منه بكروموسوم آخر، وتظهر أعراض هذا المرض في بلاهة تصيب الطفل عند ولادته، ويكون من نتيجتها انحراف العينين وتَسَطُّح الجبهة، وتعتبر أكبر أجزاء الجسم عرضة للإصابة بهذه المواد الجلد والعيون وبعض الأغشية والغدد التناسلية، وكلها تؤدي إلى نتائج وراثية تهدد كلا من الإنسان والحيوان، فضلا عن النبات، فقد أثرت على المورثات «الكروموزومات» مسببة تشوهات خلْقيَّة وارتفاع معدلات المواليد غير الطبيعيين في أسر المقاتلين الفيتناميين في أعقاب هذه الحرب، يالله للناس!![1]

أما ضرب هيروشيما وناجازاكي في الحرب العالمية الثانية، وما خلفتا من هلاك للحرث والنسل، ومن دمار للناس وللبيئة، فشيء فوق الوصف والتصوير، وقد أصبح بَيِّنًا ومعروفا لدى الخاص والعام، وهو وَصْمَةُ عار للحضارة، ولطخة سوداء في جبين الإنسان.

(١) انظر: البيئة في الفكر الإنساني والواقع الإيماني لعبد الحكيم عبد اللطيف الصعيدي ص٦٢، ٦٣.

٨ـ حفظ التوازن البيئي

ومن أهم ما جاءت به التعاليم الإسلامية فيما يتعلق بالبيئة: حفظ التوازن البيئي والحيلولة دون اختلال هذا التوازن.

فمما لا شك فيه أن الله تعالى خلق كل شيء في هذا الكون بحساب ومقدار، ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ﴾ (الملك: ١٣).

لم يخلق شيء في هذا الكون عبثا أو اعتباطا، ولم يوضع شيء في غير موضعه، لأن هذا ينافي حكمة الحكيم ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ (السجدة: ٧).

والذي اعترف بحكمته أولو الألباب الذين يذكرونه على كل حال ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ﴾ (آل عمران: ١٩١).

لقد قرر القرآن هذه الحقيقة بوضوح لا ريب فيه: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ (القمر: ٤٩) ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً﴾ (الفرقان: ٢) ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ (الرعد: ٨) ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝٥ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝٦ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ۝٧ أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ۝٩﴾ (الرحمن: ٥ ـ ٩).

وهذا هو المطلوب من الإنسان أبدا: العدل والاعتدال في الميزان: لا طغيان في الميزان، ولا إخسار في الميزان، وإنما ينحرف الناس ويسقطون ويضيعون

ويهلكون، حين يطغون في الميزان أو يخسرون، والطغيان يعني: الغلو والإفراط، والإخسار: يعني التقصير والتفريط، وكلاهما مذموم، إنما المحمود هو التوسط.

وهذا العدل والاعتدال والتوسط والتوازن - سمه ما شئت - مطلوب من الإنسان في كل شيء، في الماديات والمعنويات، في أمور البيئة، وأمور الإنسان والحياة كلها.

إن كل شيء في هذا العالم بقدر، كما ذكر القرآن الكريم.

الماء أنزله الله أو خلقه الله بقدر، كما قال: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾ (المؤمنون: ١٨) فكمية الماء التي جعلها الله في الأرض مقدرة تقديرا حكيما دقيقا، على حسب حاجة الحياة والأحياء فيها، بلا زيادة ولا نقصان. ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ (يس: ٣٨).

ويقول تعالى: ﴿وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ﴾ (الحجر: ١٩).

وكلمة (موزون) هنا لا تفسر تفسيرا مجازيا، بل إن كل شيء في النبات موزون بالفعل يعرفه المختصون متمثلا في نسب ما في النبات من معادن أو أملاح أو ماء أو غيرها بالجرام أو الملي جرام، وما هو أدنى من ذلك من الموازين الحديثة.

وقد ذكر أ. كريسي موريسون في كتابه الذي ترجم إلى العربية تحت عنوان (العلم يدعو إلى الإيمان) وفي فصل (ضوابط وموازين) ما بين لنا بالفعل أن كل شيء في هذا الكون بحساب ومقدار، علم ذلك من علمه، وجهله من جهله.

وإن بعض الحشرات التي يجهل الناس الحكمة من خلقها، قد تكون لها فائدة مهمة لا يعرفها الناس.

وذكر موريسون في كتابه أنه ظهر في أمريكا في فترة من الزمن نبات (شيطاني) نما وتفرع واتسع وانتشر، حتى غدا الناس يقاومونه، ولا يجدون له حيلة، ولا يهتدون سبيلا، حتى اكتشف بعض العلماء حشرة معينة، فسلطوها على هذا النبات فأعادت التوازن.

إن صراع (الأضداد) هذا هو في حقيقته سعي إلى التوازن في الكون، ولولاه لطغى بعضها طغيانا لا يمكن إيقافه.

وقد حكي أن بلدة ما كان فيها بعض السباع التي أقلقت الناس، فخطط أهل القرية للقضاء عليها، وتربصوا بها يوما فأعملوا فيها السلاح حتى أفنوها. وفي اليوم التالي فوجئ أهل القرية بجيوش من القرود زحفت عليهم من الجبال من حولهم، هددت حياتهم وزرعهم وضرعهم، فقد كان وجود السباع هو الحائل لها دون اقتحام القرية وغزوها.

وفي عالم الإنسان، نجد (سنة التدافع) بين الناس، التي قررها القرآن، التي بها يدفع الله الناس بعضهم ببعض، ولولاها لفسدت الأرض، وطغى الأقوياء على الضعفاء، وهدمت بيوت العبادة لله من الصوامع والمساجد، وفي هذا جاء قول الله تعالى: ﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (البقرة: ٢٥١) ﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً﴾ (الحج: ٤٠).

والذي نهدف إليه من هذا: أن الكون - كما خلقه الله - متوازن في نفسه، متكامل بعضه مع بعض، ولو طغى فيه شيء، وجد من الكون نفسه ما يرد طغيانه، ويعيد الأمور إلى الموازين القسط.

وإنما يختل التوازن في الكون وفي الحياة بتدخل الإنسان غير المسئول، وعمله غير المحسوب، وغير المشروع. وتغييره لفطرة الله تعالى في نفسه وفي الكون من حوله، ومجاوزته لحده في التعامل مع المخلوقات الأخرى.

وهنا ينزل به العقاب الإلهي، جزاء وفاقا ﴿ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ (آل عمران: ١٨٢).

ولقد زاد تدخل الإنسان في البيئة في هذا القرن، وزاد أكثر وأكثر في العقود الأخيرة منه، مما أخل بالتوازن البيئي، وأخل بالنسب في العلاقات بين الأشياء بعضها وبعض، بالطغيان حينا وبالإخسار حينا، مما أدى إلى (التصحر) في بعض المناطق، وطغيان البحر على اليابسة في مناطق أخرى، وتغير المناخ العام، وارتفاع درجة الحرارة، وبروز مشكلة (الأوزون) بشكل بات مقلقا للبشرية في مستقبلها القريب.

وهو ما يخيف المؤمنين أن يؤدي طغيان الإنسان وفساده إلى دمار الأرض وما عليها، كما قال تعالى: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (يونس: ٢٤).

فهل يتفكر الناس في آيات الله قبل أن تقع الكارثة على رءوس الجميع؟ وحينئذ يلتمسون الخلاص، ولات حين مناص!

(٣)

الأخطار على البيئة

١ـ خطر التلوث.

٢ـ خطر استنزاف الموارد.

٣ـ خطر الإخلال بالتوازن.

الأخطار على البيئة

خلق الله تعالى البيئة بمكوناتها المختلفة، صالحة لحياة الإنسان، والقيام بما كلفه الله فيها من العبادة والخلافة والعمارة. وزود هذه البيئة بمكوناتها الطبيعية بالآليات الذاتية التي تحافظ عليها، وتتعاون على صلاحها ونمائها وجمالها وتوازنها. ففيها من النعم والخيرات المذخورة والمنشورة ما لا يحصى، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا﴾ (إبراهيم: ٣٤) (والنحل: ١٨).

ولكن الإنسان إذا مضى وحده ـ بمعزل عن هداية ربه ـ كثيرا ما يغلبه الظلم والجهل، أو الكفران للنعمة، أو العجلة، كما وصفه خالقه عز وجل ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً﴾ (الأحزاب: ٧٢) ﴿إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ (إبراهيم: ٣٤) ﴿وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً﴾ (الإسراء: ١١) فيرتكب من التجاوزات ما يجور على البيئة، ويحدث فيها الخلل والفساد، وبهذا يعود على نفسه وعلى من حوله وما حوله بالضرر.

وكلما ازداد الإنسان قوة بالعلم المادي الذي توصل إليه، وتطبيقاته التكنولوجية التي تطورت في السنين الأخيرة تطورا كبيرا، ازداد جور الإنسان على البيئة وعلى الطبيعة من حوله، وقد تمثل ذلك فيما سماه العلماء (مشكلات البيئة) وهي التي أصبحت تُشَكِّل خطرا عليها وعلى مقوماتها. وأمست موضع الشكوى من العالم كله، ولا سيما العالم المتقدم، أو العالم الأول، الذي أصبحت هذه المشكلات بمثابة (غول) يهدده، وينذره بالويل والهلاك.

تتمثل هذه المشكلات الأساسية أو الأخطار الكبرى في ثلاثة أمور :

١ـ التلوث في شتى المجالات ، وبمستوياته المختلفة .

٢ـ استنزاف موارد البيئة وسوء استهلاكها .

٣ـ اختلال التوازن البيئي والكوني .

وسنفصل الحديث عن كل خطر من هذه الأخطار في الصحائف التالية إن شاء الله .

١ـ خطر التلوث

خلق الله الأرض وما عليها وما يتصل بها ـ وهي التي تكون البيئة الطبيعية للإنسان ـ طاهرة لا خبث فيها، نظيفة لا تحمل أي نوع من التلوث، متوازنة لا خلل فيها، صالحة لحياة الإنسان وقيامه بمهمته، فطرة الله التي فطر الكون والأشياء عليها.

يقول تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴾ (الفرقان: ٤٨) ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا ﴾ (البقرة: ١٦٨).

بل هذا ما خلق الله عليه الكون بأرضه وسماواته، فقد خلقه الله على أحسن ما يكون، كما عبر عن ذلك القرآن الكريم في أكثر من آية ﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴾ (السجدة: ٧) ﴿ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ (النمل: ٨٨) ﴿ مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ ﴾ (الملك: ٣).

فليس في الكون ـ كما فطره الله ـ شيء خبيث أو ملوث أو مختل التوازن بحكم الخلقة. إنما يأتي الخبيث والتلوث والاختلال إلى البيئة من صنع الإنسان، الذي غير فطرة الله تعالى في الطبيعة، وغير خلق الله في الحياة وفي الإنسان.

القرآن يقول: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾ ﴾ (التين: ٤ ـ ٦).

فالإنسان قد خلقه الله تعالى في أحسن تقويم: سواء من ناحية الصورة

الجسدية، كما قال تعالى مخاطبا الإنسان: ﴿الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾﴾ (الانفطار: ٧، ٨) وقال تعالى ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ (التغابن: ٣) أم من ناحية التكوين الروحي للإنسان، حيث قال تعالى للملائكة في شأن الإنسان الأول (آدم): ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ (الحجر: ٢٩).

هذا الإنسان المخلوق في أحسن تقويم ماديا وروحيا، قد رد إلى أسفل سافلين. إذا ترك لغرائزه ونفسه الأمارة بالسوء، وإنما نجا من هذا الارتداد، وبقي على علوه وارتفاعه (الذين آمنوا وعملوا الصالحات).

المسئول عن تلوث البيئة إذن هو الإنسان الذي استجاب لظلمه وجهله ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً﴾ (الأحزاب: ٧٢) ولم يتبع وحي ربه الذي هداه السبيل، وأضاء له الطريق، وأرشده إلى كل خير، وحذره من كل شر: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ (الأعراف: ٩٦) ﴿وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا﴾ (الجن: ١٦).

ولكن الإنسان في كثير من الأحوال ـ أو في أكثرها ـ لم يؤمن ولم يتق، ولم يستقم على الطريقة، ووقع منه ما خشيه الملائكة من قديم حين عرض الله تعالى عليهم خلق الإنسان واستخلافه في الأرض: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٣٠).

فقد علم الملائكة من خلق الإنسان على طبيعة مزدوجة أنه لا بد أن يقع منه الفساد في الأرض، فقد خلقه الله من طين أو من صلصال من حمإ مسنون، ومن نفخة من روح الله عز وجل، فإذا غلبت نفخة الروح عليه ارتقى ولحق بأفق الملائكة، وربما فاق بعضهم. وإذا غلب عنصر الطين، نزل إلى حضيض الأنعام، وربما كان أضل منها سبيلا.

تلوث الماء:

ومن إفساد الإنسان هنا : أنه لوث بصنعه الماء الذي خلقه الله طهورا . فكيف حدث ذلك؟

أصل المياه العذبة من الأمطار التي تتحول إلى أنهار وبحيرات وغدران ، بالإضافة إلى الأنهار المتجمدة في شمال الكرة الأرضية ، وجبال الجليد الموجودة في القطبين ، والآبار والعيون في جوف الأرض . والأنهار هي المورد الرئيس للمياه العذبة ، حيث يعتمد كثير من البشر عليها في أغراض الزراعة والتصنيع وتوفير مياه الشرب والنظافة .

بماذا يتلوث الماء؟:

يتلوث الماء بكل ما يفسد خصائصه ، أو يغير من طبيعته .

وتلوث الماء من أوائل الموضوعات التي اهتم بها العلماء والمتخصصون في مجال حماية البيئة . وليس من الغريب إذن أن يكون حجم الدراسات التي تناولت هذا الموضوع أكبر من حجم الدراسات الأخرى التي تناولت باقي فروع التلوث .

ويعرف تلوث الماء بأنه (إحداث تلف أو إفساد لنوعية المياه ، مما يؤدي إلى حدوث خلل في نظامها الأيكولوجي بصورة أو بأخرى ، بما يقلل من قدرتها على أداء دورها الطبيعي ، بل تصبح ضارة مؤذية عند استعمالها ، أو تفقد الكثير من قيمتها الاقتصادية ، وبصفة خاصة مواردها من الأسماك والأحياء المائية) .

وبعبارة أخرى ، فإن المقصود بتلوث الماء ، هو « تدنيس مجاري الماء من أنهار وبحار ومحيطات ، إضافة إلى مياه الأمطار والمياه الجوفية ، مما يجعل من هذه المياه غير صالحة للإنسان أو الحيوان أو النبات أو الأحياء التي تعيش في المسطحات المائية» .

وهناك عدة صور لتلوث الماء، منها:

١ـ استنزاف كميات كبيرة من الأكسجين الذائب في مياه المحيطات والبحار والبحيرات والأنهار، مما يؤدي إلى تناقص أعداد الأحياء المائية.

٢ـ زيادة نسبة المواد الكيميائية في المياه، مما يجعلها سامة للأحياء. وثمة أنهار كادت أن تكون خالية من مظاهر الحياة بسبب ارتفاع تركيز الملوثات الكيميائية فيها.

٣ـ ازدهار ونمو البكتيريا والطفيليات والأحياء الدقيقة في المياه، مما يقلل من قيمتها كمصدر للشرب أو ري المحاصيل الزراعية (إذا كانت عذبة) أو السباحة والترفيه.

٤ـ قلة الضوء الذي يعد ضروريا لنمو الأحياء النباتية المائية (كالطحالب والعوالق (Planktons).

ويتلوث الماء عن طريق المخلفات الإنسانية أو النباتية أو الحيوانية أو المعدنية أو الصناعية أو الكيميائية التي تُلْقى أو تصب في المسطحات المائية من محيطات وبحار وبحيرات وأنهار. كما تتلوث المياه الجوفية نتيجة لتسرب مياه المجاري ومياه التصريف إليها بما فيها من بكتيريا ومركبات كيميائية.

ويمكن تقسيم تلوث الماء إلى أربعة أنواع رئيسية: التلوث الطبيعي، والتلوث الكيميائي، والتلوث البيولوجي، والتلوث الحراري. ولكل منها أسبابه وآثاره. لا يتسع المجال للحديث عنها.

أهم ملوثات الماء:

١ـ المخلفات الصناعية:

تشمل المخلفات الصناعية جميع المواد المتخلفة عن الصناعات الكيميائية والتعدينية والتحويلية والزراعية والغذائية، التي يتم تصريفها إلى المسطحات المائية، والتي تؤدي إلى تلوث الماء بالأحماض والقلويات والأصباغ

والمركبات الهيدروكربونية والأملاح السامة والدهون والدم والبكتيريا . . . . إلخ .

٢ـ مياه المجاري:

فثمة دول كثيرة تقوم بتصريف مياه المجاري إلى المسطحات المائية كالأنهار والبحار والبحيرات، على الرغم مما في ذلك من أخطار، حيث تكون هذه المياه ملوثة بالمواد العضوية، والمواد الكيميائية (كالصابون والمنظفات الصناعية)، وبعض أنواع البكتيريا والميكروبات الضارة، إضافة إلى المعادن الثقيلة السامة، والمركبات الهيدروكربونية .

ويتم انتقال الكثير من الأمراض الخطرة بواسطة مياه المجاري التي يتم تسريبها إلى المسطحات المائية دون معالجة، حيث تحتوي هذه المياه على كل مسببات نقل الأمراض إلى الإنسان، مثل البكتيريا والفيروسات والطفيليات القولونية والبروتوزوا . وتنتقل هذه الأحياء الدقيقة المسببة للأمراض إلى الإنسان، عن طريق الجلد والجروح والفم، عند الاستحمام أو السباحة في المياه الملوثة، أو عند تناول الأسماك الكائنات البحرية المصابة بهذه الأحياء الدقيقة الممرضة .

٣ـ النفط:

يعد النفط من أكثر مصادر التلوث المائي انتشارا وتأثيرا . وهو يتسرب إلى المسطحات المائية إما بطريقة لا إرادية (غير متعمدة)، كما هي الحال في انفجار آبار النفط البحرية، أو بطريقة متعمدة كما حدث في حرب الخليج، ومن قبل في الحرب العراقية الإيرانية . كما تتعمد بعض الناقلات البحرية إلقاء المياه المستعملة في غسيل خزاناتها في أعالي البحار، أو قبالة سواحل بعض الدول التي ليست لديها تشريعات قانونية لحماية بيئتها البحرية ومياهها الإقليمية . ويؤدي تلوث المسطحات المائية بالنفط إلى موت طيور البحر والأسماك والدلافين والأحياء المائية الأخرى .

٤ـ المبيدات الحشرية:

تنساب المبيدات الحشرية ـ التي ترش على المحاصيل الزراعية ـ مع مياه الصرف إلى المصارف. كما تتلوث مياه الترع والقنوات التي تغسل فيها معدات الرش وآلاته بهذه المبيدات. ويؤدي ذلك إلى قتل الأسماك والأحياء المائية، وأيضا نفوق المواشي والأنعام التي تشرب من المياه الملوثة بهذه المبيدات.

٥ـ المفاعلات النووية:

تتسبب المفاعلات النووية في التلوث الحراري لمياه المسطحات المائية، وذلك حينما يتم تصريف المياه ـ المستعملة في تبريد هذه المفاعلات ـ إلى هذه المسطحات. ويؤدي ذلك إلى إلحاق أضرار كبيرة بالأحياء المائية، مع احتمال حدوث تلوث إشعاعي للمياه.

٦ـ المواد البلاستيكية:

كما يؤدي إلقاء المواد البلاستيكية في المسطحات المائية إلى قتل الأسماك والطيور والثدييات البحرية، أو إلحاق الضرر بها. فصغار السلاحف البحرية ـ على سبيل المثال ـ تلتهم أكياس البلاستيك العائمة، ظنا منها أنها قناديل البحر التي تشكل وجبات لذيذة لها، ومن ثم تموت نتيجة انسداد أمعائها بهذه الأكياس البلاستيكية المستعملة في أدوات صيد الأسماك، مما يتسبب في موتها شنقا بهذه الخيوط.

وتخدع حبيبات اللدائن ـ التي تستعمل كمادة أولية في صناعة منتجات البلاستيك ـ الطيور البحرية حينما ترى هذه الحبيبات طافية فوق سطح الماء، فتظنها بيض سمك طافيا فتلتقطها، وتتجمع تلك الحبيبات في أمعائها وتقودها إلى الموت البطيء. والأمر المزعج في مشكلة التلوث المائي بالبلاستيك هو أن هذه المواد لا تتحلل في الماء، ومن ثم تظل، بشكل عام، مَصْدَرَ خَطَرٍ على الأحياء المائية.

٧ـ الرصاص:

وتتعرض المسطحات المائية للتلوث بالرصاص نتيجة لغرق السفن التي تحمل منتجات كيميائية يدخل الرصاص في تكوينها، أو عندما تلقي بعض المعامل الكيميائية ـ المطلة على هذه المسطحات ـ نفاياتها وفضلاتها إلى المياه البحرية.

وتقوم التيارات المائية بدور كبير في نقل المياه الملوثة بالرصاص من مكان إلى آخر. ويتركز الرصاص في الأنسجة اللحمية للأسماك والأحياء المائية، ومنها ينتقل إلى الإنسان، مؤديا بذلك إلى حوادث التسمم بالرصاص التي تسبب الموت البطيء، وهلاك خلايا المخ.

ومن أكثر المسطحات المائية تلوثا بالرصاص: المحيط الأطلنطي. وقد ارتفعت نسبة الرصاص في مياه الناحية الشمالية منه خمس مرات في غضون الأعوام الخمسين الأخيرة، ولا يقتصر التلوث على المياه السطحية، بل يشمل مياه الأعماق. وكذلك البحر الأبيض المتوسط، حتى كتب بعض الباحثين في البيئة فصلا تحت عنوان (البحر الأبيض يموت).

٨ـ الزئبق:

ومن الملوثات المعروفة: الزئبق، وهو في حالته العنصرية غير قابل للذوبان في الماء، ولكنه في حالته المتأينة يمكن أن يدخل في تركيب المركبات السائلة، التي تصرف ضمن مياه الصرف الناتجة عن المصانع الكيميائية إلى البيئة البحرية أو النهرية، أو غير ذلك من المسطحات المائية الأخرى.

ومن أهم المصادر الملوثة للمياه بعنصر الزئبق ما يلي:

أـ المخلفات الصناعية (كيماويات ـ بتروكيماويات ـ معادن ـ . . . إلخ).

ب ـ محطات تقطير المياه.

ج ـ المخلفات والنفايات.

د ـ مياه الصرف الزراعية.

هـ ـ مصانع إنشاء السفن ومخلفاتها .

و ـ المياه المستخدمة في استخراج المعادن .

ز ـ مخلفات مياه المجاري .

ولقد قدرت كمية الزئبق الناتجة عن المخلفات الصناعية بـ ١٢,٥٠٠ طن زئبق/ سنويا ، وتعد الزيوت والمبيدات المتسخدمة لمكافحة الفطريات Fungi-cides وأنواع أخرى من الفطريات الغروية Silmicides من أخطر المصادر الملوثة للبيئة البحرية بعنصر الزئبق .

ويتضح خطر الزئبق في أنه ينتقل خلال سلسلة الغذاء من النباتات أو الأسماك إلى الثدييات والبشر .

والزئبق يهاجم خلايا المخ والجسم ويقتلها ، ولا يوجد علاج حقيقي لحالات التسمم الناتجة عن الزئبق .

٩ ـ الكادميوم:

يستخدم الكادميوم في صناعة الزنك ، وأصباغ المواد البلاستيكية ، والدهانات . كما يستخدم في طلاء الخزف ، وفي عدد من الصناعات الكيميائية والتحويلية .

وحينما يتم تصريف النفايات الصناعية المحتوية على الكادميوم إلى المسطحات المائية ، يمكن أن يتجمع هذا العنصر السام في أنسجة الأحياء المائية ، ومن ثم ينتقل إلى الإنسان عند تناوله الأغذية المحتوية على هذه الأحياء .

وقد زادت نسبة تلوث المسطحات المائية بالكادميوم في السنوات الأخيرة .

ويتسبب التسمم بالكادميوم في إحداث تغيير في تركيب الدم ، وفي تقليل حجم المصابين بهذا التسمم ، نظرا لأنه يهاجم العظام ويؤدي إلى قصر طولها .

تلوث مياه الأمطار:

تتلوث الأمطار ـ وبخاصة في المناطق الصناعية ـ لأنها تجمع في أثناء سقوطها من السماء كل الملوثات الموجودة بالهواء، مثل أكاسيد النتروجين وأكاسيد الكبريت وذرات التراب.

وتذوب الملوثات الغازية التي تنفثها المصانع الحديثة في مياه الأمطار أثناء سقوطها، مما يؤدي إلى تلوث المسطحات المائية والتربة التي تتساقط عليها هذه المياه.

تلوث المياه الجوفية:

تتلوث المياه الجوفية بجميع المواد الكيميائية التي تتسرب إلى أماكن وجود مكامن هذه المياه. كما تتلوث أيضا بفعل تسرب مياه المجاري، أو تسلل مياه الأمطار الحمضية إلى الطبقات الجيولوجية التحت سطحية للقشرة الأرضية.

ويمكن أن تتلوث المياه الجوفية ببعض المعادن والأملاح التي تكون في صخور الطبقات الحاملة لهذه المياه[1].

امتداد هذا التلوث:

على أن تلوث الماء لا يقتصر عليه وحده، بل ترى هذا التلوث الخطير أثر في كثير من عناصر البيئة. فقد أثر في التربة التي تسقى بالماء، وبالتالي أثر في الأشجار والزروع التي تشرب الماء، وتتغذى من التربة، وأثر بطبيعة الحال في الغذاء، الذي يعيش به الإنسان والحيوان، فهي دورة متصلة، وحلقة مفرغة لا يدرى أين طرفاها.

---

(١) اعتمدنا في هذا الموضوع على كتاب (البيئة مشاكلها وقضاياها) للمهندس محمد عبد القادر الفقي ص٥٢ ـ ٦٩.

كيف نحمي الماء من التلوث؟:

هناك عدة وسائل وأساليب يمكن استعمالها في مكافحة تلوث المياه، مثل :

١ـ معالجة مياه المجاري قبل تصريفها إلى المسطحات المائية .

٢ـ استعمال الوسائل الميكانيكية لتجميع النفط الطافي فوق المسطحات المائية .

٣ـ تطهير مياه الشرب، باستعمال الأوزون أو الكلور أو الأشعة فوق البنفسجية .

٤ـ التخلص من الطحالب والنباتات المائية الملوثة لمياه الأنهار بالوسائل الميكانيكية .

٥ـ معالجة مخلفات المصانع قبل تسريبها إلى المسطحات المائية .

غير أن الوسيلة المثلى لحماية الماء من التلوث هي تجنب إلقاء الملوثات فيه .

والإسلام بلا ريب يبارك هذه الوسائل، ويرحب بكل وسيلة جديدة يبتكرها البشر لحماية الماء من التلوث، أو لعلاج ما وقع منه، فإن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب .

وهو ـ من غير شك ـ يحرم تعمد إلقاء الملوثات في الماء، لما يترتب عليها من ضرر لملقيها ذاته، ولغيره من الناس، وقد حرم الإسلام الضرر والضرار .

ومن ناحية أخرى نرى أن إلقاء هذه الملوثات لون من الإفساد في الأرض، الذي نهى عنه القرآن في آيات كثيرة . وقد قال تعالى في قصة موسى : ﴿ وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ (البقرة : ٦٠) .

فقد أمرهم الله تعالى أن ينتفعوا بهذا الماء المتفجر من العيون، فيشربوا منه، ويأكلوا مما أنبت الله من زرع وثمر، ولا يعثوا في الأرض مفسدين .

ولقد ذكرنا من قبل في حديثنا عن (النظافة والتطهير) ما ورد من نهي عن البول في الماء الراكد، أو الماء الجاري، وعن التبرز في الماء وفي الظل وفي الطريق، وعن كل ما يؤذي الناس ويلوث بيئتهم، فليرجع إليه.

تلوث الهواء

الهواء هو هذا المخلوط الغازي الذي يملأ جو الأرض، ويحيط بها من كل جانب، بما في ذلك بخار الماء.

وقد كان فلاسفة اليونان قديما ـ وعنهم أخذ الفلاسفة المسلمون ـ يعتقدون أن الهواء هو واحد من (العناصر الأربعة) التي يقوم عليها الكون كله. وهي التراب والماء والهواء والنار، وكان هذا من الحقائق العلمية الثابتة عندهم بمقاييس زمانهم، وحسب معارفهم المسلّمة.

فلما كانت النهضة العلمية الحديثة تبين أن هذه الأشياء التي ظنوها عناصر بسيطة إنما هي مركبات من عناصر شتى.

فالماء مركب من الأكسجين والهيدروجين، والتراب مركب من بضعة عشر عنصرا، والهواء مركب من نحو مائة عنصر، أهمها عنصران رئيسان، هما: النتروجين ويمثل نحو ٠٨٤ ,٧٨٪ منه، والأكسجين ويمثل ٩٤٦ , ٢٠٪ منه. والواحد في المائة عناصر أخرى تكوِّن نسبا ضئيلة في تكوين كتلة الهواء.

ومن المعروف أن غاز النتروجين غاز خامل، بخلاف الأكسجين فهو غاز نشيط كيمائيا، وهو غاز في غاية الأهمية، لحاجة الإنسان والكائنات الحية إليه، التي يدخل في تكوين خلاياها الحية، وبنسبة تبلغ ربع مجموع الذرات الداخلة في تركيبها.

ومن التقدير الإلهي لهذا الكون: أن جعل النتروجين ـ وهو الغاز الخامل ـ نحو ٧٨٪ من الهواء، إذ لو كانت نسبته أقل، ثم سقطت شرارة كهربائية من

الفضاء الخارجي نحو الأرض (وهو ما يحدث أحيانا) لاحترق كل شيء على سطح الأرض[1].

ويقدر عمق الهواء بما لا يقل عن (٦٠) كيلو متر، ويحتاج الفرد منه في اليوم إلى ١٥ كيلو جرام في اليوم، لاحتوائه على غازات مهمة، أهمها الأكسجين اللازم لعملية التنفس، والذي بدونه لا تستمر الحياة سوى دقائق معدودة. على حين يمكن للإنسان أن يعيش أياما طويلة بلا غذاء أو ماء، لقلة حاجته إليهما بالنسبة للهواء، إذ يحتاج إلى ٥ , ١ كيلو جرام من الطعام في اليوم، وإلى ٥ , ٣ كيلو جرام من الماء[2].

والناظر في القرآن لا يجد كلمة (الهواء) مذكورة فيه، إلا ما ورد منكرا في قوله تعالى في شأن الظالمين يوم القيامة: ﴿وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ (إبراهيم: ٤٣) ومعنى كلمة هواء هنا: أي خلاء. أي خالية من العقل والفكر، لفرط الحيرة والدهشة.

ولكن الذي ذكر في القرآن بديلا عن الهواء: كلمة (الريح) مفردة ومجموعة (الرياح) وقد ذكرت (٢٧) سبعا وعشرين مرة. والمقصود بها: الهواء المتحرك في الطبقات المحيطة بالأرض.

وهذه الريح هي التي تسوق السحاب أو تحمله، حتى ينزل مطرا يحيي الله به الأرض بعد موتها، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ (الأعراف: ٥٧).

ومن فوائد الرياح أنها تساعد على حركة السفن الشراعية، لتجري في البحر بأمر الله، ليبتغي الناس من فضله ولعلهم يشكرون. وللرياح دور في إحداث التيارات المائية التي تؤدي إلى توزيع الكائنات الحية في الوسط المائي.

---

(١) انظر: البيئة: مشاكلها وقضاياها ص٣٤.

(٢) انظر: البيئة والتلوث لخالد محمود عبد اللطيف ص ٢٩.

كما أن لها دورا في انتقال وتوزيع وهجرة أنواع كثيرة من الطيور والحشرات. وفي الحياة النباتية تقوم الرياح بدور مهم في نقل اللقاح، مما يؤثر في عملية الإخصاب، ونشر النباتات وتوزيعها[1].

وفي القرآن إشارة إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ﴾ (الحجر: ٢٢).

ولكن الريح قد تضر وتؤذي إذا كانت عاصفة، وقد تكون أداة من أدوات العقاب الإلهي للناس إذا ظلموا، أو على الأقل مذكرا لهم، كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ (يونس: ٢٢).

وقال تعالى في شأن المشركين: ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (آل عمران: ١١٧).

وقد أهلك الله (عادا) بالريح حين كفروا واستكبروا في الأرض بغير الحق، وقالوا: من أشد منا قوة؟ ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾﴾ (الذاريات: ٤١، ٤٢).

وقت تشتد الريح وتهيج في بعض الأحيان، وقد تحمل الغبار أو السخونة، فيتأذى منها بعض الناس، ويسبونها، ناسين أنها مسخرة بأمر الله. وماضية وفق سنته التي لا تتبدل.

---

(١) انظر: قضايا البيئة من منظور إسلامي لعبد المجيد النجار، نقلا عن (علم البيئة) لعلياء حاتوغ ومحمد حمدان ص ٩٢.

ومن هنا جاء نهي رسولنا صلى الله عليه وسلم عن سب الريح في أكثر من حديث، منها: «لا تسبوا الريح، فإنها من روح الله تعالى، تأتي بالرحمة والعذاب، ولكن سلوا الله من خيرها، وتعوذوا بالله من شرها»[1]. ومعنى أنها من روح الله: أنها من رحمته التي يريح بها عباده.

وفي حديث آخر: «لا تسبوا الريح، فإذا رأيتم ما تكرهون، فقولوا: اللهم إنا نسألك من خير هذه الريح، وخير ما فيها، وخير ما أمرت به، ونعوذ بك من شر هذه الريح، وشر ما فيها، وشر ما أمرت به»[2].

ومن الشر الذي يمكن أن تأتي به الريح في عصرنا، ويتعوَّذ بالله منه: نقل الملوثات من قطر إلى آخر، بل من قارة إلى أخرى، وبخاصة الموجات الإشعاعية، كما حدث في المفاعل النووي السوفيتي (تشيرنوبيل) وانتشار خطره إلى مساحة واسعة من العالم بواسطة الرياح.

إن نعمة الهواء نعمة عظيمة، وعلى الإنسان أن يتعامل معها بما يليق بها من الشكر لمانحها تبارك وتعالى، بحيث لا يلوث هذا الهواء ولا يفسده، فيضر نفسه، ويضر غيره من خلق الله.

ولكن الذي يؤسف له أن الإنسان غلبته الأنانية وحب العاجلة، وشهوة الاستمتاع، فأساء إلى نعمة الهواء، كما أساء إلى غيرها، وحدث التلوث الذي أصبح بلية العصر.

---

(١) رواه أحمد عن أبي هريرة في ثلاثة مواضع من المسند (٢/ ٢٦٨، ٤٠٩، ٥١٨) وابن ماجه في الأدب (٣٧٢٧) وذكره في صحيح الجامع الصغير (٧٣١٦).

(٢) رواه الترمذي عن أبي بن كعب في الفتن (٢٢٥٣) وقال: حسن صحيح. قال: وفي الباب عن عائشة وأبي هريرة وعثمان بن أبي العاص وأنس وابن عباس وجابر. والحديث رواه أحمد (٥/ ١٢٣) والبخاري في الأدب المفرد (٧١٩) والنسائي في عمل اليوم والليلة (٩٣٣) بتحقيق فاروق حمادة. مؤسسة الرسالة. بيروت. وفيه (ما أرسلت به) بدل (ما أمرت به) ونقل عن ابن عباس قوله: الرياح ثمانية: أربع للرحمة: المبشرات والمثيرات والمرسلات والرخاء. وأربع للعذاب: العاصف والقاصف، وهما في البحر، والصرصر والعقيم وهما في البر. وقال عبيد بن عمر: يبعث الله ريحا، فتقم الأرض (تكنسها) ثم يبعث الله المثيرة، تثير السحاب، ثم يبعث المؤلفة فتؤلفه، ثم يبعث اللواقح فتلقح الشجر... وهذا التفصيل والتشقيق مقتبس من القرآن الكريم، كما هو ظاهر لمن تأمل الآيات الكريمة.

كيف يتلوث الهواء؟

يعتبر تلوث الهواء من أعظم أخطار البيئة في الوقت الحاضر، ولذا عظم الاهتمام به، ويطلق تعبير التلوث عند تغير صفات الهواء الفيزيائية أو الكيمياوية . . أي عندما يحمل الهواء أي مادة أو عنصر غريب لا يوجد في مكونات الهواء النظيف الجاف. أو يكون بنسبة زائدة عن الحد الطبيعي، ولكن قل أن يخلو الهواء الذي نستنشقه من تلوث عارض بغازات أو مواد سائلة أو صلبة، وقد يكون بينها كائنات حية.

ومصادر هذا التلوث إما أن تكون طبيعية، وإما أن تكون مصادر صناعية ناجمة عن عمل الإنسان ونشاطه الصناعي.

(١) تلوث الهواء من مصادر طبيعية:

أي ما يلوث الهواء مما لا دخل لعمل الإنسان فيه، ويتضمن:

(أ) بخار الماء في شكل ذرات دقيقة من الماء تدعى الضباب (Fog).

(ب) الغبار (Dust) وفيه ذرات معدنية وترابية ومواد من منشأ حيواني ونباتي، بما في ذلك غبار الطلع.

(ج) البكتيريا والفطريات وجراثيمها.

(د) الأملاح «الناجمة عن رذاذ البحار والمحيطات».

(هـ) مركبات مروحة ناجمة عن التنفسات الحيوانية والنباتية قد تؤدي إلى تكوين روائح كريهة مزعجة.

(و) نواتج الاحتراق ذات المنشأ الطبيعي «حرائق الغابات، وثوران البراكين . . إلخ».

(ز) مواد ناشطة الإشعاع Radio Active.

ومن المحتمل كذلك أن تزداد مستويات الإشعاعات الفعالة الطبيعية كلما

ازداد سطح الأرض اضطرابا بمخلفات الإنسان وأعماله التي تزيد على حدودها ومألوفها الطبيعي، ومن المحتمل ألا يكون لمثل هذه المصادر الطبيعية لتلوث الهواء سوى أثر زهيد ودور محدود في أمراض البشر، عدا العوامل الميكروبية المرضية التي يمكن أن تحدث زيادة ملحوظة في نسبة الأمراض إثر بعض العواصف، وهي التي تحدث الأمراض السارية بالهواء، إذ إن الميكروبات أو المادة المعدية إما أن توجد في الهواء في شكل ذرات دقيقة صادرة مباشرة عن منبع في شكل قطيرات، وإما أن توجد في الغبار وتستنشق عند إثارته، حاملة معها العامل الإنتاني، وهذه القطيرات أو الأبخرة الحاملة للميكروب تصل إلى الطرق التنفسية العلوية للسليم لتحدث المرض. هذا المرض الذي يختلف عن الذي ينتقل بالماء والغذاء بأن حلقة السريان بين مصدر الجمع وبين متلقيه لا يمكن فصمها بسهولة، مما يجعل مكافحة الأمراض الإنتانية السارية بالهواء صعبة نوعا ما، وتعتمد بشكل رئيسي على زيادة مقاومة الشخص السليم بإجراء التمنيع ضد هذه الأمراض.

(٢) مصادر من صنع الإنسان:

أهم مصدر مألوف لتلوث الهواء وفساده من صنع الإنسان هو نواتج الاحتراق، وقد ينجم هذا التلوث عن البيوت أو المواصلات كالسيارات والقطارات والدراجات أو عن المصانع، وهي مهمة جدا في الأقطار العربية، وذلك لعدم التقيد بتطبيق الشروط الخاصة بها ولدخول صناعات جديدة للأقطار لا قبل لها بها، وينتظر - كما يتنبأ البعض - أن تزداد باضطراد كثافة هذه المواد الملوثة في المستقبل في المناطق الصناعية والمجتمعات المدنية، حتى يطرأ تبدل في السيطرة على نواتج الاحتراق أو تغيير وسائلها.

ولقد ثبت وجود أكثر من مائة مادة من نواتج الاحتراق يمكن ذكرها، أهمها:

١ - مركبات الكبريت: كثاني أكسيد الكبريت وكبريتيد الهيدروجين.

٢ - مركبات الفلور.

٣ـ أكاسيد الأزوت .

٤ـ أول أكسيد الكربون .

٥ـ الألدهيدات وبعض الفحوم الهيدروجينية «الأيدروكربونات» .

التلوث بالأدخنة الضارة:

ومن ملوثات الهواء : انتشار الأدخنة التي تظهر من المصانع وغيرها . وأشدها خطرا : الأدخنة الملوثة بالإشعاع ، مثل إشعاع اليورانيوم ، ولا سيما ما يسمونه (اليورانيوم المنضَّب) والذي يستعمل في الحروب ، وقد استعمله الأمريكان في حرب الخليج ، وخلفوا آثارا شديدة الخطر ، عميقة الأثر ، شديدة الفتك بالبشر .

وفي القرآن الكريم سورة تسمى (سورة الدخان) وفيها يحذر القرآن من دخان ينتظر الناس ، يحمل العذاب الأليم ، ويرد الناس إلى فطرتهم ، فيعودون إلى ربهم داعين مستغيثين ، شأن الإنسان إذا مسه الضر دعا ربه منيبا إليه ، حتى إذا كشف عنه الضر نسي ما كان يدعو إليه من قبل .

تقول سورة الدخان : ﴿ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ (الدخان : ١٠ ـ ١٦) .

وقد فسر سيدنا عبد الله بن مسعود أن هذا الدخان قد وقع ، وأنه لون من ضبابية الرؤية أصابت الناس من الجهد والجوع والقحط الذي أصاب أهل مكة من المشركين ، بسبب دعوة الرسول عليهم أن يبتليهم بسنين كسني يوسف . وحديث ابن مسعود مخرج في الصحيحين[١] .

(١) انظر : تفسير ابن كثير (٤/ ١٣٨) طبعة عيسى الحلبي .

ولا مانع أن يراد هذا من الآية، ولكن ليس هذا هو المعنى الوحيد لها، وإلا لكانت الآية قد فقدت مدلولها بما وقع لقريش، ولم تعد تعني أحدا اليوم. والواقع أن البشرية تعاني اليوم - وقد تعاني غدا أكثر وأكثر - من هذا الدخان المبين الذي يغشى الناس، ويقولون: هذا عذاب أليم. ويقول كثير منهم: ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون.

وقد روى مسلم في صحيحه أن هناك عشر علامات تظهر قبل قيام الساعة منها: الدخان[1].

ولعل ما نراه ونحسه ونلمسه في حياتنا المعاصرة من الأدخنة المختلفة، هو نوع من هذا (الدخان المبين) كما وصفه القرآن الكريم.

أثر تلوث الهواء:

يختلف تأثير الهواء باختلاف حجم الذرات العالقة فيه، فالذرات الكبيرة والتي ما فوق «٣٠٠٠» ميكرون الدقيقة المنتشرة في الجو المحيط بالناس - والتي تتضمن الدخان - تضعف من الرؤية، وتؤدي إلى اتساخ الثياب السريع، وتراكم السناج على الأبنية والسطوح المكشوفة، بالإضافة إلى ما تسببه من روح الكآبة النفسية في الجماهير، وهي التي تلفت انتباه الجماهير. وتكون هذه الذرات التي هي أصغر حجما من ميكرون واحد، فإنها تبقى معلقة في الهواء، ولا تسقط من ذاتها. بل تحتاج إزالتها إلى الترشيح أو الترسيب، وهي التي تصل للأجهزة التنفسية العميقة، وتحدث الأمراض المزمنة فيها، وتتناسب كثافة الذرات اضطرادا مع عدد مصادر تلوث المجتمع وشدتها، ويمكن إجمال أثر تلوث الهواء على الصحة العامة فيما يلي:

١- إنقاص كميات الأشعة ما فوق البنفسجية الواصلة لمستوى الأرض.

٢- إنقاص كميات الإضاءة الطبيعية.

---

(١) رواه مسلم من حديث حذيفة بن أسيد الغفاري. المصدر السابق.

٣ـ زيادة الضباب المحتوي على كميات كبيرة من مواد صناعية كبريتية وغيرها، تكون خطيرة على الصحة.

٤ـ تأثير مثبط على النباتات الطبيعية ومخرب للمصانع والأبنية.

٥ـ ازدياد تكلفة المحروقات «لعدم حدوث الاحتراق الكامل».

٦ـ ازدياد نسبة المواد المسرطنة في الهواء.

٧ـ ازدياد نسبة الإصابة والوفيات بالأمراض التنفسية[1].

تلوث تربة الأرض:

الأرض: هي هذا الكوكب الذي نعيش على ظهره، بما فيه من يابسة وبحار ومحيطات تكون نحو ٧٠٪ منها، وما عليها من جبال راسيات، وما في جوفها من حمم وطبقات، وما يتصل بها من الغلاف الغازي، وما تشتمل عليه تربتها من صحاري قاحلة، ومن مساحات خضراء. وما تحويه من كائنات حية، عاقلة أو غير عاقلة.

وقد ذكرت كلمة (الأرض) في القرآن (٤٥٠) أربعمائة وخمسين مرة، معرفة بالألف واللام، يراد بها في معظمها (ما يقابل السماء). وفي بعض المواضع يراد بها جزء من الأرض، كما جاء في قصة يوسف: ﴿اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ﴾ (يوسف: ٥٥).

وقد يراد بها أرض الجنة ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ (الزمر: ٧٤).

وفي آية واحدة ذكرت (الأرض) مصدرا من (أرض) يأرض. كما في قصة سليمان ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ﴾ (سبأ: ١٤).

---

(١) انظر: البيئة والتلوث من منظور إسلامي لخالد محمود عبد اللطيف ص ٢٩ ـ ٣١ بتصرف. نشر دار الصحوة بالقاهرة.

وكثيرا ما تذكر الأرض في القرآن في معرض الامتنان والإنعام من الله تعالى، كقوله: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ (البقرة: ٢٢) ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَادًا﴾ (النبأ: ٦) ﴿وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴿٣١﴾ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴿٣٢﴾ مَتَاعًا لَكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ ﴿٣٣﴾﴾ (النازعات: ٣٠-٣٣) ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً﴾ (الملك: ١٥).

ولقد هيأ الله عز وجل تربة الأرض لمنفعة الإنسان، فهي صالحة للزرع والإنبات، وهي صالحة للسير والحركة عليها، وهي صالحة للإقامة والاستقرار في ربوعها. وهذا معنى الامتنان بجعلها فراشا ومهادا وبساطا وذلولا.

وبهذا نرى أن الأرض - كما خلقها الله - صالحة طيبة، وإنما يدخل عليها الفساد والخبث والتلوث على يد الإنسان الذي استخلفه الله فيها، فلم يرع - في أحيان كثيرة - أمانة الاستخلاف، وعاث في الأرض فسادا، فلوثها بعد طهر، وأفسدها بعد صلاح. وخصوصا في عصرنا هذا، وفي العقود الأخيرة منه، فقد تضاعف التلوث والفساد.

فمن أي شيء كان التلوث في تربة الأرض؟

التلوث بالفضلات الصلبة:

لم تكن التربة ملوثة بحكم الخلقة، فقد خلقها الله طيبة لا تلوث فيها، وإنما لوثها الإنسان، كما علمنا.

ولم يلوثها الإنسان بإلقاء مواد عضوية الأصل في البيئة فقط، بل نتيجة للتطور الصناعي الهائل أخذ الإنسان يلقي بمواد لم تكن موجودة أصلا في الطبيعة، بل تقف الطبيعة عاجزة عن معالجة هذه المواد، فتتراكم لتشكل أكواما كثيرة جدا تشغل مساحات واسعة من الأراضي اللازمة لإنتاج الغذاء.

تلوث التربة بالكيماويات:

لقد شاع استعمال الأسمدة والمبيدات نتيجة للتكثيف الزراعي، ومع مزيد الأسف اعتبرت التربة في هذه الحالة كأنها مستودع للأسمدة ولم ينظر إليها كجهاز حي له ردود فعل، فكثرت الأسمدة الآزوتية والفوسفاتية والبوتاسية وأضيفت بكميات هائلة، مما نجم عنه تدهور الصفات الكيميائية والفيزيائية لهذه التربة، وخروجها من دائرة الإنتاج الزراعي، إضافة لما تحدثه كثرة هذه المخصبات من آثار سلبية على التربة، تؤدي أيضا إلى تلوث الأنهار والبحيرات، نتيجة إلقاء الكميات الزائدة منها في هذه المسطحات، وجعل مياه هذه الأنظمة غير صالحة للشرب، وذلك لكون هذه المادة مسببا لبعض أنواع السرطانات.

كما تزايد استعمال المبيدات في جميع المجالات وخاصة الزراعية منها وقد أدى رش المبيدات بكثرة على النباتات إلى توضع وتركز هذه المبيدات في التربة وتأثيرها على الأحياء الدقيقة فيها.

إن الأثر السيّئ للمبيدات يكمن في أثرها التفاضلي على الأحياء فتخل بذلك من التوازن البيولوجي الطبيعي في التربة.

تلوث التربة بالمخلفات السائلة:

إن ري التربة بالماء الملوث بالمخلفات الإنسانية دون معالجة هذه المخلفات، يؤدي إلى انتشار الجراثيم في التربة، وانتقال هذه الأحياء إلى الإنسان عند استهلاكه للخضراوات، وبخاصة الورقية منها، كما يؤدي الري بمياه المجاري أيضا إلى تملح التربة على المدى البعيد، وتهدم بنيتها الفيزيائية، وذلك بفعل انسداد مسام التربة بالمواد المعلقة الدقيقة.

إن خير مثال على ذلك هو ري أراضي الغوطتين في سورية بمياه بردي الملوثة بمختلف أنواع الملوثات، والذي يقوم حاليا بدور الكولون.

إن الخطر الأكبر في ري التربة بمياه المنظفات ومياه المجاري ومخلفات

المصانع وما تلقيه ورش إصلاح السيارات من زيوت، يكمن في إصابة التربة بالعقم، وقتل مختلف أشكال الحياة فيها، إضافة إلى تلوث الماء الجوفي[1].

الوسائل المكافحة لتلوث التربة:

١ ـ الوقاية خير من ألف علاج. رحم الله من قالها: لما نخسر الملايين على أمر إذا ابتعدنا عنه لم نخسر إلا القليل؟ فلذلك أول وسيلة للمكافحة هي الوقاية.

٢ ـ نشر الوعي بين الناس مما يخفف من التكلفة، ويساعد في عدم تلويث التربة، لأن المسبب الأول هو الإنسان، وبالتالي ينبغي ردعه عن رمي فضلاته في قارعة الطريق.

٣ ـ التخطيط وزيادة الاكتشاف، مما يسمح بتحويل المواد غير المفيدة إلى مواد مفيدة وهذا ما حصل فعلا في مشكلة الأوراق حيث أعيد استخدامها.

٤ ـ إصدار القوانين الصارمة في شأن المخالفين.

٥ ـ استصلاح الأراضي المالحة عن طريق زراعات النباتات البقولية، أو غسلها وبالتالي زراعتها.

٦ ـ إجراء الحراثة مما يساعد في تهوية التربة وترطيبها، كما كان يفعل الفلاحون قديما.

٧ ـ إزالة الأعشاب الضارة، وإجراء المكافحة الحيوية، وقتل الأحياء الضارة، وزيادة الأحياء النافعة.

٨ ـ المحافظة على التوازنات الطبيعية في البيئة: لأن جميع النظم تؤثر بعضها على بعض. فأي خلل في نظام يؤدي إلى خلل الأنظمة ككل.

٩ ـ عدم قطع الأشجار حتى لا يسبب أي ضرر للتربة في زيادة مساحة الأراضي البور.

---

(١) انظر: أهم المشكلات البيئية ص٢٦ ـ ٢٧.

١٠ ـ الاعتناء بنظافة المياه الجوفية والسطحية .

وما أصدق وأبلغ هذه الكلمات :

الحياة قصيرة وكلنا ضيوف عليها ، فيا حبذا أن نعيشها خالين من الأمراض ، أصحاء سليمين . ولا يتم ذلك إلا إذا عرفنا ما هو لنا وما هو علينا : أن نعمل لكي نعيش ويعيش غيرنا ، وأن نضع نصب أعيننا أن نفكر قبل أن نعمل ، وأن يسبق فكرنا أيدينا ، وأن نبني ليعيش أحفادنا لا أن نعيش فقط نحن . يجب عندما نزرع شجرة أن نفكر كم سيدعو أحفادنا لنا ، وعندما نقطع شجرة كم سيكون حقدهم علينا[1] .

وقد قال الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ ﴾ (الحشر : ١٠) .

التلوث بالمبيدات الحشرية:

وهناك أنواع أخرى من التلوث ، لها آثار خطيرة على الحياة والأحياء وعلى الإنسان ، منها التلوث بالمبيدات الحشرية ، التي انتشر استخدامها في الآونة الأخيرة ، وجنت على كثير من الحشرات والطيور التي كانت تعتبر صديقة الإنسان ، مما تأكل من ديدان الأرض وهوامها .

وأكلت الحشرات من المبيد السام ، وأكل هذه الحشرات بعض الطيور الصغيرة ، وأكل هذه الطيور الصغيرة بعض الطيور الكبيرة ، وهكذا تستمر الدورة التي يبدأها الإنسان ، ولا يعرف نهايتها .

التلوث بالنفايات:

وهو نوع خطير من التلوث ، وخصوصا : النفايات السامة ، والنفايات الذرية ، التي تريد الدول المتقدمة أن تتخلص منها ، فلا تجد إلا البلاد النامية

---

(١) انظر : أهم مشكلات البيئة في العالم المعاصر لمحمود أحمد حميد ، نشر (دار المعرفة) دمشق ص ١٨١ ـ ١٨٢ .

لتجعلها مدفنا لهذه النفايات، وهذا محظور دوليا، ومحظور أخلاقيا، ولكنه جائز سياسيا! في عرف الذين يقولون: إن السياسة لا خلق لها ولا دين، وإن الغاية تبرر الوسيلة. والحق أن غايتهم خبيثة، ووسيلتهم أخبث.

وكثيرا ما يرشون بعض الزعماء والحكام بحفنة من الملايين، حتى يقبل هذه النفايات المدمرة لوطنه، في غفلة من شعبه، الذي لا يدري ما يحاك له، وما يدبر لهلاك حرثه ونسله.

التلوث النفطي:

ومن التلوث المعروف: التلوث النفطي، وقد جربته بلاد الخليج، في حربها: الأولى بين العراق وإيران، والثانية بين العراق والكويت، التي جَرَّت إلى حرب مع أمريكا وثلاثين دولة معها.

وقد أدت الحرب بظروفها وويلاتها ـ عمدا حينا، وغير عمد أحيانا ـ إلى تدفق النفط على مياه الخليج، فأمات ما أمات من أحيائها، وهدد ما بقي منها، وأفسدت آبار النفط المحرقة البيئة مدة من الزمن، ولا يزال لها بقية إلى اليوم[1].

التلوث بالقمامة المنزلية:

وهنا مشكلة أخرى في التلوث لا يستهان بها، وهي تراكم القمامة المنزلية وما أصبحت تنذر به، ذلك لأن تراكمها وإهمال معالجتها يؤدي بالضرورة إلى انتشار الأوبئة الفتاكة، هذا فضلا عن كون انتشارها وتكدسها يعتبر مظهرا غير حضاري بالمرة، ولا يقتصر التلوث الناتج عنها على البيئة السطحية، بل إنه ليمتد إلى باطن الأرض، وإذا كانت القمامة المنزلية وتكدسها قد أصبحت مشكلة عالمية بكل المقاييس، فإن التخلص منها بات أمرا باهظ التكلفة، ففي مدينة «نيويورك» الأمريكية بلغت تكلفة التخلص من طن القمامة ١٥٠ دولارا

(١) انظر في آثار التلوث النفطي، والتلوث بالنفايات السامة، والتلوث بالمبيدات الحشرية كتاب المهندس محمد عبد القادر الفقي: (البيئة: مشاكلها وقضاياها وحمايتها من التلوث).

(نحو ٥٠٠ جنيه مصري) حتى أصبحت ظاهرة إلقاء هذه المخلفات في عرض البحر خفية وخلسة، حتى في تلك الدول التي ترفع شعارات التقدم، والتي أصبحت تقف الآن في طليعة النظام العالمي الجديد، بعد أن هوت قلاع الشيوعية وفلولها، ففي أمريكا لما ضاقت مدافن نفايات القمامة المنزلية عن استيعاب المزيد، تم شحن زورق أمريكي بنحو ٣١٠٠ طن من القمامة المنزلية وبدأت رحلته في ٢٢ من مارس ١٩٨٧م من إحدى مواني «نيويورك» ليلقي هذه الحمولة في عرض البحر خلسة وخفية عن أعين الرقباء من البشر!! إنه تصرف صبياني شائن من دولة تريد قيادة العالم في ظل النظام العالمي الجديد، ولكن تقوده إلى أين؟ إن قُدِّرَ لها أن تقوده فستقوده إلى حيث ألقى ذلك الزورق رَحْلَه!! ستقوده إلى مدافن تلك النفايات، وكيف لا وقد ضرب الإفلاس العقائدي في تلك البقاع أطنابه، فلا منهج، ولا أسوة، ولا قدوة حسنة، ويومها تعرف الدنيا أن الله هو الحق المبين.

التلوث البيئي في المجالات الصناعية:

وهناك تلوثات أخرى في المجالات الصناعية التي أشار إليها بعض الدارسين، وهي آثار متعدية من مكان إلى آخر، بحكم تقارب العالم.

إذ لا يقتصر الأثر الضار للملوثات على المنطقة التي تستخدم فيها أو تعامل بها، بل إن ذلك ليمتد إلى المناطق الأخرى المجاورة لها، إما عن طريق الهواء الجوي، أو عن طريق مياه الري والصرف أو هما معا، مما يكون له أبلغ الأثر في موت الأسماك والطيور، فضلا عن تلوث أعلاف الحيوان وطعام الإنسان، ولا تعجب - أخي القارئ - إذا ما علمت أن أثر هذه المواد يمتد ليصل إلى البحار والمحيطات، ولقد ثبت بما لا يدع مجالا لشاك أن تعرض الإنسان لبعض هذه الملوثات يسبب إصابته بأمراض خطيرة، بل ومستعصية على الشفاء، كالأمراض السرطانية، ولقد ذكر «فيليب سان مارك» أن لبن النساء الأمريكيات لا يصلح لرضاع الأطفال، بسبب احتوائه على مادة د. د. ت. بنسبة أعلى من النسبة التي تسمح بها هيئة الصحة العالمية في الولايات المتحدة الأمريكية.

كما أن بعض العقاقير التي تستخدم في مقاومة الطفيليات تصل إلى أجسامنا عن طريق تلوث الغذاء بها، وهي تتركز في الدهون والدم، ولها آثار عميقة ليست معروفة على وجه الدقة والتحديد، كما أن بعض الأمراض السرطانية وأمراض الدم ترجع - جزئيا - إلى امتصاص العقاقير التي تعتبر نسبة السموم فيها باعثة على القلق.

ونحن نقول: إذا كان هذا يحدث في المجتمع الأمريكي الذي تخضع فيه هذه المواد للرقابة الدقيقة، فضلا عن استخدامها بمنتهى الحيطة والحذر، فما بالنا بالمجتمعات النامية التي ما صُنعت هذه المنتجات خصيصا إلا لتسويقها وتصريفها في ديار هؤلاء المُسْتَضْعَفِين!![1].

التلوث الإشعاعي

يعتبر التلوث بالمواد المشعة واحدا من أخطر صور التلوث ذات التأثير العالي، والكل منا سمع عن حادثة تشرنوبيل، وما نجم عنها من تلوث إشعاعي، شمل القسم الأعظم من أوربا، حيث ينجم التلوث الإشعاعي نتيجة لتزايد استعمال الإنسان للمواد الإشعاعية،

إن التعرض الطويل لأشعة الشمس صيفا يؤدي إلى ما يسمى بضربة الشمس التي كثيرا ما تكون قاتلة، ويتأتى خطر أشعة الشمس من وجود الأشعة فوق البنفسجية فيها، والتي تؤدي إذا استعملت بشكل طبي إلى تنشيط وظائف الجلد والدم والغدد ذات الإفراز الداخلي، حيث يتشكل تحت تأثيرها فيتامين D مما يحسن من نمو العظام وغيرها.

إن الأشعة الضوئية هي أشعة كهربائية مغناطيسية، وكذلك الأشعة فوق البنفسجية هي أيضا أشعة كهربائية مغناطيسية، ولكن طول موجتها أقصر من الأشعة المرئية، وهكذا يزداد خطر الأشعة كلما قصر طول موجتها

---

(١) انظر: البيئة في الفكر الإنساني والواقع الإيماني للدكتور عبد الحكيم عبد اللطيف الصعيدي ص ٦٠ - ٦٢.

فأشعة Roentgen هي أيضا أشعة كهربائية مغناطيسية وذات موجة قصيرة جدا، حيث أدى استعمالها في الحرب العالمية الأولى إلى موت طبيب راديولوجي، إضافة للعاهات المختلفة التي أصابت القسم الآخر كالعقم والصلع والحمى.

وللتلوث الإشعاعي مصادر طبيعية ومصادر صناعية تحدث عنها أهل الاختصاص بتفصيل، ينبغي مراجعته في مظانه.

التلوث الإشعاعي تلوث خفي:

يستطيع الإنسان بحواسه الخمس أن يدرك التلوث البيئي من حوله سواء أكان تلوثا كيميائيا أم ضوضائيا أما التلوث بالإشعاع فهو مما لا تدركه هذه الحواس. ومع ذلك فالأضرار المرتبطة به هي من أعلى أضرار التلوث إن لم تكن أعتاها على الإطلاق.

لقد ارتبط التقدم العلمي والتكنولوجي في زمننا الحديث بالتوسع في الاعتماد على مواد مشعة في مجالات سلمية وعسكرية أما المجالات السلمية فيتعلق معظمها بتوفير الطاقة والبحث العلمي والأغراض الطبية أما المجالات العسكرية فتتلخص في إنتاج أسلحة الدمار الشامل المعروفة بالأسلحة النووية، والمتتبع للتطور على كوكبنا يستطيع أن يتنبأ بيسر بأن اعتماد الإنسان على المواد المشعة سوف يتنافى مع الزمن رغم كل المحاذير والأخطار التي تنشأ، لا تتعلق فقط بالمجالات العسكرية إنما تشمل أيضا المجالات السلمية على حد سواء.

خطر في الحرب وخطر في السلم:

إلى عهد غير بعيد كان الإستراتيجيون العسكريون في العالم مقتنعين بأن توازن قوى الردع النووي من دول العالم كفيل بأن يجنب البشرية أخطار الترسانات النووية مرة بعد أخرى ولكن الأحداث تثبت أن هذه النظرية أقرب

إلى الوهم، ومما يدعو للقلق أن أعداد الحكام حتى لدول العالم الثالث الذين يسيل لعابهم على الأسلحة النووية في تزايد مستمر يحدثنا التاريخ عن حكام جهلاء مغرورين لا يقدرون عواقب قراراتهم حق قدره وهؤلاء قد يجعلون خطر الصراع النووي أكثر احتمالا مما يتعود المتفائلون. أما في زمن السلم فيكفي أن تقع حادثة مثلا في أحد المفاعلات النووية التي تستخدم لتوليد الطاقة لكي يتسرب منها الإشعاع النووي مما يهدد الأحياء المحيطة به.

أخطار الإشعاع المتنامي:

يزداد اعتماد الإنسان على المواد المشعة باطراد. ومن المؤكد أن هذا التنامي لن يتوقف في المستقبل المنظور، بل على النقيض من ذلك سوف يتكثف، ويكفي النظر في مجال واحد من مجالات استخدام المواد المشعة لكي يترسخ الانطباع لدى الرأي بذلك. هذا المجال هو إنتاج الطاقة: تدل الإحصاءات على أن معدل استهلاك الفرد من الطاقة يزداد في شتى أنحاء العالم يوما بعد يوم، بينما ينضب المصدر الأكبر من الطاقة الآن وهو النفط.

ويتفق المعنيون بشئون الطاقة ومصادرها على أن الطاقة النووية هي أنسب البدائل لذلك، فالمفاعلات النووية التي تحول الطاقة الإشعاعية إلى كهرباء، أصبحت منتشرة في شتى بقاع العالم، وتزداد أعدادها باستمرار، والآن نجد الدراسات منصبة على توفير الطاقة من مصادر أخرى كالشمس والهواء. لم تبلغ حدة الدراسات في تقدمها ما بلغته الدراسات الخاصة بتوفير الطاقة من المواد المشعة. هناك أمران يثيران معظم مخاوف المعنيين بسلامة البيئة:

١- أن استخدام المواد المشعة من أجل توفير الطاقة سوف تنجم عنه نفايات مشعة يمثل التخلص منها مشكلة معقدة.

٢- أن المفاعلات النووية هي في الواقع براكين إشعاعية قابلة للثورة في أي وقت، إما من خلال إصابتها بالقذائف أثناء الحرب، أو بسبب القصور والأغلاط، وهي واردة ما دام الذين يصممون هذه المفاعلات ويديرونها بشرا.

ونتائج هذا القصور هنا مدمرة للبيئة، ولا شك أن من القراء من سمعوا عما خلفه الجيش السوفيتي من مساحات شديدة التلوث بالإشعاع النووي في مناطق من ألمانيا الشرقية بعد انسحابه منها، وما زال هذا التلوث مشكلة كبيرة أمام المسئولين في ألمانيا بعد توحدها.

أخطار الإشعاع من الحوادث:

تمثل حادثة تشيرنوبيل الشهيرة مثلا فعليا للأخطار التي قد تنشأ عن حوادث سببها القصور البشري. إذ إن التسرب الإشعاعي الذي حدث من المفاعل النووي في تشيرنوبيل كان نتيجة لأخطاء في تصميم هذا المفاعل. ولم تكن هذه الحادثة هي الأولى من نوعها، فقد وقعت حوادث مشابهة في الولايات المتحدة الأمريكية وغيرها من الدول الصناعية، ولكن هذه الحادثة من أخطرها على الإطلاق.

وعلى الرغم من انقضاء كل تلك السنوات على وقوعها، فما زالت آثارها المدمرة مستمرة.

وتعاني روسيا البيضاء من معظم المشاكل، إذ يقدر المختصون أن ٧٠٪ من الإشعاع المتسرب قد أصابها وحدها، وأن ٤٠٪ من مساحة تربتها أصبحت ملوثة بالإشعاع. ولعل أفدح الأخطاء التي اقترفتها الحكومة التي كانت جديدة عند وقوع الحادثة صمتها المطلق من البداية وتعتيمها الإعلامي. ونلاحظ أن التربة الملوثة ما زالت تزرع حتى اليوم ومن ثم فالقمح والخضراوات واللحوم والألبان أصبحت هي الأخرى محملة بالإشعاع. ومع ما يقاسيه ورثة الاتحاد السوفيتي الآن من مشاكل اقتصادية جمة ليس أمام البشر إلا أن يستهلكوا هذه الأطعمة المشعة. وإلا هلكوا جوعا. وتكتمل المأساة بعجز الطب السوفيتي عن التعامل مع الكثير من هذه الأمراض التي قد يمكن التعامل معها في دول غرب أوربا وأمريكا، ويعيش المواطنون اليوم في حالة تقترب من الضياع.

ومن الخطأ الظن أن أخطار تشيرنوبيل مقتصرة على روسيا البيضاء أو

الاتحاد السوفيتي سابقا، فالواقع أن تشيرنوبيل أصبحت بالفعل كارثة عالمية وستبقى كذلك لسنوات لا يعلم مداها إلا الله فالإشعاع ينتقل مع الرياح، وترسبه الأمطار.

ومعاناة البشر اليوم من هذه الكارثة على شدتها لا تقاس بما سوف تعانيه الأجيال القادمة. فالإشعاع يحور من كيمياء العوالم الوراثية، مما يعني بالضرورة أن تشوهات وأحكاما وراثية سوف تظهر في الأجيال القادمة. وسوف تتوارثها في عدد من الأجيال المتعاقبة لا يعلمه إلا الله[1].

ولا نجاة للبشرية من هذا التلوث الذي يهددها ويهدد أجيالها القادمة، إلا بأن يعرف الإنسان قدر نفسه، وأنه ليس (إلها) في الأرض، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، ولا يسأل عما يفعل. إنما هو (مستخلف في الكون، عبد لخالقه). ومن خلال هذه العبودية للخالق - التي هي عين التحرر من عبودية كل ما سواه - ينبغي أن يتصرف الإنسان في هذه الأرض، التي هي جزء صغير صغير من المجموعة الشمسية، التي هي جزء صغير صغير من مجرتنا، التي هي واحدة من ملايين المجرات التي تملأ فضاء هذا الكون.

إن طوق النجاة للإنسان يتجسد في شيء واحد، هو إيمانه بربه الأعلى ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣﴾ (الأعلى: ٢، ٣).

وبهذا الإيمان يوازن الإنسان بين دنياه وآخرته، وبين شهواته الفردية، وأشواقه الروحية، وبين اللذات الصغيرة للجيل الحاضر، والمطالب الكبيرة للأجيال التي لم تزل في ضمير الغيب.

التلوث الضوضائي:

ومن أنواع التلوث البيئي الذي يشكو منه عصرنا: (التلوث السمعي) أو (الضوضائي) ويراد به: الضجيج والضوضاء والأصوات العالية، التي تؤذي

(١) انظر: فصل (التلوث الإشعاعي) من كتاب (أهم المشكلات البيئية في العالم المعاصر) لمحمود أحمد حميد.

السمع، وتتعب الأعصاب، وتشوش على العقل، وتقلق الراحة، وتطرد النوم، وتؤثر في حياة الإنسان تأثيرا سيئا، وخصوصا المرضى والأطفال، والذين يشتغلون بالعلم والفكر، ويحتاجون أبدا إلى الهدوء.

وقد كثرت أسباب الضوضاء في عصرنا، بسبب انتشار المصانع، واستخدام الآلات، والسيارات والقطارات والطائرات والدراجات البخارية والكهربائية، واستخدام الآلات الميكانيكية ذات الضجيج العالي في البناء، وفي رصف الطرق، ونحوها، واستعمال مكبرات الصوت، وأجهزة المذياع والتلفاز، وأجهزة التكييف، وغيرها مما جعل المدن الحديثة حافلة بعوامل الإزعاج والإقلاق وهو ما جعل الناس يفرون إلى الضواحي، والقرى المجاورة، هربا من جحيم الضوضاء.

الإسلام والتلوث السمعي:

والإسلام يوجه الإنسان إلى الاعتدال في كل شيء، ولهذا يكره الجلبة والضوضاء والضجيج بغير مسوغ، لما لها من آثار سيئة في حياة الإنسان، كما يكره الصوت الخافت الذي لا يُسمع. ولهذا كان من صفات عمر رضي الله عنه: أنه إذا تكلم أسمع.

هداية القرآن:

وفي القرآن الكريم: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ (الإسراء: ١١٠).

وهي من الآيات التي يستدل بها على استحباب الوسطية في كل شيء.

ويكره علو الصوت في مجالس العلم، وفي حضرة أهل الفضل والمنزلة من الناس، تأسيا بما جاء في الأدب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، حيث قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ

يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾ (الحجرات: ٢ ـ ٤).

وإنما وصفهم القرآن بهذا الوصف المذموم، لأنهم كانوا ينادونه بصوت مرتفع، وهو مستريح في بيته، غير مراعين للأدب معه.

وإذا كان العلماء ورثة الأنبياء، فينبغي أيضا التأدب معهم، بغض الصوت ورعاية المقام.

ولقد ذكر لنا القرآن من وصايا لقمان لابنه، وهو يعظه ـ وهو رجل آتاه الله الحكمة ـ هذه الوصية الناصعة: ﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ (لقمان: ١٩).

وكفى بهذا تنفيرا للإنسان العاقل أن يتشبه بالحمار البليد، الذي لا يبالي أن يرسل نهيقه المزعج في أي مكان شاء، وفي أي زمان شاء. فهو لا يعرف ما يليق وما لا يليق، وإنما ينطلق من غريزته وحدها.

وقد ذم الله تعالى المشركين في القرآن بقوله: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً﴾ (الأنفال: ٣٥) أي صفيرا وتصفيقا وضجيجا، لا ينسجم مع ما يجب للبيت الحرام من توقير، وما ينبغي أن يتوافر للصلاة من سكينة وخشوع.

توجيه السنة النبوية:

ومن هنا روى الشيخان عن أبي قتادة رضي الله عنه قال: بينما نحن نصلي مع النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذ سمع جلبة رجال، فلما صلى قال: ما شأنكم؟ قالوا: استعجلنا الصلاة. قال: «فلا تفعلوا، إذا أتيتم الصلاة، فعليكم بالسكينة، فما أدركتم فصلوا، وما فاتكم فأتموا»[1].

---

(١) متفق عليه. اللؤلؤ والمرجان (٣٥١).

وهنا نرى أن النبي صلى الله عليه وسلم قد لفت نظره ما سمع من جلبة وارتفاع صوت، فسأل عن سببه، فقال الصحابة :- استعجلنا الصلاة «أي أنهم جاءوا يركضون فأحدثوا صوتا عاليا، فنهاهم عن ذلك، وأمرهم بالسكينة».

وروى الشيخان أيضا عن أبي موسى الأشعري قال: كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في سفر، فجعل الناس يجهرون بالتكبير، فقال النبي: «يا أيها الناس، أربعوا على أنفسكم، فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبا، إنكم تدعون سميعا قريبا، وهو معكم»[1].

معنى: أربعوا على أنفسكم: ارفقوا بأنفسكم، واخفضوا أصواتكم، فإن رفع الصوت إنما يفعله الإنسان لبعد من يخاطبه، ليسمعه، وأنتم تدعون الله تعالى، وليس هو بأصم ولا غائب، بل هو سميع قريب.

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله يبغض كل جَعْظَري جَوَّاظ، صخاب في الأسواق، جيفة بالليل، حمار بالنهار»[2].

والجعظري: الشديد الغليظ. والجواظ: الأكول. والصخاب: الصياح.

وروى ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال في شأن صلاة الجماعة: «ليلني منكم أولو الأحلام والنهى، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم.. ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم، وإياكم وهَيْشَات الأسواق»[3].

وهيشات الأسواق: اختلاطها وارتفاع الأصوات واللغط فيها.

والأمور التي ورد الشرع برفع الصوت بها، من شأنها ألا تحدث ضجيجا ولا ضوضاء، إذا روعيت فيها تعاليم الشرع وآدابه.

---

(١) متفق عليه. اللؤلؤ والمرجان (١٧٢٨).

(٢) رواه ابن حبان، كما في الإحسان (٧٢) وقال الشيخ شعيب: إسناده قوي. وذكره الألباني في الصحيحة (١٩٥).

(٣) رواه مسلم في الصلاة (٤٣٢) حديث ١٢٣ في الباب، وأبو داود في الصلاة (٦٧٥) والترمذي (٢٢٨) وقال: حسن صحيح غريب، والنسائي (١٧٢٨).

فمنها: (الأذان) ومن المعلوم أن الأذان بألفاظه العذبه، ومعانيه الربانية، وأدائه بصوت فرد، يختار عادة من أندى الناس صوتا: لا يمكن أن يحدث ضوضاء بحال من الأحوال.

ومن ذلك: التلبية في الحج، فمطلوب من الحجاج أن يرفعوا أصواتهم بالتلبية وهم محرمون بالحج، حتى يرموا جمرة العقبة، والتلبية ذكر لله تعالى، ينبع عن الاستجابة لأمره عز وجل: «لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك. إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك».

وطالما حججنا واعتمرنا ولبينا فرادى ومجتمعين، واستمعنا إلى الملبين، فلم نشعر بضجيج ولا ضوضاء، لأن من يلبي يؤدي التلبية، وهو يشعر بأنه يتعبد لله تعالى ويتقرب إليه.

ومن ذلك: الأناشيد الجماعية، وهي تؤدى منغمة ملحنة مؤثرة، لا يمكن أن تنسب إلى الجلبة والضوضاء.

ومن ذلك: صيحات (التكبير) في الحرب، فهذه لها قوتها وتأثيرها في تقوية قلوب الجنود المؤمنين، كما لها تأثيرها في زلزلة قلوب الأعداء.

توجيه الفقه الإسلامي:

وعلى ضوء هداية القرآن الكريم، وهدْي السنة النبوية، سار الفقه الإسلامي، فمنع الفقهاء في فتواهم إذا أفتوا، وفي قضائهم إذا قضوا: كل ما يضر بالإنسان من الضجيج المؤذي، فما كان خاصا بالإنسان في نفسه، فهو محرم ديانة، وما كان متعديا إلى غيره فهو محرم ديانة أيضا، ويزيد أنه من حق (القضاء) أن يمنعه إذا رفع إليه، ومن حق (المحتسب) أن يمنعه إذا رآه ولم يرفعه إليه أحد.

ومن الفقهاء من قسم الضرر الناتج عن الأصوات إلى قسمين: ضرر يجب درؤه، وضرر يمكن احتماله. ومثال القسم الأول: الأصوات والذبذبات

الناتجة عن حركة البوابات، إذ إنها تؤثر على سلامة المباني المجاورة لها. يروي ابن الرامي من المالكية في كتابه (الإعلان بأحكام البنيان) أن مجموعة من الناس أقاموا بوابة لحارتهم، يفتح بابها على حائط جار لهم، فقاضاهم هذا الرجل، بدعوى أن فتح الباب وإغلاقه المستمرين قد أضرا به، وأقلقا راحته. فتحرى ابن الرامي الأمر ووجد الحائط يتذبذب من جراء فتح الباب وإغلاقه، فأمر القاضي بهدم البوابة وإزالة بابها.

أما القسم الثاني: من الضرر فينتج عن الأصوات التي تسبب الضيق دون الضرر. وقد اختلف الفقهاء في حكمهم عليه. فلم يعتبره الفقهاء الأوائل ضررا يجب درؤه. فمطرف وابن الماجشون، وأصبغ: رأوا عدم إيقاف الغسال والضراب لمجرد أن ضوضاء عملهما تقلق الجيران، بل ذهب ابن القطان إلى عدم جواز منع أحد من ضرب الحديد في منزله، وإن كان يفعله ليل نهار، بشرط أن يعتمد معاشه على ذلك. أما من لحقهم من الفقهاء، فقد كان لهم رأي مغاير. فاعتبروا الصوت والصدى والضوضاء مصدرا للضرر يجب درؤه. فقد وضع قضاة طليطلة - حسب رواية ابن الرامي - قواعد صارمة لمنع وجود الكمادين لما يسببونه من ضرر وضيق للجيران بما يصدر عنهم من أصوات. كما أعرب القاضي ابن عبد الرافع في تونس عن تفضيله منع بناء حظائر الحيوانات متاخمة للمباني، لما تسببه حركة الحيوانات الدائمة أثناء الليل والنهار من إزعاج قد يمنع الجيران من النوم.

من ذلك نرى أنه، بوجه عام، اعتبر الفقهاء الأصوات والذبذبات مصدرا للضرر يجب منعه[1].

ومن هذا المنطلق، اهتم المسلمون القدامى ببناء المصانع خارج المدن، وبخاصة تلك التي ينتج عنها تلوث صوتي أو كيميائي أو أي صورة أخرى من صور التلوث البيئي.

---

(١) انظر: البيئة: مشاكلها وقضاياها وحمايتها من التلوث (رؤية إسلامية) لمحمد عبد القادر الفقي ص٨٦ نشر مكتبة ابن سينا بالقاهرة.

وسائل تقليل ومكافحة الضوضاء:

استنبطت التقنيات الحديثة عدة وسائل وأساليب لمكافحة التلوث الصوتي، مثل:

١ـ استعمال سدادت الأذن في المناطق التي يكثر فيها الضجيج.

٢ـ منع استعمال آلات التنبيه في السيارات في المناطق المزدحمة.

٣ـ بناء المطارات بعيدا عن المدن لتفادي الأصوات العالية لمحركات الطائرات.

٤ـ استعمال كواتم الصوت في المصانع.

٥ـ نقل المصانع والورش إلى أحياء صناعية بعيدة عن المناطق السكنية.

وغير ذلك من الوسائل التي تمنع وصول الأصوات إلى الأذن، أو تمنع حدوثها عند المصدر.

والإسلام يرحب بالاستفادة من كل هذه الوسائل، وكل ما يبتكره البشر في هذا المجال، عملا بالمصالح المرسلة، وتحقيقا لمقاصد الشريعة في المحافظة على كل ما ينفع الإنسان، ويبعد الضرر عنه.

قلق العلماء والمفكرين على مصير الحضارة:

لقد أصبحت الحضارة بما تنوء به من أثقال شتى، وما تحس به من أوزار في حق البشرية، ومنها وزر الجناية على البيئة ـ مخوفة العاقبة، مجهولة المستقبل والمصير، إذا لم يتداركها الله برحمته، فتهتدي من ضلالاتها، وتصلح من فسادها، وتعتدل بعد طغيانها وإخسارها.

ولقد كثر الناقدون للحضارة من الغربيين أنفسهم، ودقوا أجراس الخطر. يخوفون من شأن المصير المرتقب، منهم من رجال العلم، ومن رجال الفلسفة، ومن رجال الأدب، ومن رجال السياسة. كما ذكرنا نماذج من هذه النداءات والصرخات في كتابنا (الإسلام حضارة الغد).

ومن هؤلاء العالم الأمريكي الجنسية، الفرنسي الأصل (رينية دوبو) وهو من علماء البيولوجيا، الحاصلين على جائزة نوبل في العلوم. وقد قال في كتابه الذي ترجم إلى العربية بعنوان (إنسانية الإنسان):

«إن كل المفكرين قلقون على مستقبل الأبناء الذين سيقضون حياتهم في بيئات اجتماعية ومحيطية سخيفة عابثة باطلة، نخلقها نحن لهم بدون أي تفكير، وأكثر ما يزعج هو علمنا بأن الخصائص العضوية والفكرية للإنسان تخططها اليوم البيئات الملوثة، والشوارع المتراصة، والأبنية الشاهقة، والخليط الحضري المتمرد، والعادات الاجتماعية التي تهتم بالأشياء، وتهمل البشر»[1].

وفي حديث بعنوان: «هل تستطيع أمريكا التغلب على خرافة النمو»؟ كان سكرتير وزارة الداخلية «استيوارت. ل. أودال» شجاعا عندما قال: إنه من السهل اعتبار أمريكا التي صنعها الإنسان.. كارثة على مستوى القارة. لقد ذكَّر «أودال» مستمعيه: «إننا نملك أكبر عدد من السيارات وأسوأ ساحات «الخردة» بالمقارنة لأية دولة أخرى في العالم! نحن أكثر سكان العالم تنقلا ونتحمل أكبر قدر من الازدحام! ونولِّد أكبر قدر من الطاقة، وفي أجوائنا أكثر الهواء تلوثا في العالم»، ولقد نقل عن رئيس بلدية «كليفلند» قوله مازحا: «إذا لم نكن واعين فسيذكرنا التاريخ على أساس أننا الجيل الذي رفع إنسانا إلى القمر.. على حين هو غائص إلى ركبتيه في الأوحال والقاذورات!»[2].

كان نقاد الحضارة الحديثة قديما يقولون: إنها أصلحت الأرض، وأفسدت البشر، وأحسنت إلى الجماد، وأساءت إلى الإنسان، وأتقنت علوم الجماد والمادة، وجهلت علوم الحياة والأحياء، فأحيت العمران، وأماتت الإنسان.

هكذا قال ألكسيس كاريل في كتابه (الإنسان ذلك المجهول) وقال كثيرون قبله وبعده مثل ما قال.

---

(١) إنسانية الإنسان ص٣١ من الترجمة العربية.

(٢) انظر: إنسانية الإنسان. ترجمة نبيل الطويل ص ٢١٩ ـ ٢٣١.

واليوم نقول في أوائل القرن الحادي والعشرين، ومطلع الألف الثالث للميلاد: إن الحضارة في عصر تطور التكنولوجيا، وثورة البيولوجيا، وغزو الفضاء، وثورة الاتصالات والمعلومات ـ وقد جنت على العمران، كما جنت على الإنسان، وأساءت إلى الجمادات من المخلوقات، كما أساءت إلى الأحياء والإنسان.

لقد شكت الكائنات كلها من عبثها بها، وقسوتها عليها، لقد جلبت الفساد على الإنسان، وعلى الحيوان، وعلى الجماد، فأفسدت التربة، وأفسدت الهواء، وأفسدت الماء، وأفسدت الغذاء والدواء. أفسدت الأرض وجو السماء. وأمسى الإنسان يخشى أن تكون هذه الحضارة هي القاضية عليه، وأن يهلكها العجب والغرور والطغيان، كما أهلك أمما قبلها من ﴿ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ (١١) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (١٢) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (١٣) إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ (١٤) ﴾ (الفجر: ١١ ـ ١٤).

ما أجدرنا أن نتدبر كثيرا ما جاء في القرآن من تأشيرات وتحذيرات لأمم الحضارات، ومن تحذير لأهل الأرض عامة، حين يبلغون درجة من العلم يتأله فيها الإنسان، وينسيه الغرور ربه، فينسيه الله نفسه، وهنا تكون النهاية الأليمة التي لا يغني فيها علم ولا فن ولا فلسفة ولا صناعة متطورة. وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (يونس: ٢٤).

٢ـ خطر استنزاف الموارد

من أبرز مشكلات البيئة في عصرنا: استنزاف الموارد الطبيعية، بحيث أصبح الإنسان في العالم مهددا بأنه قد يأتي يوم ليس ببعيد، يجد موارده لا تكفيه، وليس ذلك من قلة هذه الموارد، فقد خلقها الله بوفرة للإنسان، وامتن عليه بها في آيات كثيرة من كتابه، كما قال تعالى: ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ (إبراهيم: ٣٢ ـ ٣٤) وبهذا يتبين لنا أن ظلم الإنسان لنفسه ولغيره، وكفرانه للنعمة، هما اللذان أديا بالإنسان إلى هذه العاقبة الوخيمة، فهو لا يعرف نعمة الله في هذه الموارد، ولا يحافظ عليها، كما ينبغي، و لا يستعملها باقتصاد واعتدال، بل يسرف فيها إسرافا لا يحبه الله تعالى.

ولقد تحدثنا بإفاضة وتفصيل عن (الركائز الإسلامية في رعاية البيئة). ومن هذه الركائز الأساسية: المحافظة على موارد البيئة، ولا سيما في الثروة الحيوانية، والثروة النباتية، والثروة المائية، وثروة التربة الأرضية. وغيرها، من كل ما جعله الله في البيئة سببا لرزق الإنسان، ورغد عيشه في دنياه.

واستنزاف الموارد ولا شك هو نقيض المحافظة عليها، الذي فصلنا القول فيه هناك. كما أن استنزاف الموارد أيضا ضد ركيزة أخرى من ركائز رعاية البيئة في الإسلام، وهي ركيزة (الإحسان بالبيئة) وخصوصا الإحسان بالحيوان وبالنبات، وبالماء وبالتربة وغيرها.

والاستنزاف كذلك مضاد لركيزة ثالثة من ركائز الرعاية البيئية، وهي المحافظة على مكونات البيئة وعناصرها من الإتلاف، أيا كانت دوافعه، وأيا كانت مظاهره.

فلنكن على ذكر من هذا كله، ولنراجعه لزوما، ونحن نتحدث هنا عن هذا الخطر الكبير، الذي بات ينذر البشرية بشر مستطير.

كيف يتحقق الاستنزاف للموارد؟

يتمثل استنزاف الموارد في عدة أمور:

١ـ في استخدامها في غير ما خلقت له، أو في معصية الله تعالى.

٢ـ وفي إساءة استعمالها، وإنهاكها، وعدم الإحسان والرفق بها.

٣ـ وفي الإسراف وتجاوز الحد في استهلاكها.

٤ـ وفي إهمالها وإضاعتها حتى يصيبها التلف والعطب.

٥ـ وفي الإفساد في الأرض الذي يترتب عليه هلاك الحرث والنسل، أي هلاك البيئة ومن فيها.

١ـ استخدام الموارد في غير ما خلقت له:

وفي الأمر الأول نجد الله تعالى خلق كل شيء ليؤدي مهمة في هذا الوجود، فلا ينبغي أن ننحرف به عن مهمته، ليعمل بضدها، أو يحرف مسارها، أو يفسد وظيفتها.

فالإنسان هو أهم عنصر في البيئة، بل هو الذي سخرت له كل عناصر البيئة من الله تعالى ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا﴾ (البقرة: ٢٩) وقد خلق الله الإنسان لعبادته وخلافته في الأرض واستعمره فيها. فلا يجوز أن نغير فطرة الله تعالى، ونجعل الإنسان مسخرا للبيئة، بل عابدا لها أو لبعض

أجزائها في بعض الأحيان. فهذا قلب للحقائق ووضع للشيء في غير موضعه، وتوجيهه إلى غير ما خلق له، وهو فساد كبير.

والأرض خلقها الله، وهيأها لمعيشة الإنسان، وجعلها له مستقرا ومتاعا، وفراشا ومهادا، وبساطا، وجعلها للناس ذلولا، ليمشوا في مناكبها، ويأكلوا من رزقه، فلا يجوز للإنسان أن يغير فطرة الله التي خلق عليها هذه الأرض، ويجعل هذه الأرض بدل أن تكون فراشا ومهادا، تمسي جحيما وفسادا، يفسدها بتفجيراته الذرية، وتلويثاته الإشعاعية وغيرها.

والماء قد خلقه الله ليحيي به الأرض، ويسقيه الإنسان والحيوان، وليكون وسيلة للطهارة والنظافة، وليعيش فيه الأحياء التي يحتاج إليها الإنسان في مأكله، ويستخرج منه الحلية والزينة، وتجري فيه الفلك بأمره. كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾﴾ (الفرقان: ٤٨، ٤٩) ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ﴾ (الأنفال: ١١) ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ (الأنبياء: ٣٠) ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (النحل: ١٤).

فلا يجوز للإنسان أن يلوث هذه المياه، بما يلقي فيها من نفايات المصانع والبواخر، وآثار الحروب وغيرها، مما يقتل أحياءها، ويكدر نقاءها، ويجعلها خطرا على الإنسان بعد أن كانت مصدرا لحياته.

إن موارد البيئة كلها من نعم الله تعالى على الإنسان، وفي كل نعمة زكاة، وزكاة هذه النعم أن تستخدم فيما يحب الله تعالى ويرضاه، لا أن تستخدم في معاصي الله وما يسخطه سبحانه، فليس من المقبول عقلا ولا شرعا أن تتخذ نعم الله لمعاصي الله جل جلاله.

٢ـ الإساءة في استخدام الموارد:

ومن دلائل استنزاف الموارد: سوء استعمالها، وعدم الإحسان بها. فهذا مما يبغضه الله تعالى، فقد جاء في الحديث «إن الله يحب من العامل إذا عمل أن يحسن»[١] وفي معناه: «إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه»[٢] وإذا كان الله يحب إتقان العمل وإحسانه؛ فمفهومه أنه يكره إساءة العمل، ومنه: إساءة استعمال الموارد. ويكون الإتقان في نفس العمل، وفي نيته وباعثه.

ويقول العلامة عبد الرءوف المناوي في شرح الحديث المذكور:

فعلى الصانع الذي استعمله الله في الصور والآلات والعدد مثلا: أن يعمل بما علمه الله عمل إتقان وإحسان، بقصد نفع خلق الله، الذي استعمله في ذلك. ولا يعمل على نية أنه إن لم يعمل ضاع، ولا على مقدار الأجرة، بل على حسب إتقان ما تقتضيه الصنعة، كما ذكر أن صانعا عمل عملا تجاوز فيه (أي قصر فيه) ودفعه لصاحبه. فلم ينم ليلته، كراهة أن يظهر عمله غير متقن. فشرع في عمل بدله، حتى أتقن ما تعطيه الصنعة، ثم غدا به لصاحبه، فأخذ الأول، وأعطاه الثاني. فشكره (الرجل) فقال: لم أعمله لأجلك، بل قضاء لحق الصنعة! . . . فمتى قصر الصانع في العمل، لنقص الأجرة، فقد كفر ما علمه الله، وربما سلب الإتقان ا.هـ.

وهذا تأكيد لما أمر به القرآن الكريم من الإحسان كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ﴾ (النحل: ٩٠) وقوله: ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (البقرة: ١٩٥).

وما أمر به الرسول في الحديث الصحيح: «إن الله كتب الإحسان على كل

---

(١) رواه البيهقي في الشعب عن كليب، وحسنه الألباني في صحيح الجامع الصغير (١٨٩١).
(٢) رواه البيهقي في الشعب أيضا عن عائشة، وفيه راو تكلموا فيه. انظر: فيض القدير (٢/ ٢٨٧).

شيء»[1] أي كتبه وفرضه في كل شيء، فهو يشمل الإنسان والحيوان والنبات، وسائر المخلوقات. حتى قال المناوي: إنه يشمل الملائكة والجن من العالم غير المنظور، بأن لا يفعل ما يؤذيهم. حتى إنه يحسن إلى شياطين الجن بالدعاء لهم بالهداية، ككفار الإنس أيضا[2].

٣ـ الإسراف في استهلاك الموارد:

ومن أبرز مظاهر الاستنزاف: الإسراف في استهلاك الموارد، فإن الإسلام ينهى عن الإسراف في آيات وأحاديث كثيرة. كما حث على القصد والاعتدال في نصوص جمة.

إن الله الذي خلق البيئة بعناصرها المتنوعة، قد أنبأنا أنه إنما خلقها لنا، كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا﴾ (البقرة: ٢٩) ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ (لقمان: ٢٠).

وما كان الله ليخلق لنا هذه الأشياء ويسخرها لنا، ثم يحرمها علينا، ولهذا قال فقهاؤنا: الأصل في الأشياء والمنافع الإباحة، وذلك بمقتضى خلقها وتسخيرها لنا من الله سبحانه.

ومعنى هذا: أن الله أذن لنا أن نأكل من طيبات ما رزقنا، وأن نستمتع بما في هذا الكون من منفعة وزينة. كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلالاً طَيِّبًا وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ (البقرة: ١٦٨).

ومن خطوات الشيطان أنه يوسوس لهم بتحريم ما أحل الله عليهم، فلا يجوز للمؤمنين أن يطيعوه، ولذا جاء بعدها خطاب للمؤمنين خاصة:

---

(١) رواه مسلم عن شداد بن أوس (١٩٥٥).
(٢) انظر: فيض القدير (٢/ ٢٤٥).

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ (البقرة: ١٧٢).

وشدد القرآن الكريم النكير على الذين يحرمون الطيبات على الناس باسم الدين، وقال تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ (الأعراف: ٣٢).

ولكن الله تعالى حين أباح للناس أن يستمتعوا بالطيبات أكلا وشربا ولبسا وتزينا، لم يدع الأمر بغير قيود وضوابط، بل قيد الإباحة بعدم الإسراف، فقال تعالى قبل الآية السابقة في الإنكار على محرمي الطيبات: ﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ (الأعراف: ٣١).

وحسبك من ذم للمسرفين أن الله تعالى لا يحبهم، كما لا يحب الظالمين، ولا يحب المفسدين، ولا يحب كل خوان كفور، ولا يحب كل كفار أثيم. كما بينت ذلك آيات الكتاب العزيز.

ولقد ذم الله تعالى فرعون المتأله المتجبر في الأرض بقوله: ﴿ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِّنَ الْمُسْرِفِينَ ﴾ (الدخان: ٣١).

وذم الله سبحانه قوم لوط ـ الذين أتوا فاحشة ما سبقهم بها أحد من العالمين ـ بقوله على لسان نبيهم لوط: ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾ (الأعراف: ٨١).

وكما نهى الله تعالى عن الإسراف، نهى عن التبذير، كما في قوله تعالى: ﴿ وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ ﴾ (الإسراء: ٢٦، ٢٧).

والفرق بين الإسراف والتبذير: أن الإسراف هو تجاوز الحد في استهلاك الحلال. أما التبذير فهو الإنفاق في الحرام وإن قل.

فمن تجاوز الحد في الحلال كان مسرفا، كأن أكل أكثر مما ينبغي حتى أضر بنفسه أو بماله، أو جار على حق غيره. فهو بهذا مسرف.

ومن أنفق أكثر مما يحتمله دخله، فقد دخل في دائرة الإسراف.

ومن تجاوز الحد في استخدام الماء ولو في النظافة أو في الطهارة الشرعية، فقد أسرف، وأساء أو تعدى أو ظلم.

ولهذا جاء في الحديث: «كلوا واشربوا، وتصدقوا، والبسوا، في غير إسراف ولا مخيلة»[1].

والمخيلة: الاختيال والفخر، وهو رذيلة باطنة، كما أن الإسراف رذيلة ظاهرة.

ومن أنفق من ماله ـ ولو كان درهما واحدا ـ في معصية ـ أي في أمر محرم، مثل شرب الخمر، أو تناول المخدرات، أو اقتناء التحف الذهبية، وغيرها ـ اقترف إثم التبذير، وكان من إخوان الشياطين.

فالتبذير هو الإنفاق من مال الله في معاصي الله، فهو محرم وإن كان شيئا قليلا، أي وإن كان المبذر يملك القناطير المقنطرة.

بخلاف المسرف، فقد يكون الشيء إسرافا في حق شخص، ولا يكون إسرافا في حق غيره. فالمعسر غير الموسر، والفقير غير الغني، والغني الذي لا يزال في أول درجات سلم الغنى، غير الذي يملك الملايين. ولهذا قال الناس: على قدر لحافك مد رجليك. أي أنفق على قدر ما تملك.

والمنهج الذي دعا إليه الإسلام في الإنفاق هو التوسط والاعتدال بين الإسراف والتقتير، وكلاهما مذموم. قال تعالى: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾ (الإسراء: ٢٩) بل هو يدعو

(١) رواه أحمد والنسائي وابن ماجه والحاكم عن ابن عمرو، وحسنه الألباني في صحيح الجامع الصغير (٤٥٠٥).

المسلم إلى الاعتدال، وإن كان المورد غنيا ولا خوف من نفاده، كما في حديث سعد: «لا تسرف وإن كنت على نهر جار!» وذلك ليكون الاقتصاد خلقا له، يلتزمه أبدا في حالة السعة وفي حالة الضيق، على سواء.

وهذا المنهج المتوازن في الاستهلاك والإنفاق نافع للإنسان اقتصاديا، لأن التقتير يؤذي الاقتصاد، حيث لا توجد دوافع للإنتاج، إذا انعدمت أو قلت بواعث الاستهلاك. كما أن الإسراف يمكن أن يضيع جدوى التنمية وزيادة الإنتاج. لأنك إذا زدت في خزان المياه، ولكنك فتحت الصنبور لحاجة ولغير حاجة، فستنفد مياه الخزان هدرا، دون أن تحقق هدفها.

وهذا المنهج كذلك نافع للإنسان تربويا؛ لأن الإسراف المطلق، ليس من شأن الإنسان المؤمن العاقل، ولذا جاء في الصحيح: «المؤمن يأكل في معي واحد، والكافر يأكل في سبعة أمعاء» وهو كناية عن شره الكافر، وأن همه في معدته وإشباع شهواته وغرائزه، وأما المؤمن فكل شيء عنده بحساب، فهو لا يأكل إلا إذا جاع، وإذا أكل لا يمتلئ، فما ملأ ابن آدم وعاء شرا من بطنه.

ثم إن المؤمن العاقل لا يطلق العنان لنفسه ليأكل كل ما اشتهى، ويشتري كلما رغب فيه، وقد جاء في الأثر: من الإسراف أن تأكل كل ما اشتهيت!

وقال سيدنا عمر: أوكلما اشتهيتم اشتريتم؟! وشهوة الاشتراء في عصرنا أصبحت آفة كبيرة، فقد أدت إلى تكديس أشياء كثيرة جدا لا لزوم لها، وأضحى التخلص منها إحدى المشكلات العويصة.

فهو نوع من التربية الخلقية، كما أنه لون من التربية الاجتماعية أيضا. كما جاء: أما يريد أحدكم أن يطوي بطنه لجاره وابن عمه؟

ومن ناحية أخرى هو تربية اقتصادية، إذا غلت السلع، وقلت الأشياء، فليس أفضل من إرخاصها بالكف عن شرائها، كما قال الشاعر:

وإذا غـــلا شيء علي تركــتـــه فأراه أرخص ما يكون إذا غلا![1]

٤ـ إهمال موارد البيئة وإضاعتها:

ومن مظاهر الاستنزاف: إهمال موارد البيئة وعدم الانتفاع بها، أو إضاعتها وتركها حتى تتلف وتهلك، دون أن يستفيد الناس من ثمرتها.

ولقد مر بنا أن النبي صلى الله عليه وسلم أنكر على أصحابه تركهم جلد شاة ماتت، كانت لمولاة لإحدى أمهات المؤمنين، وقال لهم: «هلا أخذتم إهابها فانتفعتم به؟» (وهذا استفهام على سبيل الإنكار) قالوا: يا رسول الله، إنها ميتة! قال: «إنما حرم أكلها»! متفق عليه.

فبين أن تحريم أكل لحم الميتة لا ينافي الاستفادة من جلدها بالدباغ، فإنه إذا دبغ فقد طهر. وهذا يمثل قمة الحرص على الانتفاع بكل موارد البيئة، وإن قلت قيمتها، وألا تترك للضياع بغير موجب ولا مسوغ.

ومثل ذلك: أمره صلى الله عليه وسلم بلعق الصحفة ـ أو وعاء الطعام ـ وعدم ترك فضلات فيها. واللعق ليس مقصودا لذاته، إنما المقصود أكل كل ما في الإناء، وكانوا يأكلون بأيديهم، فأمر بلعقها أو يلعق الإناء نفسه. فمن كان يأكل بالملعقة، قامت مقام يده في ذلك.

ومثل ذلك أمره عليه الصلاة والسلام بالتقاط اللقمة إذا سقطت على الأرض من الإنسان، وإماطة الأذى عنها، ثم يأكلها ولا يدعها للشيطان.

وسيأتي الحديث عن هذا التوجيه النبوي الرشيد والمهم في تكوين عقلية المسلم في النظر إلى (النعم) وإن صغرت، وفي العناية بالانتفاع بها وإن ضؤلت. فإن الصغير مع الصغير يكبر، والقليل إلى القليل يكثر. وخصوصا إذا نظر إلى ذلك على مستوى الأمة الكبرى.

---

(١) راجع: فصل: القيم والأخلاق في مجال الاستهلاك، من كتابنا (دور القيم والأخلاق في الاقتصاد الإسلامي) نشر مكتبة وهبه بالقاهرة، ومؤسسة الرسالة ـ بيروت.

وهذه النماذج البسيطة التي تضمنتها الإشارات النبوية، تنبهنا على ما هو أهم وأعظم من موارد البيئة التي تهمل وتترك، حتى تضيع على المجتمع كله، إما لغياب الوعي، أو لفساد الضمائر، أو لهما معا، أو لغير ذلك من الأسباب. وقد تحدثنا فيما سبق عن تحريم الإتلاف للموارد بسبب الإضاعة الإهمال. فليراجع.

٥ـ الإفساد في الأرض:

ومن مظاهر الاستنزاف للموارد: أنواع الإفساد في الأرض التي يشهدها الناس من قديم، مما يضر بالتربة، أو يضر بالماء مصدر الحياة، أو يضر بالثروة الحيوانية التي هي في خدمة الإنسان، أو يضر بالثروة النباتية التي هي مصدر لغذاء الإنسان ولأنعامه، كما يستفيد منها الظل والبهجة والجمال وغيرها من الثمرات.

وقد تقدم من قبل حديث: «من قطع سدرة صوب الله رأسه في النار» لأن قطعها بغير سبب نوع من الإفساد، لأن من ورائه حرمان الناس من ثمرها، ومن ظلها، ولا سيما في البرية. ومثل ذلك قطع أشجار الغابات التي تؤدي مهمة عظيمة في خدمة البيئة.

وكذلك تقدم حديث «من قتل عصفورا عبثا عج إلى الله يوم القيامة، يقول: يا رب، إن فلانا قتلني عبثا، ولم يقتلني منفعة» رواه أحمد والنسائي وابن حبان في صحيحه.

وهذا القتل العبثي للحيوانات، لغير منفعة تطلب من ورائها: نوع من الإفساد في الأرض، تستنزف به الموارد، بلا موجب.

كما جاءت أحاديث أخر تنهى عن إفساد الماء، بتلويثه بالبول فيه، وقد مضى الحديث عنها في (خطر التلوث).

وفي عصرنا نجد ألوانا من الإفساد في الأرض أشد خطرا، وأوسع أثرا،

من الأفراد ومن الأمم، واستكبارهم في الأرض بغير الحق، وعدوانهم على الموارد لغير ضرورة ولا حاجة، إلا الأشر والبطر، والكفران بنعمة الله عز وجل.

فعدوا على المساحات الخضراء، وعدوا على الغابات، وعدوا على مياه الأنهار فلوثوها، فأمست لا تصلح للشرب، ولا تصلح للاستحمام، بل عدوا على البحار المالحة نفسها على سعتها، فأثروا على أحيائها المائية، وأصابوا كثيرا منها بسموم ضارة، بل قاتلة، وهذه يأكلها الإنسان، فيصاب بسبب أكلها بما يهدد صحته أو حياته.

وهكذا أضر الإنسان بالبيئة، فأضر بنفسه في النهاية، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (الروم: ٤١).

ضرورة ترشيد استهلاك الموارد:

إن قضية (استنزاف الموارد) وما تمثله من خطر على البشرية في مستقبلها، لا تعالج معالجة جزئية أو آنية أو إقليمية، بل يجب أن تعالج معالجة جذرية، مؤسسة على تصحيح المفاهيم والأفكار، قبل تصحيح الممارسات العملية.

وأول ما يجب أن نصححه هنا يتمثل في الآتي:

الإنسان مستخلف في الأرض وليس إلها:

أولا: ألا ينظر الإنسان إلى نفسه، وكأنه إله يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، ولا يسأل عما يفعل، بل يجب عليه أن يتصرف في هذا العالم باعتبار أنه مخلوق لخالق هذا الكون، ومربوب له، ومستخلف منه في هذه الأرض التي هي أرض الله، وملك الله.

فإذا عاش الإنسان في الأرض بعقلية المستخلف فيها، لا السيد المالك لها،

الحاكم فيها بأمره، المنفرد بالتصرف فيها بسلطانه، عاش محافظا على مواردها وطيباتها وكل ما فيها، لأنه سيسأل عنها أمام الله تعالى، فهي داخلة في دائرة (مسئوليته). كما جاء في الحديث الصحيح: «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته» متفق عليه.

ومسئولية الإنسان هنا عن نفسه وعن أهله، وعن ماله، وعن صحته، وعن كل ما خوله من الله تعالى. كما قال تعالى: ﴿لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ (التكاثر: ٨).

ومسئولية هذا يكون أمام الله تعالى قبل كل شيء، كما قال تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ (الحجر: ٩٢ - ٩٣).

وبالتالي يكون مسئولا أمام ضميره الديني، الذي تكون لديه من مراقبة الله تعالى الذي يعلم السر وأخفى. والذي قال في كتابه: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (الحديد: ٣).

وهي مسئولية أيضا أمام الضمير الاجتماعي للأمة، التي تملك حق توجيهه ونصحه وتسديده إذا أخطأ، وتقويمه إذا اعوج، وتغيير ما يقترفه من منكر في حقها أو حق نفسه، باليد أو باللسان أو بالقلب حسب الاستطاعة. وذلك بما للأمة من ولاية بعضها على بعض بمقتضى عقد الإيمان، كما قال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ (التوبة: ٧١).

الموارد نعمة يجب أن تشكر:

ثانيا: أن ينظر الإنسان إلى موارد البيئة على أنها (نعم من الله) عليه، فالله سبحانه هو الذي خلقها فسواها، وهو الذي هيأها لتكون في خدمته ومصلحته، وهو الذي تولى رعايتها بسننه الكونية حتى تؤدي مهمتها. وهذه حقائق ملموسة ومقطوع بها، ولا يشكك فيها أحد.

ومن حق كل نعمة أن تقابل بالشكر، حتى يحفظها واهبها سبحانه على من أوتيها ويزيدها، أما إذا قوبلت بالكفران، فإنها تتعرض للزوال والضياع، ويتعرض كافر النعمة لعذاب الله تعالى ونقمته. كما قال الله في كتابه: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ (إبراهيم: ٧).

ولقد قص القرآن الكريم أكثر من قصة فيها عبرة وذكرى لمن كان له قلب، أو ألقى السمع وهو شهيد.

مثل قصة صاحب الجنتين، الذي كفر نعمة الله فيما أوتي، فأهلك الله جنته، ﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ ﴾ (الكهف: ٤٢، ٤٣).

ومثله قارون الذي آتاه الله من الكنوز، ولكنه بغى على قومه، وتجبر عليهم، ولم يستمع إلى نصحهم له ﴿ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ (القصص: ٧٦، ٧٧).

وكانت عاقبة بغيه وطغيانه وكفره بنعمة الله عليه، أن خسف الله به وبداره الأرض ﴿ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴾ (القصص: ٨١).

ومثله قوم سبأ الذين آتاهم الله جنتين عن يمين وشمال، ولكنهم لم يقوموا بشكر النعمة والحفاظ عليها ﴿ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلاَّ الْكَفُورَ ﴿١٧﴾ ﴾ (سبأ: ١٦، ١٧).

الموارد أمانة يجب أن ترعى:

ثالثا: الموارد كذلك أمانة وديعة، ائتمن الله عليها الإنسان، وأمره بحفظها وحسن رعايتها، فلا يجوز له التفريط فيها، وتعريضها للضياع، فذلك خيانة لأمانة الله عنده.

ونحن حين نقرأ القرآن نجده يقرر أن الإنسان هو حامل (الأمانة الكبرى) التي عرضت على الأجرام العظيمة، فلم تحملها، وحملها هو، وهي (أمانة التكليف الإلهي)، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً﴾ (الأحزاب: ٧٢).

وما دام الإنسان قد حمل الأمانة فواجبه أن يصونها ويحفظها ولا يخونها، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (الأنفال: ٢٧).

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ (النساء: ٥٨).

وقد جعل القرآن من صفات المؤمنين المفلحين: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ (المؤمنون: ٨).

وجعل الرسول صلى الله عليه وسلم من صفات المنافق: أنه «إذا اؤتمن خان»[١].

وقال صلى الله عليه وسلم: «لا إيمان لمن لا أمانة له»[٢].

والأمانة تشمل كل ما اؤتمن عليه الإنسان من مال وولد، ومن ماديات ومعنويات، ولهذا ورد أنها أثقل شيء في الدين. وهي بالقطع تشمل (موارد

(١) متفق عليه عن ابن عمرو.

(٢) رواه أحمد وابن حبان عن أنس، كما في صحيح الجامع الصغير (٧١٧٩).

البيئة) فهي من الأمانات التي حملها الإنسان، فإذا حفظها حفظه الله، وإذا ضيعها ضيعه الله، وكان من الخائنين، الذين لا يحبهم الله تعالى، كما قال في كتابه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ (الأنفال: ٥٨).

وما أكثر الخيانات التي نراها اليوم من الناس لأمانات الله في البيئة، وما أكثر ما أضاعوها، فحقت عليهم كلمة العذاب، واستحقوا ساعة الهلاك، فقد جاء في الصحيح: «إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة».

الموارد من حقوق الله:

رابعا: إن الموارد البيئية من حقوق الله تعالى على عباده. ومعنى: أنها من حقوق الله، أنها لا تتعلق بحق فرد معين أو فئة معينة من الناس، بل هي حق عام، يتعلق بالجماعة كلها، بل قد يتعلق بالبشرية كافة، بل قد يتعلق بغير البشر من المخلوقات من الكائنات الحية كالحيوانات والنباتات.

بل قد يتعلق هذا الحق بغير الأحياء، أعني: بالكون كله بأرضه وبحاره وأفلاكه.

فإن الإساءة إلى هذه الموارد قد يؤذي الإنسان أيا كان وطنه، أو كان عرقه، أو لونه أو طبقته. وقد يؤذي الحيوانات والطيور بعدوان الإنسان على مواردها التي تتغذى منها أو يعيش فيها، أو تهاجر إليها.

وقد يؤذي النباتات التي ليس لها مالك خاص، في الغابات ونحوها، فيقطعها لغير حاجة، إلا التلهي والعبث، أو الترف، والإسراف.

وهذا سر الوعيد الشديد الذي جاء في الأحاديث النبوية، فيمن قتل عصفورا عبثا، ولغير منفعة، وفيمن قطع شجرة سدر في البرية. فهذا لم يعتد على مالك معين، ولكنه اعتدى على عناصر في البيئة هي من مخلوقات الله، التي لم يسلط الإنسان عليها إلا بحق.

ومن هنا يقول المسلم إذا أراد أن يذبح حيوانا: (بسم الله) وقد نهاه القرآن

أن يأكل مما لم يذكر اسم الله عليه ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ (الأنعام: ١٢١).

وذكر اسم الله هنا كأنما يقول الذابح: أنا لم أذبح هذا الحيوان تسلطا مني، بل بإذن إلهي لي، الذي أباح لي أن أذبحه لآكله، فأنا أذبحه باسمه تبارك وتعالى.

إن مزية الإنسان المؤمن أنه يعلم أن لله تعالى حقا في كل شيء، قل أو كثر، صغر أو كبر. وحق الله سبحانه يقتضي أن نعامل هذا الشيء بالإحسان، فإن الله كتب الإحسان على كل شيء. ومن الإحسان الواجب: أن يرعاه فلا يهمله، وأن يحفظه فلا يضيعه، وأن يتيح له الفرصة لبلوغ كماله المقدر لنوعه، وأن يجنبه الآفات التي تعوق مسيرته، أو تفسد عليه وظيفته.

وهذه ليست قضية قانونية، بقدر ما هي قضية دينية أخلاقية، وحارسها هو الضمير الديني للإنسان، الذي يخشى الله، ويخاف حسابه، ويعلم أنه سيجزي كل نفس بما كسبت.

هذا الضمير الديني الذي عبرت عنه الفتاة الصغيرة التي قالت لأمها حين أرادت أن تغش اللبن بخلطه بالماء، وقد نهى عنه أمير المؤمنين عمر، وهو لن يرى هذا الخلط، قالت الابنة: يا أماه، إذا كان أمير المؤمنين لا يرانا، فإن رب أمير المؤمنين يرانا!

إن الوعي بحقوق الله على خلقه، وبأن هذه الحقوق يجب أن ترعى، وأن الله تعالى سائل كل مكلف عنها: ينشئ شعورا ودافعا قويا من داخل الإنسان ذاته، يحفز الإنسان على عمل الخير، واجتناب الشر، ويجعل من الإنسان رقابة ذاتية على تصرفاته، وإذا فرط في حق الله على الأشياء، عاقبه عقوبة سريعة غير مؤجلة، بلذع الضمير وتأديبه، وهو ما سماه القرآن (النفس اللوامة).

٣ـ خطر اختلال التوازن

ومن الأخطار التي أمست تهدد البيئة: اختلال التوازن بين عناصرها.

فقد بينا من قبل أن الله تعالى خلق البيئة متوازنة ومتكاملة، بل خلق الكون كله كذلك.

هذا ما أثبته القرآن الكريم في مواطن كثيرة، ذكرنا بعضها فيما سبق، وما أيده العلم الحديث، والواجب على الإنسان أن يرعى هذا التوازن البيئي، والتوازن الكوني، ولا يخل به، ويخرج به عن فطرته التي فطره الله عليها.

فيحدث الفساد في الأرض، الذي نهاه الله تعالى عنه: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ (الأعراف: ٥٦).

قال أبو حيان في تفسير الآية: هذا نهي عن وقوع الفساد في الأرض، وإدخال ماهيته في الوجود بجميع أنواعه، من إفساد النفوس والأموال والأنساب والعقول والأديان، ومعنى(بعد إصلاحها): بعد أن أصلح الله خلقها على الوجه الملائم لمنافع الخلق، ومصالح المكلفين[1] اهـ.

وقد ذكر تعالى في سورة الرحمن هذا التوازن الكوني بقوله: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴿٩﴾﴾ (الرحمن: ٥ ـ ٩).

فأمرنا بإقامة الوزن بالقسط والعدل، ونهانا عن الطغيان والإخسار في الميزان، وإنما المطلوب هو المنهج الوسط في كل شيء: لا إفراط ولا تفريط. أو بالعبارة القرآنية: لا طغيان ولا إخسار.

(١) انظر: تفسير البحر المحيط (٤/ ٣١١، ٣١٢) نشر مكتبة النصر الحديثة بالرياض.

ولكن الإنسان لم يسلك المنهج الوسط، كما أمره الله سبحانه، بل طغى وأخسر في الميزان، وجار على الطبيعة التي خلقها الله طاهرة فلوثها، وخلقها متوازنة، فأخل بتوازنها، ولا سيما في عصر الصناعة الثاني، وعصر التكنولوجيا المتطورة، وعصر الهندسة الوراثية، والاستنساخ.

ولنذكر هنا بعض آثار هذا الاختلال في بيئة العالم اليوم، وهو ما يشكو منه أولو الألباب في كل مكان.

١. التغيرات الجوهرية في المناخ العام:

من آثار هذا الاختلال في توازن البيئة: التغيرات الجوهرية التي أصبحت ملحوظة في المناخ العام.

فلقد أدت إقامة السدود وإنشاء الخزانات على مجاري الأنهار أو الأودية إلى إحداث تغييرات جوهرية في المناخ العام لتلك البيئات التي توجد بها، ولقد تمثل ذلك في ارتفاع معدلات البخر والرطوبة النسبية، هذا فضلا عن التأثيرات الضارة بالقشرة الأرضية السطحية في هذه المناطق، وقد تمثل ذلك في حدوث فوالق وزلازل حسبما تشير إليه بعض النظريات الجيولوجية الحديثة، ومن ذلك ما حدث في منطقة بحيرة السد العالي وما جاورها من بعض مناطق محافظة أسوان في أوائل الثمانينيات من هذا القرن.

كما قد أدت تلك التغيرات مجتمعة أو منفردة إلى تدمير بيئات مناسبة لمجتمعات حيوانية خاصة، لتحل محلها حيوانات أخرى تناسبها وتتلاءم معيشتها مع تلك الظروف البيئية الجديدة.

٢. التصحر:

معنى التصحر وأسبابه:

التصحر: مصطلح حديث يقصد به زحف العوامل الطبيعية (الرمال، الثلوج، الرياح أو الحرارة) على الأرض الزراعية بصورة تؤدي إلى اكتساحها فتتحول في النهاية إلى أرض متدهورة إنتاجيا وطبيعيا.

أسباب طبيعية:

تتمثل تلك الأسباب اللاإرادية في التغيرات المناخية القاسية، كالبرودة أو الحرارة الشديدة القاسية، وكالأمطار الغزيرة أو الجفاف المميت والرياح العاصفة المدمرة والفيضانات المائية المغرقة التي تؤدي إما إلى جرف الطبقة السطحية من التربة أو ردمها بالرمال المتحركة، وهذه العوامل في الغالب الأعم جند من جند الله يسلطها على من يشاء من عباده، فهي آيات دالة على قدرة الله وحده، لا راد لها ولا مخفف لحدتها إلا هو، ولذلك فإننا نجد في الشريعة الإسلامية صلوات خاصة بمثل هذه الفواجع، كصلاة الاستسقاء، وصلاة الخوف، وصلاة الحاجة، وقد حدث في عهد سيدنا عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - جدب ومجاعة أجهدت الناس، واستمرت عاما كاملا سمي "عام الرماده" لأن وجه الأرض قد تغير واغبر وصار رمادا، وكانت مذكرا قويا بالله، حيث لهجت الألسنة بالضراعة لله والرجوع إليه، فهو الذي يكشف السوء.

أسباب آدمية:

وتتمثل هذه الأمور في اليد الإنسانية العابثة، والتي تصدر عن فكر قاصر، يزين للناس التدخل في الأنظمة البيئية المحكمة والمتوازنة بصورة أنانية وجامحة، مما أدى إلى إرباكها وتدهورها وإصابتها في مقتل.

أخطار التصحر:

تتمثل هذه الأخطار في تلك الأرقام والإحصاءات التي تدل بوضوح على ما يلتهمه غول التصحر سنويا من مقدرات الحياة الطبيعية فيما يلي:

- تدهور ٢١ مليونا من الهكتارات من الأراضي الزراعية، بحيث أصبحت زراعتها غير مجدية اقتصاديا.
- يسبب التصحر خسائر اقتصادية تقدر بنحو ٢٦ ألف مليون دولار سنويا.

● يقدر معدل زحف الصحراء في السودان بنحو ١٠ كيلو مترات سنويا، كما يقدر معدل انخفاض الغابات في المغرب بنحو ٣٠ ألف هكتار في الفترة من ١٩٤٠ إلى ١٩٨١م، أما في تونس فقد بلغ معدل انخفاض غابات الصنوبر نحو ١٨٠٠ هكتار سنويا.

وقد بلغ معدل تدمير الغابات في العالم فدانًا واحدا في كل ثانية، كما بلغ عدد السكان المتضررين من التصحر ٥٧ مليون شخص طبقا لإحصاء عام ١٩٧٧م، في حين ارتفع هذا المعدل إلى ١٣٥ مليون نسمة طبقا لإحصاء عام ١٩٨٤م[١] فكم يكون العدد الآن، ونحن في سنة ٢٠٠٠.

وقد كتب أحد الباحثين كتابا جعل جزءا من عنوانه (الطبيعة بين فكيّ الوحش: التلوث والتصحر).

٣ـ الأضرار المناخية (ارتفاع حرارة الأرض):

ومن اختلال التوازن: ارتفاع حرارة الأرض، وهو من الأضرار المناخية، التي غدا جماهير الناس يلمسونها في حياتهم وأثرها عليهم.

فلقد أدى الاستهلاك الهائل والمذهل لملايين الأطنان من الوقود يوميا في المجتمعات الصناعة، إلى تصاعد ملايين الأطنان من غازات ثاني أكسيد الكربون والميثان وغيرها من الملوثات، مما قد يؤدي إلى رفع درجة حرارة الأرض بمرور الوقت، وقد حذر العالم الأمريكي «جيمس هانسن» مدير معهد «جودأرد» لدراسة الفضاء من خطر ارتفاع درجة حرارة الأرض، نظرا للتصاعد المستمر لغاز ثاني أكسيد الكربون والميثان والملوثات الأخرى، وكان هذا التحذير في عام ١٩٨٨، وتفسير ذلك هو أن تراكم هذه الغازات يؤدي إلى تكوين ما يشبه الحاجز الزجاجي للغلاف الجوي للأرض، مما يسمح بدخول أشعة الشمس ويحول في نفس الوقت دون خروج معظمها وإعادتها إلى الفضاء، وهو ما يعرف بظاهرة (الصوبة).

(١) انظر: البيئة في الفكر الإنساني والواقع الإيماني ص٥٨ـ ٦٠.

٤ـ ارتفاع مستوى سطح مياه البحر:

ولهذه المشكلة صلة قوية بالمشكلة السابقة، حيث يترتب على ارتفاع درجة حرارة الأرض إذابة الجليد في المناطق القطبية، فيرتفع مستوى سطح مياه البحر ليغمر المدن الساحلية ومصبات الأنهار.

٥ـ هطول الأمطار الحمضية:

وقد لوحظ هطول تلك الأمطار فوق أراضي كثيرمن الدول الصناعية والدول المجاورة لها، حيث تتسبب أكاسيد النتروجين والكبريت الناتجة من حرق الوقود في تكوين هذه الأمطار الحمضية، وقد دقت نواقيس الإنذار لأول مرة حول زيادة حموضة الترسبات في أوربا وشرق أمريكا الشمالية عام ١٩٦٠م، ويعتبر المطر الحمضي ناتجا مباشرا لقيام المحيط الجوي بتنظيف نفسه، إذ تقوم القطيرات الصغيرة من الماء والتي تكون الغيوم بامتصاص الجسيمات المعلقة وآثار الغاز المذابة باستمرار، ومع تكثف هذه الرواسب في مياه الغيوم، فإنها تغسل الملوثات وتزيلها من المحيط الجوي، ولا يمكن إزالة جميع بقايا الغازات بالترسيب، حيث نجد أن ثاني أكسيد الكبريت (SO2) وأكاسيد النيتروجين المنبعثة في الجو تتحول كيميائيا إلى مركبات تندمج بسهولة مع قطيرات الغيوم كأحماض الكبريتيك (H2SO4) والنيتريك (HN03) ومما يزيد من سرعة هذه التفاعلات جزيئات الأوزون (O3) سواء القادمة من طبقة (Stratoshere) أو تلك التي تتكون في الطبقات السفلى من المحيط الجوي، وخاصة طبقة (Troposphere) بتأثير الملوثات التي تحتوي على النيتروجين والكبريت.

٦ـ تآكل الأوزون:

تساعد مركبات الكلوروفلور وكربون المستخدمة في أجهزة التبريد، وفي عبوات مستحضرات التجميل والمبيدات والمواد الرَّغَوية المستخدمة في إطفاء الحريق، تساعد على تآكل طبقة الأوزون التي أشرنا إليها من قبل، فيترتب على ذلك آثار بيئية خطيرة[١].

---

(١) انظر: البيئة في الفكر الإنساني والواقع الإيماني.

(٤)

بماذا تفسد البيئة؟

ظهور الفساد في البر والبحر وأسبابه:

١ـ تغيير خلق الله.

٢ـ الظلم.

٣ـ العلو في الأرض.

٤ـ اتباع الهوى.

٥ـ الانحراف عن الميزان الكوني.

٦ـ الكفر بأنعم الله.

بماذا تفسد البيئة وتتلوث؟

من المباحث المهمة هنا: البحث عن الأسباب والعوامل التي تؤدي إلى فساد البيئة وتلوثها واختلال توازنها، وانقلابها نقمة على الإنسان، بعد أن كانت نعمة له، ورحمة به.

والنظرة الإسلامية هنا واضحة تمام الوضوح، وهي: أن تصرفات الإنسان المنحرفة هي السبب الأول وراء ذلك.

وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (الروم: ٤١).

والفساد المذكور في هذه الآية الكريمة لا يراد به الفساد المعنوي من المعاصي والمنكرات وعمل السيئات، فإن هذا هو سبب الفساد، المذكور في قوله تعالى في الآية (بما كسبت أيدي الناس).

فالفساد هنا هو النتيجة والثمرة المرة لما كسبت أيدي الناس من المعاصي والمفاسد الأخلاقية.

ولهذا فسروا الفساد في البر والبحر - كما في (روح المعاني) للآلوسي[1] - بالجدب والموتان وكثرة الحرق والغرق، وإخفاق الصيادين، ومحق البركات من كل شيء وقلة المنافع في الجملة، وكثرة المضار.

وقال الطاهر بن عاشور في تفسيره:

«وفساد البر يكون بفقدان منافعه وحدوث مضاره، مثل حبس الأقوات من

(١) ج٢١/ ٤٧ طبعة دار إحياء التراث العربي. بيروت.

الزرع والثمار والكلأ، وفي موتان الحيوان المنتفع به، وفي انتقال الوحوش التي تصاد من جراء قحط الأرض إلى أرضين أخرى، وفي حدوث الجوائح من جراد وحشرات وأمراض.

وفساد البحر كذلك يظهر في تعطيل منافعه من قلة الحيتان واللؤلؤ والمرجان (فقد كانا من أعظم موارد بلاد العرب)، وكثرة الزوابع الحائلة عن الأسفار في البحر، ونضوب مياه الأنهار وانحباس فيضانها الذي به يستقي الناس».

ويجوز أن يكون المعنى أن الله تعالى خلق العالم على نظام مُحكم ملائم صالح للناس فأحدث الإنسان فيه أعمالا سيئة مفسدة، فكانت وشائج لأمثالها:

وهل ينبت الخطّيَّ إلا وشيجُه؟

فأخذ الاختلال يتطرق إلى نظام العالم قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴿٥﴾ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ (التين: ٤ ـ ٦)[1].

ويمكن أن نضيف في عصرنا مع فساد البر والبحر: فساد الجو أيضا، فهو من عناصر البيئة الرئيسة، وقد أدخلنا عليه كثيرا من ألوان الفساد في عصرنا.

بين القرآن أن ظهور الفساد في البر والبحر إنما هو (بما كسبت أيدي الناس) أي ليس ظلما من الله لهم، وإنما هم الذي جنوا على أنفسهم ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ (آل عمران: ١٨٢).

وقد قرر القرآن هذه الحقيقة بجلاء: أن كل ما يصيب الناس من بلاء وكوارث في هذه الدنيا إنما هو بسوء أعمالهم، وصنع أيديهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾ (الشورى: ٣٠).

---

(١) انظر: التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور (٢١/ ١١٠-١١٢) بتصرف.

ومعنى أنه (يعفو عن كثير) أنه لا يؤاخذ الناس بكل ما كسبت أيديهم، لأنه لو فعل ذلك لهلك كل من في الأرض بذنوبهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ﴾ (النحل: ٦١) ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ﴾ (فاطر: ٤٥).

ولهذا قالت الآية التي معنا ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (الروم: ٤١) أي أنه سبحانه لا يؤاخذهم بكل ما عملوا، وإنما يذيقهم جزاء بعض ما عملوا، ويعفو عن كثير، فضلا منه ورحمة.

ومن لطائف ما في هذه الآية أنه تعالى ختمها بقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (الروم: ٤١) أي أن الله تعالى حين ينزل بأسه ببعض عباده بسبب ما اقترفوا من معاصي وموبقات، لا يفعل ذلك انتقاما منهم، بل أدبا لهم، وتنبيها لهم من غفلتهم، لعل هذا الأدب الإلهي يوقظهم من سباتهم، ويردهم بعد شرود إلى ربهم، وليقولوا ما قال أبواهم آدم وزوجه: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (الأعراف: ٢٣).

إن فساد البيئة إنما هو من فساد الإنسان، ولن تصلح البيئة إلا إذا صلح الإنسان. ولن يصلح الإنسان إلا إذا صلحت نفسه التي بين جنبيه، أي صلح عقله وضميره، وصدق الله إذ يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ (الرعد: ١١).

١- تغيير خلق الله:

ومن أعظم ما يفسد البيئة، ويخرجها عن طبيعتها المهيأة لصلاح الإنسان: ما عبر عنه القرآن أبلغ التعبير، وهو «تغيير خلق الله» أو بتعبير آخر: تغيير (الفطرة) التي فطر الله الناس، وفطر الأشياء عليها.

وهو ما توعد به الشيطان اللعين أن يفسد به بني آدم ويضلهم عن طريقهم، حين قال: ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ

﴿خَلْقَ اللَّهِ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾ (النساء: ١١٩).

تبتيك آذان الأنعام الذي ذكره الشيطان، هو نوع من التغيير والإضلال الذي لبَّس به الشيطان على الإنسان، وأدخله في أودية الضلالات والأوهام، ولا سيما فيما يتعلق بالأنعام فجعل منها البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي، وحرموا منها وحللوا، ﴿وَقَالُوا هَٰذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَن نَّشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَّا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ إلى أن قال تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ (الأنعام: ١٣٨ ـ ١٤٠)

وأي خسارة أفدح من أن يستحل الإنسان المحرمات الكبيرة القاطعة مثل قتل ولده وفلذة كبده، كما كانوا يئدون البنات، وأن يحرم الحلال الطيب مثل الأنعام التي خلقها الله للإنسان، وجعلها رزقا له ﴿قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾.

﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ﴾ (النساء: ١١٩) هذا هو ما توعد به الشيطان ونفذه للأسف في الكثيرين من بني الإنسان. ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (سبأ: ٢٠).

تغيير خلق الله، يعني: خروج الإنسان من سواء الفطرة واستقامتها إلى الميل والانحراف إلى اليمين وإلى اليسار.

وإذا خرج الإنسان عن فطرة الله تعالى في نفسه، وفطرة الله في الأشياء المخلوقة من حوله، فسيضيع ويشقى، ويجد سنن الله تعالى في الكون وفي الإنسان ضده.

وهكذا كل من خرج على الفطرة عاقبته الفطرة نفسها، وعاقبه القدر

الأعلى أيضا، ويبقى عقاب الله تعالى المرتقب في الآخرة (ولعذاب الآخرة أشد وأخزى).

إن الذي حول الإنسان من بشر مكرم إلى آلة صماء، قد غير فطرة الله، وغير خلق الله سبحانه.

والذي حول الإنسان إلى سبع مفترس، أو إلى حيوان شره، لا هم له إلا بطنه وشهوته، قد غير فطرة الله، وغير خلق الله.

والذي حول الإنسان المنتج المكلف بعمارة الأرض، إلى مجرد مستهلك، ومستهلك بإسراف، قد غير فطرة الله، وغير خلق الله.

والذي حول الماء الذي أنزله الله من السماء ماء طهورا إلى ماء ملوث بمخلفات المصانع وغيرها، قد غير فطرة الله، وغير خلق الله.

والذي حول النبات الطبيعي النافع إلى نبات ضار بواسطة الكيماويات، قد غير فطرة الله، وغير خلق الله.

والذي حول الهواء الذي صرفه الله بين السماء والأرض، والذي خلقه الله نافعا للناس، إلى هواء ملوث بآثار ما صنع الإنسان وتجاوز فيه، قد غير فطرة الله، وغير خلق الله.

والذي حول البقر وغيره من الأنعام من حيوان آكل للعشب إلى حيوان يطعم البروتينات الحيوانية المصنعة، حتى أدى إلى جنون البقر وغيره، قد غير فطرة الله، وغير خلق الله.

والذي غير التربة التي خلقها الله صالحة للإنبات وللسكنى إلى تربة ملوثة، قد غير فطرة الله، وغير خلق الله.

والذي غير طبيعة الأرض كلها، التي جعلها الله لأهلها مهادا وفراشا وبساطا ومستقرا، إلى أرض مهددة بالاضطراب والدمار من كل جانب، قد غير فطرة الله، وغير خلق الله.

والذي أجرى التجارب النووية في باطن الأرض، ولوث ظاهرها بالنفايات الذرية، والإشعاعات الضارة، قد غير فطرة الله، وغير خلق الله.

وما أكثر ما أفسد الإنسان حينما استجاب لنداء الشيطان وأمره للناس أن يغيروا خلق الله، فأطاعوه واتبعوه، فخسروا خسرانا مبينا.

٢ـ الظلم:

ومن أعظم ما يؤدي إلى فساد البر والبحر أو فساد البيئة: الظلم. سواء أكان ظلم الإنسان لنفسه، أم ظلم الإنسان لأخيه الإنسان، أم ظلم الإنسان للبيئة وعناصرها ومكوناتها المختلفة من الحيوانات والنباتات والجمادات من التربة والماء والهواء وغيرها.

وإذا كان العدل والإحسان مطلوبين من الإنسان أبدا في التعامل مع البيئة باعتبارهما مما أمر الله تعالى به وفرضه على عباده ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾ (النحل: ٩١).

فإن الظلم والإساءة مما حرمه الله تعالى على عباده، في التعامل مع عناصر البيئة، كما في التعامل مع الإنسان.

والظلم من الذنوب التي يعجل الله العقوبة عليها في الدنيا قبل الآخرة، حتى لا يتمادى الظالمون في ظلمهم، وخصوصا ظلم المستضعفين من الناس، الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا، ولا يجدون من يساندهم أو يدافع عنهم، هنا يتكفل القدر الأعلى بالثأر لهم والدفاع عنهم.

اقرأ معي قول الله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾ (الكهف: ٥٩) ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (النمل: ٥٢).

﴿كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (آل عمران: ١١٧).

وقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية وغيره: إن الله يبقي الدولة الكافرة إذا كانت عادلة، ويزيل الدولة المسلمة إذا كانت ظالمة، أي أن الظالم لا ينفعه إسلامه، بعد أن قضى عليه ظلمه وبغيه على الخلق ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُم﴾ (يونس: ٢٣).

وقد قال تعالى في كتابه: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ (هود: ١١٧).

فالمصلحون لا يهلكهم الله، وإن لم يكونوا مسلمين، لأن إصلاحهم نفعهم، وأجل عقابهم إلى الآخرة. وقوله تعالى (بظلم) تحتمل معنيين: الأول: أن يهلكهم ظالما لهم. والثاني: أن يفسر الظلم بالشرك، كما قال تعالى على لسان لقمان ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (لقمان: ١٣).

فمعنى الآية: وما كان ربك ليهلك القرى بسبب الشرك، وأهلها مصلحون. كأنما تشير الآية إلى أن الشرك إنما يهلك أصحابه إذا اقترن بالفساد والظلم.

٣ـ العلو في الأرض:

ومن أسباب فساد البر والبحر: علو الإنسان في الأرض: أي طغيانه واستكباره بغير الحق، وتجاوزه حده، كما تمثل ذلك في فرعون، الذي قال فيه القرآن: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (القصص: ٤).

وأي إفساد أعظم من تذبيح الذكور، واستحياء الإناث، فهو يريد أن يقضي على هذه السلالة، وسبب ذلك استضعافها والاستهانة بأمرها. واستعلاؤه عليها، ولذا قال تعالى عنه في سورة أخرى: ﴿إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِّنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ (الدخان: ٣١).

ولا عجب أن أدى به هذا العلو إلى (التأله) وادعاء الربوبية للناس ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ (النازعات: ٢٣ ـ ٢٤) وفي سياق آخر قال: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ (القصص: ٣٨).

إن هذا العلو المستكبر المتأله هو الذي انتهى بفرعون وملئه إلى الهلاك والدمار ﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ (الأعراف: ١٣٧).

وما صنعه فرعون قديما في بلد واحد هو مصر، يصنعه (فرعون الحديث) في بلاد شتى من عالمنا. وفرعون الحديث هنا هو إنسان الحضارة الغربية المعاصر، الذي علا في الأرض و (تأله) فيها، وإن لم يدع الألوهية قولا، فهو يمارسها فعلا، ويتصرف في هذا الكون تصرف الإله الذي لا يسأل عما يفعل، لأنه ـ كما عبر بعض علمائهم وفلاسفتهم ـ أصبح مالكا للطبيعة، بعد أن قهرها وانتصر عليها.

٤ـ اتباع الهوى:

ومن أعظم ما يفسد البيئة كذلك، ويجلب الفساد في البر والبحر والجو: اتباع الإنسان لهواه، وركضه وراء شهواته، وإشباع غرائزه الدنيا، على حساب المثل العليا، وخضوع الإنسان لنداء أنانيته وفرديته، ولو جار ذلك على حقوق غيره، وترجيحه لرغبات يومه، دون التفات إلى غده. فهذا هو الذي ينزل بالإنسان من مخلوق راشد يجعل شهواته تحت سلطان عقله، إلى مجرد حيوان تسيره غريزته، فلا عقل له، ولا ضمير له. وفي هذا يقول القرآن ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ (محمد: ١٢) وقال عز وجل: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾ (الفرقان: ٤٣، ٤٤).

وإنما كانوا أضل سبيلا من الأنعام لأمرين:

الأول: أن الأنعام لم تؤت ما أوتوا من العقل والإرادة والمواهب الروحية، وبالتالي لم ينزل لها كتاب، ولم يبعث لها رسول.

والثاني: أن الأنعام قد أدت مهمتها المنوطة بها، فأتت درها ونسلها، وحملت الأثقال وأثارت الأرض وسقت الحرث، ولم تتمرد على أداء رسالتها يوما.

أما الإنسان فرغم ما أوتي من الملكات والقدرات، لم يؤد رسالته التي كلف بها، فلا غرو أن يكون أحط من الأنعام، وأضل سبيلا منها.

وإنما أنزل الله كتبه، وبعث رسله، ليخرجوا الناس من العبودية لأهوائهم إلى العبودية لله وحده، واتباع شريعته، وبغير هذا يحدث الفساد في الكون كله، كما قال تعالى: ﴿ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾ (المؤمنون: ٧١).

وقال تعالى لنبيه داود ﴿ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ (ص: ٢٦).

وقال: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ ﴾ (القصص: ٥٠).

٥- الانحراف عن الميزان الكوني:

ومن أسباب ظهور الفساد في البر والبحر: انحراف الإنسان عن (الميزان الكوني) الذي أقام الله تعالى عليه هذا العالم، فقد خلق كل شيء فيه بقدر، ووضع كل شيء فيه بحساب ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ ﴾ (الرعد: ٨) ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الأَرْضِ ﴾ (المؤمنون: ١٨) ﴿ وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴾ (الحجر: ١٩).

وآيات كثيرة دلت على أن كل شيء في هذا الكون الكبير مخلوق بمقدار

وميزان، ومن أجلى الآيات وأظهرها دلالة على هذا المعنى آيات سورة الرحمن: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴿٩﴾﴾ (الرحمن: ٥ ـ ٩) .

فأشارت هذه الآيات إلى الميزان الكوني الذي قرنه الله برفع السماء، ولا يظن ظان أن هذا الميزان هو الذي توزن به الأشياء المشتراه من السوق، فهذا يقرن بالكيل، ولا يقرن برفع السماء.

وأمرت الآيات بإقامة الوزن بالقسط، أي العدل، ونهت عن (الطغيان) في الميزان، وهو الإسراف والإفراط، كما نهت عن (الإخسار) في الميزان، وهو التقصير والتفريط. وموجب هذا هو الوقوف عند حد الوسط والاعتدال. وهو ما تميزت به هذه الأمة ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ (البقرة: ١٤٣).

وإن الفساد إنما يحدث في الأرض بتجاوز العدل أو القسط، والانحراف إلى الطغيان أو الإخسار.

وإن الخير كل الخير في إقامة الوزن بالقسط في كل شيء، وهو ما بعث الله به رسله وأنزل به كتبه، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ (الحديد: ٢٥) .

والقسط مطلوب في تعامل الإنسان مع نفسه، وتعامل الإنسان مع أسرته، وتعامل الإنسان مع قومه، وتعامل الإنسان مع خصومه، فلا يجوز أن ينحرف الإنسان عن القسط لعاطفة محبة أو عداوة ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ﴾ (النساء: ١٣٥) ﴿وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ (المائدة: ٨) .

وكذلك يطلب القسط في تعامل الإنسان مع البيئة بعناصرها المختلفة، بلا

طغيان ولا إخسار في الميزان، أي بلا إفراط ولا تفريط. وهذا هو العدل والاعتدال.

فإذا خرج الإنسان عن هذا الحد، فطغى في الميزان أو أخسر فيه، فقد أساء وتعدى، فإذا استمر في ذلك، ولم يراجع نفسه، ويثب إلى رشده، ويتب إلى ربه، فقد استحق عقوبة الله تعالى، وكان تجاوزه ذلك سببا في ظهور الفساد في البر والبحر.

٦ـ الكفر بأنعم الله:

ومن أسباب فساد البيئة أو ظهور الفساد في البر والبحر: الكفران بأنعم الله تعالى. فقد آتى الله الإنسان نعما كثيرة هيأ له أسبابها، ووفر له مصادرها، ويسر له سبلها، وكلما كانت حاجته إلى هذه النعم أشد وأكثر، كان عطاؤه تعالى فيها أعظم وأوفر.

حتى إن أعلى النعم وأنفسها وأعظمها عند الإنسان هي أرخصها، بل هي في الغالب توفر له مجانا بلا مقابل، مثل الماء والهواء، والشمس والضياء. فإن الله تعالى وفرها للعباد بكميات وافرة، تفي بمتطلبات الإنسان وحاجاته دون أن يحتكرها أحد، إلا ظالما، كالذين يحتكرون الماء العام، وهو في الأصل ملك للناس كافة.

بيد أن الإنسان لم يرع حق هذه النعم الجليلة، ولم يؤد شكرها، كما يجب، بل استخدمها في غير ما خلقت له، فعصى الله تعالى بها، أي أنه اتخذ نعم الله أدوات في معصية الله. وهذا هو الكفران بالنعمة، الذي يؤدي إلى زوالها، ويوجب لفاعله العقوبة من واهب النعم سبحانه.

وقد قال عز وجل: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ (إبراهيم: ٧).

فكل من كفر بأنعم الله استحق عذابه جزاء وفاقا، ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ (آل عمران: ١٨٢).

ولقد أشار القرآن إلى قرية تغير حالها من سعادة إلى شقاوة، ومن أمن إلى خوف، ومن سعة إلى ضيق بسبب هذا الكفران. قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ (النحل: ١١٢).

ومثل هذه القرية القوم الذين أشار إليهم القرآن في سورة أخرى، إذ قال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْراً وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ (إبراهيم: ٢٨).

كما ذكر القرآن لنا قصة سبأ، وما من الله به عليهم من نعمة، وكيف قابلوا هذه النعم بالكفران، فكان جزاؤهم هلاكها وحرمانهم منها، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلاَّ الْكَفُورَ ﴿١٧﴾﴾ (سبأ: ١٥-١٧).

(٥)

وسائل إسلامية معاصرة
لرعاية البيئة

١ـ تربية الناشئة تربية موصولة بالدين.

٢ـ تثقيف الكبار تثقيفا موصولا بقيم الإسلام.

٣ـ رقابة الرأي العام بإحياء (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر).

٤ـ سلطة التشريع والعقاب.

٥ـ التعاون مع المؤسسات المحلية والعالمية.

وسائل إسلامية معاصرة لرعاية البيئة

للإسلام وسائل عدة لحماية البيئة، وتنميتها وتحسينها، وعلاج مشكلاتها التي أمسى العالم كله يشكو من آثارها.

وهذه الوسائل كلها تتعلق بدور الإنسان في البيئة، إذ الطبيعة من حولنا بشمسها وقمرها، وليلها ونهارها، وبحارها وصحاريها.. لا نستطيع أن نتحكم فيها، من ناحية، ولأنها لا مشكلة منها ولا خطر في ذاتها، إنما المشكلة تنبع من صلة الإنسان بها، ونظرته إليها، وتصرفه فيها، وتعامله معها.

فإذا أصلحنا الإنسان، فقد صلحت الحياة كلها من حوله، وإنما يصلح الإنسان من داخله، لا من خارجه، ومن باطنه لا من ظاهره، ومن نفسه التي بين جنبيه لا من غلافه البدني. وهذه سنة ثابتة قررها القرآن الكريم حين قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ (الرعد: ١١) ومن المؤكد: أنه لا يصلح الأنفس شيء مثل الإيمان، فهو سبيل الخلاص، وطوق النجاة.

هذه الوسائل الإسلامية تتمثل فيما يلي:

١- تربية الناشئة:

أولى هذه الوسائل هي التربية والتعليم، وخصوصا للناشئة في الحضانات والمدارس، بمستوياتها المختلفة، حتى الجامعة.

فمن الواجب غرس فكرة العناية بالبيئة والمحافظة عليها، والتعامل معها بـ (الإحسان) الذي أمر الله به، وكتبه على كل شيء، كما جاء في الحديث: «إن الله كتب الإحسان على كل شيء» وبـ (الرفق) الذي يحبه الله تعالى في الأمر كله، وما دخل في شيء إلا زانه، ولا نزع من شيء إلا شانه.

وبالاعتدال الذي يجعل الإنسان ينتفع بخيرات البيئة بلا شح ولا إسراف، انتفاع عباد الرحمن ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ (الفرقان: ٦٧).

وبشكران النعمة الذي يجب أن يتصف به كل مؤمن، فهو الذي يحفظها عليه، بل يزيدها وينميها. وعلى المؤمن أن يقول ما قال سليمان: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ (النمل: ٤٠).

كما عليه أن يتعامل مع البيئة ومكوناتها بتقوى الله تعالى، وهي الشعور برقابته عز وجل، وأنه لا يضيع عنده عمل عامل من ذكر أو أنثى، وأنه سبحانه سيجزي الذين أساءوا بما عملوا، ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى.

هذه المعاني يجب أن نغرسها في عقول أطفالنا وفي وجدانهم منذ نعومة أظفارهم، فإن التعليم في الصغر، كالنقش على الحجر، وهذه السن هي التي تتكون فيها العادات، وتكتسب الفضائل أو الرذائل. وقد قال الشاعر:

إن الغصون إذا قومتها اعتدلت ولن تلين إذا قومتها الخشب!

ومن اللازم هنا: أن يدخل جزء من (علم البيئة) وضرورة رعايتها والمحافظة عليها في المناهج والكتب الدراسية بالقدر الملائم، وبالأسلوب المناسب لسن الطالب ومداركه، وبالطريقة المشوقة التي تشده إلى هذا اللون من الثقافة، الذي يجب أن يرتبط بالدين، باعتباره المؤثر الأول في حياة الإنسان عامة، والمسلم خاصة.

ولا يجوز للآباء والأمهات أن يلقوا كل العبء على المدرسة، ويتخليا عن واجبهما في الرعاية التربية، بل ينبغي أن يتعاون البيت والمدرسة في هذه التربية المنشودة، بحيث يكمل كل منهما الآخر، في تنشئة جيل المستقبل، الذي يؤدي واجبه كما يعرف حقه، ولا يقتصر على طلب الحقوق، مع التقصير في الواجبات.

٢ـ التوعية والتثقيف للكبار:

والوسيلة الثانية، هي: التوعية والتثقيف للكبار وللجماهير بصفة عامة، وذلك عن طريق المؤسسات الثقافية التي تعمل على الرقي بفكر الأمة، وتسمو بأذواقها واتجاهاتها العقلية والنفسية، وتصحح مفاهيمها الخاطئة، وتقوم أفكارها المنحرفة، متعاونة مع أجهزة الإعلام الواعي الهادف، الذي يبني ولا يهدم، ويصلح ولا يفسد، بحيث ينشئ تصورا معرفيا بيئيا جديدا منبثقا من التصور الإسلامي العام لله سبحانه وللإنسان وللكون وللحياة، والوجود. فالثقافة هي التي تغير الأفكار والأذواق والميول، وتكون اتجاهات الأفراد، خيرة كانت أم شريرة.

كما لا بد أن يدخل إصلاح البيئة، والحرص على سلامتها ونمائها، وأداؤها لما يطلب منها على الوجه الأمثل.. في مناهج الإعلام مقروءا ،أو مسموعا، أو مرئيا. وأن تعد برامج ثقافية ملائمة، على شتى المستويات، بعضها أكاديمي يصلح للخاصة، وبعضها جماهيري ينفع العامة.

بل لا بد أن تدخل هذه المعاني والمفاهيم البيئية ضمن الأعمال الدرامية من التمثيليات والمسلسلات ونحوها، لما فيها من تشويق، وما لها من تأثير بالغ على الناس.

ولا بد للإعلام الديني أن يقوم بمهمته في التوعية والترشيد والتوجيه، المعتمد على القرآن والسنة وهَدْي السلف الصالح، عن طريق خطبة الجمعة، ودرس المسجد، والمحاضرات الدينية، فلا ريب أن للمسجد تأثيره الكبير على عقول المسلمين وضمائرهم، إذا تهيأ له الخطيب الصالح الذي يفقه دينه ويفقه عصره.

٣ـ رقابة الرأي العام:

والوسيلة الثالثة، هي: رقابة الرأي العام، الذي يمثل (الضمير الجماعي) للأمة، بمقتضى فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، التي ميز الله بها

هذه الأمة ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ (آل عمران: ١١٠).

وهو من الأوصاف الأساسية لمجتمع المؤمنين والمؤمنات، كما وصفه الله تعالى في كتابه حيث قال: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ﴾ (التوبة: ٧١).

فقدم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على الفرائض المعروفة: الصلاة والزكاة، ليشعر بأهميته في الدين. وبهذا يتكون الضمير الاجتماعي للأمة، وتتقرر رقابة الرأي العام الواعي على أوضاعها، والسهر على استقامتها.

ولا ريب أن إصلاح البيئة ورعايتها من المعروف، وأن إفسادها وتلويثها والاعتداء عليها من المنكر.

ومعنى هذا: أن كل مسلم مسئول مسئولية تضامنية عن سلامة البيئة وصلاحها، وإذا رأى من يجور عليها بتلويث أو إتلاف أو إفساد، وجب عليه أن ينهاه عن ذلك، بل المطلوب أساسا أن يغير هذا المنكر بقدر استطاعته، بيده إن كان ذا سلطة، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان.

وبهذا يحاصر المنكر والفساد حصارا أدبيا، ويبقى في أضيق نطاق ممكن.

ويدخل في هذا المجال: إنشاء (الجمعيات الأهلية) للمحافظة على البيئة، وهذا من التعاون على البر والتقوى. وهذه الجمعيات هي البديل الشعبي عن دور (المحتسب) في عصور الحضارة الإسلامية.

وقد كان (المحتسبون) قديما يقومون بهذا الواجب الاجتماعي، وكانوا يفرضون رقابة قويةً ـ بسلطان الشرع ـ على أفراد المجتمع وطوائفه المختلفة، ومؤسساته المتنوعة، بما لهم من كفاية وأعوان وسلطة فيها طرف من هيبة القضاء، وطرف من قوة الشرطة، وقدرتهم على التنفيذ.

٤ ـ سلطة التشريع والعقاب:

وتبقى الوسيلة الرابعة، وهي: التشريع وسلطة القانون، الذي يلزم ويعاقب من لا يلتزم، عن طريق ولي الأمر. وإلى ذلك أشار القرآن بقوله: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ (الحديد: ٢٥) فمن لم يصلحه الكتاب والميزان أصلحه الحديد ذو البأس الشديد. وفي الحديث الصحيح: «كلكم راع، وكلكم مسئول عن رعيته، فالإمام راع وهو مسئول عن رعيته»[١].

ولقد قال الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه «إن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن» فإذا كان القرآن ينمي حوافز الإيمان وينشئ الضمائر الحية، فإن السلطان يقف بالمرصاد لكل من يتجاوز الحدود.

ولهذا كان لا بد من دخول المحافظة على البيئة، ومعاقبة من يجور عليها، في التشريعات الملزمة للأمة.

وعندنا من عمومات النصوص، ومن المصالح المرسلة، وسد الذرائع، ومن القواعد الفقهية ما يعيننا على إنشاء قانون للبيئة، وفق هذه القواعد الشرعية:

لا ضرر ولا ضرار. . الضرر يزال . . والضرر يدفع بقدر الإمكان. يتحمل الضرر الأدنى لدفع الضرر الأعلى. . يرتكب أخف الضررين. . درء المفسدة مقدم على جلب المصلحة. . ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب. . ما أدى إلى الحرام فهو حرام. . الضرورات تبيح المحظورات. . ما أبيح للضرورة يقدر بقدرها. الحاجة تنزل منزلة الضرورة. . ما بني على باطل فهو باطل. . الأمور بمقاصدها. العادة محكمة. . ما قارب الشيء يأخذ حكمه. . النادر لا حكم له. . للأكثر حكم الكل.

إلى آخر تلك القواعد المعروفة التي ألفت فيها كتب.

---

(١) متفق عليه عن ابن عمر.

وعلى الدولة أن تتخذ من الإجراءات الإدارية والاقتصادية، ما يحفظ البيئة، ويرم ما خرب منها، ويصلح ما فسد، إلى جوار الإجراءات الوقائية، التي تمنع الفساد قبل وقوعه.

بالإضافة إلى عقوبة من يعتدي على أي مكون من مكونات البيئة بأي صورة من الصور: بالتلويث أو بالإسراف في الاستهلاك، أو بالإخلال بالتوازن، أو غير ذلك من أشكال الإفساد في الأرض.

ومن المعروف فقهاً: أن العقوبات نوعان: نصية كالحدود، واجتهادية كالتعزير. وهو عقوبة على كل معصية لا حد فيه ولا كفارة. ولا شك أن منها قضايا العدوان على البيئة.

وعلى أولي الأمر الشرعيين واجبات كثيرة نحو حماية البيئة وتنميتها، وإلزام الأفراد والشركات والمؤسسات بواجبهم نحوها. وإلزامهم بإزالة الأضرار الناشئة عن أعمالهم، وإصلاح المواقع التي تسببوا في تدهورها، ودفع تعويضات عن الأضرار التي يحدثونها في الطبيعة ولا يمكن إزالتها أو معالجتها.

وعلى أولي الأمر كذلك إيقاف المشروعات المضرة بالبيئة، وإن كان فيها بعض النفع لأن العبرة بالأغلب. فما كان إثمه أكبر من نفعه فهو محرم. وعليهم عقاب كل من يتعدى أو يقصر في تنفيذ العقود المتعلقة بالبيئة، لأن من أمن العقوبة أساء الأدب.

٥- التعاون مع المؤسسات الإقليمية والعالمية:

والوسيلة الخامسة هي: التعاون مع الجماعات والمؤسسات الأهلية والرسمية الإقليمية والدولية للحفاظ على البيئة، ومقاومة كل ما يهددها من الاستنزاف والتلوث والإفساد، والإخلال بالتوازن الطبيعي والكوني، وهو ما دعا أحد الباحثين أن يؤلف كتابا جعل عنوانه: «يا سكان الأرض اتحدوا» أي ضد الأخطار الكبرى التي تنذر البشرية بشر مستطير إذا لم يتداركهم الله

برحمته، ويسارعوا إلى العمل معا لسد الخلل، وترميم الخراب، وإصلاح الفساد، ويد الله مع الجماعة.

ولقد خاطب الله الناس جميعا بقوله: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ (فاطر: ٦) فعندما يكون العدو واحدا، يجب أن يتحد الموقف ضده، وشيطاننا اليوم يتمثل في الذين يفسدون البيئة، ويخربونها بقصد أم بغير قصد. فهم أعداء الإنسانية جميعا، وعلينا أن نجند كل القوى لمقاومتهم، وردهم إلى رشدهم.

هذه هي الوسائل الأساسية التي يتخذها الإسلام للمحافظة على البيئة وصلاحها، وهو يرحب بكل وسيلة يبتكرها البشر في هذا المجال، إذا لم يكن فيها ما يخالف قيم الإسلام وشرائعه، فالحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق الناس بها.

(٦)
رعاية البيئة في واقعنا التاريخي

١ ـ رعاية البيئة من خلال مؤسساتنا الحضارية.

٢ ـ رعاية البيئة من خلال التشريع.

٣ ـ رعاية البيئة من خلال نظام الحسبة.

رعاية البيئة في واقعنا التاريخي

لم تكن التعاليم والأحكام الإسلامية في رعاية البيئة وإصلاحها وحمايتها مجرد أفكار طوباوية، أو مفاهيم فلسفية، أو حبر على ورق كما يقال، بل كانت أوامر إلهية، وتوجيهات ربانية، يجب على المسلمين أن ينفذوها بمقتضى إسلامهم، وبحكم إيمانهم. فليس الإيمان بالتمني ولا بالادعاء، ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل. كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً ﴾ (الكهف: ٣٠).

ولا غرو أن نجد (رعاية البيئة) أمرا ملموسا ومشهودا في الواقع التاريخي لحضارتنا الإسلامية، وخصوصا في عصور ازدهارها.

طبقت ذلك الشعوب والجماهير الإسلامية بمقتضى وعيها الديني، وحسها الإيماني، والتزامها الأخلاقي، ويقينها الراسخ بأن سعادتها في الدنيا، وفلاحها في الآخرة، مرهون بامتثال ما أمر الله به، واجتناب ما نهى الله عنه، وهو سبحانه قد أمرهم بكل خير، ونهاهم عن كل شر. ومن الخير الذي أمرهم به وحضهم عليه: العناية بالبيئة وإصلاحها وحمايتها من كل فساد أو تلوث أو إضرار. ومما نهاهم عنه الإفساد في الأرض، والخروج عن حد الاعتدال في التعامل مع عناصرها بالطغيان أو الإخسار في الميزان.

رعاية البيئة من خلال المؤسسات الحضارية:

كما أن (المؤسسات العامة) في الحضارة الإسلامية، كان لها نصيبها في رعاية البيئة والمحافظة عليها.

ومن هذه المؤسسات التي كان لها أثرها ودورها الذي لا يجحد :

١ـ مؤسسة الخلافة : أو الإمامة العظمى أو رئاسة الدولة ، أو السلطة التنفيذية العليا وأعوانها .

فقد رأينا الخلفاء يعنون بأمر البيئة ، بأنفسهم وبولاتهم وأعوانهم ، كما رأينا عمر بن الخطاب يحث أحد الصحابة على غرس الشجر في أرضه ، ويشاركه بيده في الغرس .

ورأيناه يوصي بالرفق بالحيوان ، وينكر على من قسا عليه . ويرى أنه ـ وهو بالحجاز ـ مسئول عن هلاك جدي بشط الفرات بالعراق .

ورأيناه يشجع على إحياء الموات ، ومن أقطِع أرضا ، ولم يعمرها ولم يحيها انتزعها منه وأعطاها لغيره .

ورأينا عمر بن عبد العزيز يفعل مثل ذلك ، وينهى الحمالين الذين يحملون على الإبل ألا يزيدوا في حمولتها عن مقدار معين .

والأمثلة كثيرة على تدخل الخلفاء والأمراء فيما يتعلق بالبيئة إيجابا أو سلبا ، أمرا أو نهيا .

٢ـ وهناك (مؤسسة القضاء) فيستطيع القاضي أن يحكم بالتعزير على كل من أساء إلى البيئة ، إذا اشتكى بعض الناس إليه احتسابا ، أو رأى أحدهم من يؤذي الناس في طريقهم العام ، أو يلوث مياههم ، أو رأى من يهمل بهائمه وأنعامه ، ولا يطعمها أو يسقيها ، قسوة عليها ، وقد نقلنا كلام أبي علي الرحال المغربي في ذلك ، وهو كلام قوي تؤيده الأدلة الشرعية . ومن حق القضاء أن يصدر أحكامه بالتأديب والعقاب .

٣ـ وهناك (مؤسسة الحسبة) ولها دور كبير في الإشراف والإرشاد والرقابة والتأديب ، وقد كانت تتدخل في كثير من أمور الحياة الاجتماعية والاقتصادية والأخلاقية ، وسنتحدث عنها بتفصيل أكثر .

٤ـ وهناك مؤسسة الوقف الخيري. وهي مؤسسة انتشرت في العالم الإسلامي منذ عهد النبوة والصحابة، وتقوم على أساس الصدقة الجارية (الدائمة) بأن يحبّس الإنسان (الأصل المالي) ويسبِّل ثمرته، وأن يجعلها موقوفة على الخيرات، وسد الثغرات في حياة الناس.

ولقد كان للأوقاف ـ أو الحبوس ـ الإسلامية دور غير منكور في الحضارة الإسلامية، وتناولت أدق جوانب الحياة، وسدت ثغرات كثيرة، ولبت حاجات شتى في الحياة، مثل بناء (المارستانات) أي المستشفيات التي تعالج المرضى مجانا، وتطعمهم مجانا. ومثل الوقف على المدارس، والاستراحات في طرق الأسفار، و(السبل) التي يشرب منها الناس.

بل هي لم تقتصر على حاجات البشر وحدهم، بل شملت حاجات بعض الحيوانات، حتى رأينا من خيار المسلمين من ينشىء وقفا للكلاب الضالة التي ليس لها مالك.

٥ـ وهناك (مؤسسة الزكاة). وهي الشعيرة التعبدية والفريضة المالية، والدعامة الثالثة من دعائم الإسلام بعد الشهادتين وإقام الصلاة. وقد قرنها الله في القرآن بالصلاة في ثمانية وعشرين موضعا. وجعلها نظاما تشرف عليه الدولة تحصيلا وتوزيعا، بوساطة جهاز (العاملين عليها) الذين يجبونها من أغنياء كل إقليم ليردوها على فقرائه.

ولقد قامت الزكاة بدورها في معالجة مشكلة الفقراء والمساكين والغارمين وأبناء السبيل من أصحاب الحاجات، وكانت أول نظام للمساعدات الحكومية في التاريخ، بل كانت الدولة الإسلامية أول دولة في العالم تحارب وتجيش الجيوش من أجل حقوق الفقراء في أموال الأغنياء.

ومن المعلوم أن مشكلة الأعداء الثلاثة: الفقر والمرض والجهل، تعد من أعوص المشاكل التي تعترض رعاية البيئة والإحسان بها. وللزكاة دور أساسي في معالجتها.

٦ـ وهناك (مؤسسة الفتوى والإرشاد الديني) والذي يقوم به علماء الدين في المساجد والزوايا، في خطبهم ودروسهم ومواعظهم، وفتاواهم لمن يسألهم عن أحكام الشرع في القضايا المختلفة، ومنها ما يتصل بالبيئة.

ومن المؤكد أن الأمة الإسلامية أمة دينية، كما يشهد بذلك من يعايشها ويسبر أغوارها، فهو يستيقن بأن الدين هو الموجه الأول لتفكيرها، والمحرك الأول لمشاعرها، والمحدد الأول لسلوكها. ومن أراد أن يخاطب هذه الأمة بغير لغة الدين، أو يحركها بغير بواعث الدين، فستذهب محاولاته صيحة في واد، ونفخة في رماد كما يقال.

وقد كان الفقه الإسلامي هو مصدر الإفتاء لمن يفتون من العلماء، كما كان مصدر القضاء لقضاة الأمة، وإن اختلفت مذاهبهم. وكذلك كان مرجع الأمراء والمنفذين، الذين كانوا يرجعون عادة إلى الفقهاء. وإن لم يقنن الفقه الإسلامي في صورة مواد قانونية إلا في العصر الأخير للعثمانيين، الذين كانوا يحكمون جل العالم الإسلامي لعدة قرون.

وسنلقي ضوءا كاشفا على ذلك في الصفحات التالية بتوفيق الله تعالى.

رعاية البيئة من خلال نظام الحسبة

قد يقول قائل: لا ننكر أن التعاليم الإسلامية والأحكام الشرعية المتعلقة بالبيئة ذات قيمة كبيرة من الناحية الفكرية، والتصور النظري، ولكن النظر شيء والتطبيق شيء آخر، فكم من أفكار مثالية، وأحلام طوباوية، يحلق في أجوائها بعض البشر الحالمين، ولكنها لم تجد طريقها إلى الواقع العملي، مثل جمهورية أفلاطون، والمدينة الفاضلة للفارابي، وأمثالهما.

وأقول لهؤلاء: إن المزية الواضحة لشريعتنا أنها شريعة واقعية، وأنها تتعامل مع الإنسان، كما هو، بغرائزه الهابطة، وأشواقه الصاعدة، بقوته وضعفه، واستقامته وانحرافه، ورشده وغيه. ولهذا لم يصعب تطبيقها في واقع الحياة، يوم كان أمر المسلمين بأيديهم، وكانوا سادة في ديارهم، ولم

يتخلوا عن هذه الشريعة يوما ، إلا تحت وطأة الاستعمار ، الذي أحل قوانينه وأنظمته الوضعية محل الشريعة الإسلامية .

هذا من ناحية . ومن ناحية أخرى إذا نظرنا إلى الواقع التاريخي في حضارتنا الإسلامية ، نرى أن العناية بالبيئة ونظافتها وحمايتها ، وأن الفكر البيئي والحس البيئي ، كل ذلك كان قائما وبينا في الحياة الإسلامية .

ومن أبرز ما يدل على تلك الظاهرة : (نظام الحسبة) الذي اشتهر بين المسلمين ، وبدأ منذ عهد النبوة ، ثم في عهد الخلفاء الراشدين ، ولاسيما عمر ، ثم نما واتسع في العهود التالية ، وخصوصا عهد العباسيين ، وهو نظام يجمع بين الإرشاد والرقابة والقضاء والتنفيذ . وقد وزعت اختصاصاته في عصرنا على عدة دوائر أو وزارات ومؤسسات . ولكن (المحتسب) كانت له منزلة خاصة ، وهيبة خاصة ، وسلطة خاصة ، حتى إنه كان يحتسب على المعلمين والقضاة والأئمة والوعاظ والأمراء أنفسهم .

ومن قرأ بعض كتب الحسبة يتبين له هذه الحقيقة جلية كالشمس ، كما نرى في (نهاية الرتبة في طلب الحسبة) للشيزري ، ومثله لابن بسام المحتسب ، وفي (معالم القربة في آداب الحسبة) للقرشي ، وفي نصاب الاحتساب للسنامي .

إن مؤسسة (الحسبة) نكاد لا نجد لها نظيرا في الحضارات الأخرى . فهي تختص في شطر كبير منها بالعمل على التطبيق العملي للفتاوى والأحكام المتعلقة بالحفاظ على البيئة من التلوث ، سواء كان تلوثا مباشرا بمختلف الملوثات الغازية والسائلة واليابسة ، أم كان تلوثا غير مباشر بالإخلال بالتوازن الكمي والكيفي للمكونات البيئية .

وقد سجلت لنا المدونات الكثيرة في الحسبة كيف كانت هذه المؤسسة تسهر عمليا بأجهزتها وأعوانها على المراقبة الدورية الدائبة في مختلف المدن والأرياف الإسلامية ، لأحوال المصانع والمتاجر والأسواق وحظائر الحيوانات ومزارع الخضر والفواكه ، لتمنع كل ما من شأنه أن يلوث البيئة من أدخنة وعفونات وسموم ، ومن إتلاف لأشجار وحيوانات ، وذلك للحفاظ عليها

من الخلل المضر بالحياة في صوره المختلفة. وحينما ينضم هذا الإجراء العملي التطبيقي الذي دأبت عليه الحضارة الإسلامية للصيانة من التلوث إلى تلك الفتاوى والأحكام النظرية المواكبة للتطور الحضاري في هذا الشأن، فإنه يتبين مدى ما كانت عليه الحضارة الإسلامية من رفق بالبيئة بالحفاظ عليها من التلوث، ومدى ما أنجزت في ذلك نظريا وعمليا.

وإذا نظرنا نظرة مقارنة في هذا الشأن بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية، فإننا نجد أن الحضارة الغربية لم تكن تصحبها في نشأتها ولا في لاحق أطوارها ثقافة توجه إلى صيانة البيئة من التلوث؛ ولذلك فقد كان التلوث يصاحبها ويتطور بتطورها، حتى وصل إلى ما وصل إليه من وضع خطير، حينما بلغت هي أوجها من التطور، وحينئذ أصبحت مشكلة تؤرق أهل هذه الحضارة الذين غدوا لا يهتدون إلى حل ناجع لها لما بلغت من مدى بعيد في التراكم والتفاقم[1].

نماذج من عناية المحتسبين بسلامة البيئة ونظافتها:

لقد ركزت كتب الحسبة كلها على سلامة البيئة ونظافتها، وخصوصا كل ما يتعلق بالإنسان في غذائه وسقائه وطهارته. وذكرت في ذلك أمورا في غاية الدقة، تدل على مدى اليقظة والاهتمام بشئون الإنسان وبيئته، وحمايتهما من كل تلوث يضر ويؤذي.

وأكتفي بأن أنقل هنا فقرات من كتاب الشيزري (نهاية الرتبة)، لأنه أولها وعمدتها، ومرجع كل من كتب بعده. حتى إنهم نقلوا ألفاظه بعينها؛ لنرى مدى عنايتهم بنظافة البيئة وسلامتها من كل ما يضر الإنسان.

في الحسبة على الخبازين:

قال رحمه الله في (الحسبة على الخبازين):

ينبغي أن ترفع سقائف حوانيتهم، وتفتح أبوابها، ويجعل في سقوف

(١) انظر: قضايا البيئة من منظور إسلامي للدكتور عبد المجيد النجار.

الأفران منافس واسعة يخرج منها الدخان، لئلا يتضرر بذلك الناس. وإذا فرغ الخباز من إحمائه مسح داخل التنور بخرقة نظيفة، ثم شرع في الخبز.

ويكتب المحتسب في دفتره أسماء الخبازين ومواضع حوانيتهم، فإن الحاجة تدعوه إلى معرفتهم؛ ويأمرهم بنظافة أوعية الماء وتغطيتها، وغسل المعاجن ونظافتها، وما يغطى به الخبز، وما يحمل عليه.

ولا يعجن العجان بقدميه ولا بركبتيه ولا بمرفقيه، لأن في ذلك مهانة للطعام، وربما قطر في العجين شيء من عرق إبطيه وبدنه، فلا يعجن إلا وعليه ملعبة (ثوب من غير كم) أو بشت مقطوع الأكمام؛ ويكون ملثما أيضا، لأنه ربما عطس أو تكلم، فقطر شيء من بصاقه أو مخاطه في العجين. ويشد على جبينه عصابة بيضاء، لئلا يعرق فيقطر منه شيء في العجين؛ وإذا عجن في النهار فليكن عنده إنسان في يده مذبه يطرد عنه الذباب[1].

فانظر - أخي القارئ - إلى هذه التفصيلات العجيبة التي يرشد إليها المحتسب، وينبه عليها الخبازين، ويراقبهم في تنفيذها، ويؤدبهم إذا أخلوا بها، وله السلطة والقدرة على التنفيذ.

في الحسبة على الفرانين:

وقال رحمه الله في (الحسبة على الفرانين):

يفرقهم المحتسب على الدروب والمحال وأطراف البلد، لما فيهم من المرافق، وعظم حاجة الناس إليهم. ويأمرهم بإصلاح المداخن، وتنظيف بلاط الفرن في كل ساعة، من اللباب المحترق، والشرر المتطاير، والرماد المتناثر، لئلا يلصق في أسفل الخبز منه شيء. ويجعل الفران بين يديه إجانة[2] نظيفة للماء، فإذا فرغ من الخبز أراق ما بقي فيها، لأنه إذا بقي فيها تغيرت رائحته؛ ثم يغسلها من الغد.

---

(١) نهاية الرتبة في طلب الحسبة للشيزري تحقيق السيد الباز العريني. نشر دار الثقافة - بيروت ص٢٢.
(٢) الإجانة في اللغة الإناء الذي تغسل فيه الثياب. (لسان العرب).

وينبغي أن يكون له مخبزان، أحدهما للخبز والآخر للسمك، ويجعل السمك بمعزل عن الخبز، لئلا يسيل شيء من دهنه على الخبز[1].

الحسبة على الرواسين وقلائي السمك والطباخين:

وقال رحمه الله في (الحسبة على الرواسين) أي بائعي رءوس المواشي:

يأمرهم بنظافة سمط الروس والأكارع[2] بالماء الشديد الحرارة، وجودة تنقية الشعر والصوف منها، ثم تغسل بعد ذلك بالماء البارد، غير الذي سمطت فيه. ويجب على الرواس أن يضم إصبعه في الخياشيم، ويغسل داخلها، بعد أن يدق مقدمها، وينزل ما فيه من القذا والوسخ والدود المتولد، إن كان هناك منه شيء[3].

وقال في (الحسبة على قلائي السمك):

يؤمرون كل يوم بغسل قفافهم وأطباقهم التي يحملون فيها السمك، وينثرون فوقها الملح المسحوق، كل ليلة بعد الغسيل؛ وكذلك يفعلون بموازينهم الخوص، لأنهم إذا غفلوا عن غسلها فاح نتنها وكثر وسخها، فإذا وضع فيها السمك الطري تغير ريحه وفسد طعمه. ويبالغون في غسل السمك بعد شقه وتنظيفه وتنقيته من جلده وفلوسه، ثم ينثرون عليه الملح والدقيق[4] . . . إلخ.

وقال في الحسبة على الطباخين:

يؤمرون بتغطية أوانيهم، وحفظها من الذباب وهوام الأرض، بعد غسلها بالماء الحار والأشنان[5].

---

(١) نهاية الرتبة ص٢٢.
(٢) الأكارع جمع الجمع لأكرع وكراع، وهو الجزء المستدق العاري من اللحم من ساق البقر والغنم. (لسان العرب).
(٣) المصدر السابق ص٣٢.
(٤) نفسه ص٣٣.
(٥) نفسه ص٣٤.

الحسبة على السمانين:

وقال في (الحسبة على السمانين) أي بائعي السمن:

ويعتبر المحتسب عليهم المخلل على اختلاف أجناسه - إذا طرح عليه الكرج[1] - وكلما كان مجسه يابسا قويا أعيد إلى الخل الثقيف[2]، وكلما لان مجسه رُمي به، فإنه قد فسد. ومتى حمضت عندهم الكوامخ يأمر المحتسب بإراقتها خارج البلد، فإنها لا تصلح بعد حمضها. وكلما تغير عندهم - أو فسد ودَوّد - شيء من الجبن المكسود في الخواب والشحوم والأدهان، فلا يجوز لهم بيعه لما فيه من الضرر بالناس؛ وكذلك الكبر[3] إذا دود في خوابيه.

وينبغي أن تكون بضائعهم مصونة في البراني والقطارميز[4]، لئلا يصل إليها شيء من الذباب وهوام الأرض، أو يقع عليها شيء من التراب والغبار ونحو ذلك؛ وإن وضعوها في قفاف الخوص فلا بأس بها إذا كانت مغطاة بالميازر[5]؛ وتكون المذبة في يده، يذب عن البضاعة بها الذباب. ويأمرهم المحتسب بنظافة أثوابهم، ويأمرهم بغسل مغارفهم وآنيتهم وأيديهم، ومسح موازينهم ومكاييلهم على ما ذكرناه. ويتفقد المحتسب أصحاب الحوانيت المنفردة في الحارات والدروب الخارجة عن الأسواق، ويعتبر عليهم بضائعهم وموازينهم في كل أسبوع، على حين غفلة منهم، فإن أكثرهم يدلس بما ذكرناه[6].

---

(١) الكرج في الفارسية القطعة من البطيخ (Steingass: Pers.Eng.Dict.)، وفي العربية توصف الأشياء التي تفسد وتعلوها خضرة بأنها مكرجة (لسان العرب)؛ وربما كان المقصود هنا بالكرج ما فسد من قشر البطيخ المخلل.

(٢) المقصود بذلك الخل الشديد الحموضة. (أقرب الموارد).

(٣) الكبر نبات شوكي (النويري: نهاية الأرب، ج١٢، ص١٥٧)، ويعمل منه كامخ بالريف بمصر حتى الوقت الحاضر.

(٤) القطارميز ـ ومفردها قطر ميز ـ وعاء من الفخار قصير العنق واسع الفوهة.

(٥) الميازر ـ ومفرها مئزر ـ رداء قصير يستر الجسم من السرة إلى أسفل، والمقصود بالمئزر هنا الغطاء.

(٦) نهاية الرتبة: ٥٩ ـ ٦٠.

الحسبة على الحمامات:

وقال في (الحسبة على الحمامات وقومتها) :

وينبغي أن يأمرهم المحتسب بغسل الحمامات وكنسها وتنظيفها بالماء الطاهر، غير ماء الغسالة، يفعلون ذلك مرارا في اليوم. ويدلكون البلاط بالأشياء الخشنة، لئلا يتعلق به السدر والخطمي والصابون، فتنزلق أرجل الناس عليها. ويغسلون الخزانة من الأوساخ المجتمعة في مجاريها، والعكر الراكد في أسفلها في كل شهر مرة، لأنها إن تركت أكثر من ذلك تغير الماء فيها في الطعم والرائحة. وإذا أراد القيم الصعود إلى الخزانة لفتح الماء إلى الأحواض، فينبغي أن يغسل رجليه بالماء ثم يصعد، لئلا يكون قد خاض في الغسالات. ولا يسد الأنابيب بشعر المشاطة، بل يسدها بالليف والخرق الطاهرة، ويشعل فيها البخور في كل يوم مرتين، سيما إذا شرع في غسلها وكنسها. ومتى بردت الحمام، فينبغي أن يبخرها القيم بالخُزَامَى[1]، فإن دخانها يحمي هوائها، ويطيب رائحتها. ولا يحبس ماء الغسالات في مسيل الحمام، لئلا تفوح رائحتها؛ ولا يدع الأساكفة وغيرهم يصبغون الجلود في الحمام، فإن الناس يتضررون برائحة الدباغة؛ ولا يجوز أن يدخل المجذوم والأبرص إلى الحمام.

ويلتزم المحتسب أن يتفقد الحمام في كل يوم مرارا، ويعتبر ما ذكرناه[2].

هذا غيض من فيض، مما اهتمت به كتب الحسبة التي صنعها أصحابها لتكون دليلا ومرشدا تفصيليا للمحتسبين، وبعض مؤلفيها - كابن البسام - كان محتسبا.

عناية الجانب التشريعي بالبيئة:

وإذا كان فقهنا الإسلامي يمثل التشريع الحي الذي كان يحكم الأمة خلال

(١) الخزامى - ومفرده خزاماه - عشبة طويلة العيدان، طيبة الرائحة.
(٢) المصدر السابق ص٨٧-٨٨.

عصور الحضارة الإسلامية، في شتى أنحاء العالم الإسلامي، إذ كان هو المرجع الفذ للقضاة والحكام، وقد رأينا الخلفاء الراشدين مثل العمرين - ابن الخطاب وابن عبدالعزيز - ينفذون الأحكام الشرعية ويراقبونها في حياة الناس، كما رأينا في مواقفهم الحاسمة من الإحسان والرفق بالحيوان، وكما رأينا كتب الفقه توجب على القضاة أن يتدخلوا لرفع الظلم عن المظلوم، وإن لم يستطع رفع مظلمته إليهم، مثل البهائم.

ورأينا مثل الشيخ أبي علي الرحال المالكي المغربي يدافع عن الطيور التي يحبسها الناس ويتلهون بها، وقد يغفلون عنها، فتهلك وتضيع. إلى آخر ما عرضناه من روائع فقهنا الواقعي المتجاوب مع أحداث الحياة.

على أننا نستطيع أن نجد(تشريعات مقننة) في المحافظة على البيئة في العصر الأخير للدولة العثمانية التي حكمت الوطن الإسلامي لعدة قرون. وهذه التشريعات المقننة في مواد، تتمثل في(مجلة الأحكام العدلية) الشهيرة، التي قننت القانون المدني على المذهب الحنفي، وفيه كثير من المواد المتعلقة بحماية البيئة، في مجالات عدة.

وأكتفي هنا بمادة أو مادتين من مواد (المجلة) المذكورة.

إحداهما: المادة رقم (١٢٠٠) والتي يقول نصها - كما في(درر الحكام شرح مجلة الأحكام): [١]

«يدفع الضرر الفاحش بأي وجه كان. مثلا لو اتخذ في اتصال دار دكان حداد أو طاحونا، وكان يحصل من طرق الحديد، أو دوران الطاحون، وَهَنٌ لبناء تلك الدار، أو أحدث فرنا أو معصرة، بحيث لا يستطيع صاحب الدار السكنى فيها، لتأذيه من الدخان أو الرائحة الكريهة، فهذا كله ضرر فاحش، فتدفع هذه الأضرار بأي وجه كان. وكذا لو كان لرجل عرصة متصلة بدار آخر، وشق فيها قناة، وأجرى فيها الماء منها لطاحونه، فحصل وهن لحائط

(١) ج٣ ص٢٧٤ـ٢٧٧.

الدار، أو اتخذ أحد في أساس جدار جاره مزبلة، وألقى القمامة عليها فأضر بالجدار فلصاحب الجدار طلب دفع الضرر، وكذلك لو أحدث بيدرا في قرب دار آخر وتأذى صاحب الدار من غبار البيدر بحيث أصبح لا يستطيع السكنى في الدار فيدفع ضرره، كما أنه لو أحدث أحد بناء مرتفعا في قرب بيدر آخر وسد مهب الريح فيزال لأنه ضرر فاحش. كذلك لو أحدث أحد مطبخا في سوق البزازين وكان دخان المطبخ يصيب أقمشة جاره ويضرها فيدفع الضرر. وكذلك لو انشق بالوع دار أحد وجرى إلى دار جاره وكان في ذلك ضرر فاحش فيجب تعمير البالوع المذكور وإصلاحه بناء على دعوى الجار».

هذه مادة واضحة الدلالة على الاهتمام بالبيئة، وقد ذكر شارحها السيد علي حيدر عشرين مسألة مهمة متفرعة عليها، مسندة إلى مصادرها من الفقه الحنفي نختار عددا منها.

١ ـ مثلا لو اتخذ أحد دكان حداد أو نجار أو طاحونا في جوار دار آخر بعد إنشاء تلك الدار فحصل من طرق الحديد أو من شغل النجارة أو من دوران الطاحون وهن لبناء تلك الدار أو أحدث بجوار الدار المذكورة فرنا دائميا كفرن السوق، أو أحدث معصرة أو مصبنة بحيث لا يستطيع صاحب الدار السكنى فيها، لتأذيه من الدخان ومن الرائحة الكريهة، أو اتخذ أحد دكان حلاج متصلة بدار آخر، وكان صاحب الدار لا يستطيع السكنى فيها من صوت الحلج، فكل ذلك ضرر فاحش يدفع ويزال بأي وجه كان لأن بعض هذه الأضرار يوجب وهن البناء، وبعضها يوجب منع الحوائج الأصلية من السكنى في الدار. (الطحطاوي في مسائل شتى من القضاء، والأنقروي في الحيطان).

وقد أشير شرحا بأن المقصود من الفرن هو الفرن الدائمي أو فرن السوق، أما الفرن الذي يتخذ خصيصا للدار فهو جائز (رد المحتار على البزازية).

٢ ـ كذلك لو نصب أحد منوالا لاستخراج الحرير وكان في ذلك ضرر للجيران من الدخان، ومن رائحة الديدان، يمنع (علي أفندي عن القنية).

٣ ـ إذا اتخذ أحد داره حماما، وحصل ضرر فاحش للجيران من دخانه، يمنع ما لم يكن دخان الحمام بقدر دخان الجيران (الهندية).

٤ ـ إذا بنى أحد مطبخا قرب دار أحد القديمة، وكان دخان المطبخ يدخل إلى دار صاحب الدار، فيدفع إذا كان الضرر فاحشا (أبوالسعود المصري).

٥ ـ إذا أنشأ أحد مسلخا في قرب أحد المساجد، وتأذى المصلون من رائحة الحيوانات المذبوحة، ومن أرواثها الكريهة فإذا أعْلِمَ القاضي ذلك يمنعه (علي أفندي).

٦ ـ إذا استمر أحد في إجراء الدباغة في داره، وتأذى الجيران يمنع. أما إذا أجرى هذه الصنعة نادرا فلا يمنع (الدر المختار).

٧ ـ إذا زرع أحد رزا في مزرعته، وتجاوزت المياه إلى مزرعة الجار فأفسدتها، يمنع، وكذلك لو اتخذ أحد داره الواقعة في طريق غير نافذ زريبة للأغنام، وتأذى الجيران من رائحة الروث، ومن عدم الأمان من الرعاة، يمنع (الخانية).

٨ ـ إذا كان الطابق السفلي من دار مملوكا لأحد والعلوي منها مملوكا لآخر فأسكن صاحب العلوي حيوانات في داره فسالت أبوالها إلى الطابق السفلي، وكان في ذلك ضرر فاحش على صاحب السفلي يمنع (علي أفندي).

٩ ـ إذا اتخذ أحد في عرصته المملوكة مزبلة في أساس جدار جاره، وألقى القمامة عليها أو كوم التراب فيها، وتضرر الحائط فلصاحب الحائط أن يطلب دفع ضرره (علي أفندي).

١٠ ـ إذا اتخذ أحد أصحاب الطريق الغير النافذة مزبلة في أساس حائط جاره وكان في ذلك ضرر فاحش يمنع (التنقيح).

١١ ـ وكذلك لو أحدث أحد بيدرا قرب دار أحد وكان غبار البيدر يؤذي

صاحب الدار مما يجعله بدرجة لا يستطيع السكنى في الدار فيدفع ضرره (علي أفندي).

١٢ ـ إذا أحدث أحد مطبخا في سوق البزازين وكان دخان المطبخ يصيب أقمشة جاره يدفع الضرر (علي أفندي).

١٣ ـ وكذلك لو انشق بالوع دار أحد، وسال في دار الجار، فيجب تعمير وإصلاح البالوع، بناء على دعوى الجار لكونه ضررا فاحشا.

١٤ ـ إذا خرب البالوع الذي أحدثه عدة أشخاص تحت الطريق العام واندفعت منه الأقذار إلى الطريق، وتأذى المارة، فللمارة أن يكلفوا أصحاب البالوع بإصلاحه، أو أن يمتنعوا من إسالة أوساخهم (علي أفندي)[1].

هذه المسائل كلها تدلنا بجلاء على أن القانون ـ المستمد من الفقه الإسلامي ـ قد عني بمسألة البيئة، وحمايتها، ومنع كل من يلوثها أو يتعدي عليها. وهي مبنية على قاعدة (لا ضرر ولا ضرار) وأن الضرر إذا كان فاحشا يزال بكل وجه، وإذا كان يسيرا يتسامح فيه.

والمادة الثانية التي نذكرها هنا هي المادة (١٢١٢) وهي تتعلق بالبيئة كذلك. تقول المادة: «إذا أنشأ أحد كنيفا أو بالوعا قرب بئر ماء أحد، وأفسد ماء تلك البئر، فيدفع الضرر، فإذا كان غير ممكن دفع الضرر بوجه ما، فيردم الكنيف أو البالوعة»[2].

---

(١) انظر: درر الحكام شرح مجلة الأحكام لعلي حيدر، تعريب المحامي فهمي الحقبي. منشورات مكتبة النهضة. بيروت ـ بغداد (٣/ ٢٧٤-٢٧٧).

(٢) انظر: درر الحكام (٣/ ٣٣٩، ٣٤٠).

خاتمة

صلاح البيئة بصلاح الإنسان

لقد بينت لنا هذه الدراسة : أن الله جلَّ وعلا قد خلق البيئة بكل مكوناتها وعناصرها، صالحة طاهرة، متوازنة متكاملة، وإنما دخل عليها النقص والفساد والاختلال بصنع الإنسان، وخصوصا في عصرنا الحديث، وبالأخص في العقود الأخيرة، الذي تفاقمت فيه مشكلات البيئة، وتعاظمت أخطارها.

فقد جنى الإنسان بغروره وحماقته وظلمه وجهله ـ على البيئة، فلوثها بعد طهارتها، وأفسدها بعد إصلاحها، وأصابها بالاضطراب والخلل في توازنها، فعاقبه القدر الأعلى على إفساده في الأرض، بما أصبح يعني من آثاره، ويشكو منه مر الشكوى، وما ظلم الله الإنسان، ولكن الإنسان هو الذي ظلم نفسه ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ (الحج : ١٠) .

لقد علم الله الإنسان ما لم يكن يعلم، وسخر له من قوى الطبيعة ما لم يكن يحلم به، وهيأ له من أسباب التفوق التكنولوجي والإلكتروني والبيولوجي ما فاق به كل خيال، ولكن الإنسان لم يقابل هذه النعم بالشكر اللائق بها، ولم يستخدمها فيما يحبه الله ويرضاه، بل فيما يكرهه ويسخطه. فبدل نعمة الله كفرا، وانقلبت النعم عليه نقما، وأمسى العلم وتطبيقاته العملية أداة إهلاك وتدمير، لا أداة عمارة وتثمير.

وسر ذلك : أن العلم في حضارة الغرب التي تسود العالم اليوم، لم ينشأ في حضانة الإيمان، بل نشأ ونما بمعزل عن الإيمان، بل اعتبر نفسه بديلا

للإيمان، وخصما للدين. فقد قام صراع طويل مرير في الغرب بين الدين والعلم، انتهى بانتصار العلم ومكتشفاته على الدين ومعتقداته هناك. أعني: دين الكنيسة الغربية، التي تبنت مفاهيم وأفكارا رجعية خرافية، وأضفت عليها قداسة دينية، وقاتلت دونها ـ وهي ليست من دين الله الحق في شيء ـ فحق لها أن تنهزم، وأن ينتصر العلم عليها.

ولا علاج لمشكلات البيئة وأخطارها على البشرية، إلا بعلاج الإنسان نفسه، فهو الذي أفسد البيئة، وعليه أن يصلحها.

والإنسان لا يعالج من خارجه، بل من داخله، من نفسه التي بين جنبيه، فهي أصل الداء، وإصلاحها هو السبيل الفذ للدواء. والقرآن الكريم يقرر هذه القاعدة أو هذه السنة الاجتماعية، فيقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ (الرعد: ١١).

لا بد من التشريعات والعقوبات الزاجرة لمفسدي البيئة، ولكن هذا وحده لا يحل المشكلة من جذورها ما لم تصلح ما بنفس الإنسان.

وإنما يصلح ما بنفس الإنسان حقا بشيء واحد لا شريك له، ولا منافس له، وهو (الإيمان) الحق بالله تعالى وبرسالاته، وبالدار الآخرة. فهذا الإيمان وحده هو القادر على تغيير الإنسان من داخله تغييرا جذريا، فيعرف نفسه، ويعرف ربه، ويعرف غايته، ويعرف طريقته، ويهتدي للتي هي أقوم ﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ (التغابن: ١١).

الإيمان هو الذي يمنح الإنسان الوازع الذاتي، والضمير الحي، الذي يجعل من ذاته رقيبا على ذاته، ويجعله يخشى الله قبل أن يخشى الناس، ويعمل ما يرضي الله تعالى، قبل أن يرضي الناس.

الإيمان هو الذي يصنع (الأخلاق) التي ترقى بالإنسان، وتوجهه إلى الخير، وتبعده عن الشر، وبها تتزكى نفس الإنسان وتتطهر ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴿١٠﴾﴾ (الشمس: ٩، ١٠).

إن مشكلة البيئة في أساسها وجذورها مشكلة أخلاقية، وعلاجها الحقيقي إنما يكمن في الرقي بأخلاق الناس، والعودة إلى إحياء أخلاق العدل والإحسان والرحمة والرفق والاعتدال، وغيرها من الفضائل التي فقدها الإنسان المعاصر الذي غره ما وصل إليه من قوة وتقدم، فقال ما قال قارون ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾ (القصص: ٧٨) ولم يقل ما قاله سليمان حين أحضر له عرش بلقيس: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ (النمل: ٤٠).

والإسلام ـ بنقاء عقيدته، وكمال شريعته، وتوازن أخلاقه ـ هو الجدير أن يقدم للإنسانية في مشكلات البيئة وصفة الدواء، وهدية الشفاء، بما احتوى من توجيهات وتشريعات وأخلاقيات، ربطها كلها بالإيمان بالله تعالى.

فلعل البشرية تستفيد في سلوكها البيئي من هذه الهداية الإسلامية، فهي هداية للبشرية جمعاء: ﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾ (المائدة: ١٥، ١٦).

المحتويات

رقم الإيداع ٢٤٨٧ / ٢٠٠١
الترقيم الدولى I.S.B.N. 977 - 09 - 0691 - 3

مطابع الشروق
القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى ـ ت ٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت : ص.ب : ٨٠٦٤ ـ هاتف : ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٢١٣ ـ فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)

رعاية البيئة
فى شريعة الإسلام

